

مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الرابع والستون
رمضان ١٤٠٩ هـ
مايو ١٩٨٩ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
المعهد السويسرى سابقا (بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الرابع والستون

رمضان ١٤٠٩ هـ - مايو ١٩٨٩ م

المشرف على المجلة:

الدكتور مهدي علام

رئيس التحرير:

إبراهيم التريزي

الفهرس

تصدير :

● للأستاذ ابراهيم التري

ص ٥

● كلمة الدكتور أحمد فتحي سرور وزير التعليم

في افتتاح المؤتمر

ص ٧

● كلمة افتتاح المؤتمر للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٩

● كلمة الدكتور شوقي ضيف الأمين العام للمجمع

ص ١١

● كلمة الأعضاء العرب للدكتور عدنان الخطيب

ص ٢١

● كلمة الختام للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٢٤

البحوث :

● الأرقام العربية بين مشرق الوطن العربي ومغرب - صلة الكلام في تسوية الأرقام للدكتور عدنان الخطيب

ص ٢٧

● بشائر في أفق العروبة

قصيدة للأستاذ حسن عبد الله القرشي

ص ٤٢

● دواب الأرض في القرآن الكريم للدكتور محمد رشاد الطوبى

ص ٤٥

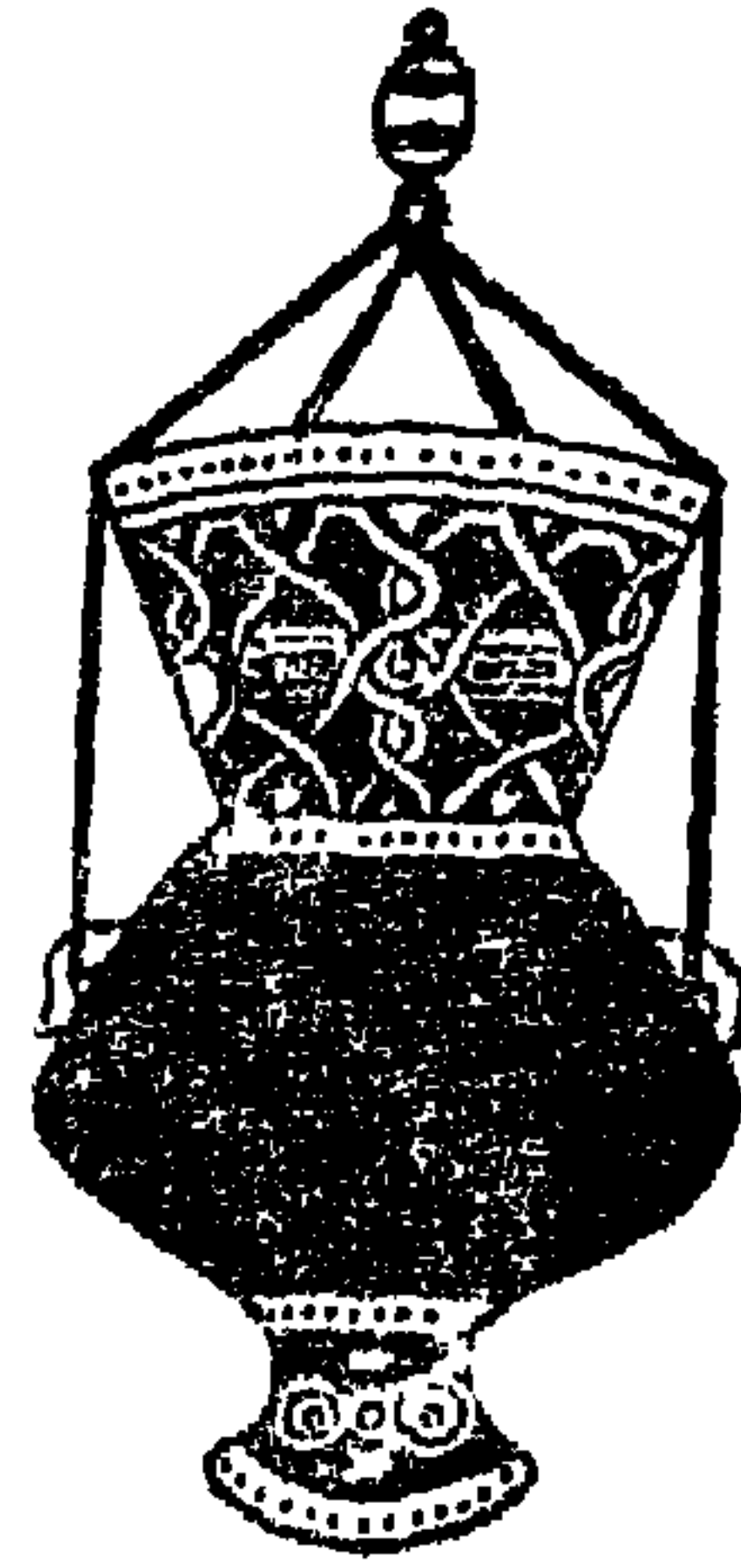
● شعراء مغمورون « عبد الله بن عمرو ابن أبى صبح المزنى »

للاستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

ص ٥٩

● أفكار وقضايا حول معجم موحد لالفاظ الحضارة في الوطن العربي للدكتور عبد الكريم خليفة

ص ٨١



- من قضايا السيرة النبوية « تصحيح »
لمفاهيم خاطئة
للدكتور محمد الطيب النجار
ص ٩٦
- الجراحة في الاسلام
للدكتور مهدي محقق
ص ١٩٢
- ليس في اللغة واو للاستئناف
للدكتور محمد نائل احمد
ص ٢٠٨
- دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب
والبحوث في مجال الدراسات الاسلامية
للدكتور حسن الفاتح قريب الله
ص ١١٩
- آدم وحواء وابليس في القرآن الكريم
للدكتور حسين مؤنس
ص ٢١٦
- الفاظ حضارية بطل استعمالها
للدكتور احمد السعيد سليمان
ص ١٥٢
- مدخل الى الالفاظ الاسبانية المأخوذة
من العربية
للدكتور محمود علي مكي
ص ٢٥٩
- المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة
العربية للأوربيين في الجزائر
للدكتور ابو القاسم سعد الله
ص ١٦٤
- احياءات بديع الزمان لابن شهيد في
التوابع والزوابع
للدكتور شوقي خفيف
ص ٢٧٤
- الألفاظ العربية في اللغة البربرية
للأستاذ محمد الفاسي
ص ١٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدير

لأستاذ إبراهيم الترنزي

ألفاظ الحضارة أشد ارتباطاً بالإنسان ، وأكثر استعمالاً في حياته ، من غيرها من الألفاظ . . لأنها تتصل بشئونه اليومية في البيت ، والشارع ، ومحل العمل ، ومعاهد التعليم ، ونوادي الرياضة ، والأسواق . . . وكل ما يتصل بحياة الإنسان من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن . . وحرقة وتجارة . . وزراعة وصناعة .

وبهذا تختلف ألفاظ الحضارة باختلاف البيئات والبلدان ، والأزمان .
فألفاظ الحضارة في البوادي غيرها في الحواضر . . وحول شواطئ الأنهار غيرها على سواحل البحار .

كما أنها تختلف من عصر إلى عصر . . لأن حضارة الإنسان في تطور متواصل ؛ بما يستحدث من وسائل المعيشة وأدواتها ، وما قد يطرأ على بعض عاداته وظواهر حياته في أسرته ومجتمعه من تغيير يقتضيه التطوير الحضاري ، الذي يمتد إلى مختلف مناحي الحياة ، في نشاطها الإنساني المتجدد . .

ولكل ما سبق من اختلاف وتطور عدل المجمع عن تسميتها « مصطلحات الحضارة » - كما يخطئ البعض في ذلك - إلى تسميتها « ألفاظ الحضارة » ورأى أن يجعل موضوعه المقترح لمؤتمر هذه الدورة الجمعية (الخامسة والخمسين) : « ألفاظ الحضارة في الوطن العربي » . . وهو يهدف بالبحوث

التي تعد في هذا الموضوع إلى وضع معجم موحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي .

ولا يفوتني التنويه بأن المجمع شغل نفسه بألفاظ الحضارة منذ منتصف الأربعينيات . . وبالجهد الكبير الذي بذله المرحوم الأستاذ محمود تيمور في هذا السبيل ، وقد كان مقررّاً للجنة ألفاظ الحضارة ، وتابع مسيرته المرحوم الأستاذ بدر الدين أبو غازی . . حتى أخرج عن المجمع « معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون » .

إبراهيم التري
رئيس التحرير

١- كلمة الدكتور أحمد فتحي سرور وزير التعليم

الأستاذ الجليل رئيس المجمع :

الأساتذة الأعضاء الأجلاء :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

يشرفني أن أفتتح مؤتمركم ، وأن أحيايكم وأرحب بكم ، وأخص بالتحية والترحيب الأعضاء العرب ، وغير العرب ، الذين تركوا ما لديهم من شواغل في بلادهم ، وحرصوا على القدوم إلى القاهرة ؛ ليشاركوا زملاءهم الأعضاء المصريين في أعمال مؤتمرهم المجمعى .

أيها الأساتذة الأجلاء :

هاهى دوراتكم الجمعية تتواصل عاماً بعد عام ، حتى تبلغ عامها الخامس والخمسين وأنتم عاكفون على بحث كل ما يتصل بلغتنا العربية من قريب وبعيد ، والتصدي لمشكلاتها وقضاياها في مختلف المجالات . ثم تصدرون القرارات اللغوية بشأن العديد من قواعد اللغة وأصولها ؛ تيسيراً على الكتابين والقارئين . . . وبشأن الألفاظ والأساليب المستحدثة التي ترمى بالخطأ والخروج على

اللغة ، فتجيزون منها ما لا يخرج على الضوابط اللغوية ، أو ماله أصل لغوى صحيح ، وفي ذلك أيضاً تيسير على الكتابين والقارئين ، بإثراء لغتنا المعاصرة بهذه الألفاظ والأساليب واستحداث ما يجرى منها على سنن العربية وضوابطها العامة .

ولم يكن الرسم الهجائى للكلمات العربية بعيداً عن بحوثكم ودراساتكم ، كما لم يكن كذلك الرسم الطباعى للحروف العربية . . ولا يفوتنى التنويه هنا بأن جامعة الدول العربية حين اتجهت - منذ سنوات - إلى معالجة قضية رسوم الحروف العربية في مجال الطباعة ، لم تجد خيراً من مشروع الكتابة العربية الذى أعده مجمعكم ، ليكون النموذج الأمثل والأوفى في هذا المجال .

ولا يفوتنى التنويه كذلك بأن بعض دور الطباعة والصحف قد عمدت إلى تطبيق المشروع المجمعى ، وفي طليعتها صحيفة « الأهرام » التى أعلنت ذلك ، مشفوعاً بالإشادة والعرفان لمجمعكم العريق الجليل .

وما أنتم في مؤتمركم هذا تعمدون إلى معالجة قضية ذات أهمية بالغة في عالمنا العربي وهي قضية « ألفاظ الحضارة العربية » في منظورها العربي الصحيح . . . وهي قضية ذات شأن جليل وخطير ؛ حيث تختلف بعض هذه الألفاظ باختلاف البيئات العربية ، ومجتمعاتها ، وتاريخها ، وروافدها الحضارية في مختلف بلدان العالم العربي . . . مما يجعل الحاجة ماسة وملحة للتقريب بين ألفاظ الحضارة العربية ، عن طريق البحث والدراسة . : ثم العمل على تحقيق ما يصدر بشأن ذلك من قرارات وتوصيات .

إن اللغة العربية هي وسيلة التعبير عن حضارتنا العربية . ومهما اختلفت ألفاظها فإنه يجب المحافظة على جوهر المعنى الحضاري الأصيل الذي تعبر عنه ، الأمر الذي يعبر عن أهمية العمل الجليل الذي أنتم مقبلون عليه . وإننا نتطلع إلى جهودكم في هذا السبيل بكل الأمل والتقدير .

وفقكم الله تعالى ، وحفظكم حماة ورعاة
للغتنا العربية الخالدة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



٢- كلمة افتتاح المؤتمر

للاستاذ الدكتور ابراهيم مذكور
رئيس المجمع

مصطلحاته التي تصدر كل عام وقد وصل
عددها إلى ثمان وعشرين مجموعة .

وبدأ منذ سنوات في إخراج معجمات
متخصصة أذكر من بينها معجم الفيزيكا
النووية ، ومعجم الفيزيكا بوجه عام والمعجم
الفلسفي ، ويحرص على أن يتابع هذه السلسلة
من المعجمات العلمية آملا أن ينتهي بها إلى لغة
علمية واحدة في العالم العربي جميعه كما كان
الشأن إبان الحضارة الإسلامية ولا شك في أننا
نسعى جميعا إلى توحيد لغة العلم شرقا وغربا
والطلب على هذا اللون من التأليف شديد
وملاحظ

ولم يفت مجتمعنا في العقد الثاني من تاريخ
إنشائه أن يتجه نحو ما أسماه « لغة الحياة العامة »
وهذه تسمية قال بها « لطفى السيد » أستاذ
الحيل في الأربعينيات وحاول أن يشكل بلحانا
لمجمع هذه اللغة من مستعملها وناطقها في
المصنع والمتجر والنادي ومظاهر الحياة
المختلفة ، وترتب على ذلك تكوين لجنة خاصة
هي « لجنة ألفاظ الحضارة والفنون » وتعمل
هذه اللجنة بانتظام ويسهم فيها أعضاء قدروا
بمهمتهم وعرفوا كيف يواجهونها ، وأذكر
من بينهم المرحوم « محمود تيمور » الذي يعد

أبيها السادة :

إن مؤتمرنا هذا خاتمة دورتنا الجمعية
السنوية ، وما أسعدها من خاتمة ، فإنها تتيح
لنا فرصة لقاء زملائنا العرب والمستعربين من
أعضاء عاملين ومراسلين ، نسعد بهم حقا
لأنهم يسهمون معنا عن قرب في خدمة اللغة
العربية وإن كان لا يفوتنا أن نستعين بهم عن
بعد في كل ما يتصل برسالتنا المشتركة ، ونحاول
دائما أن نبعث إليهم ببعض أعمالنا التمهيدية
في بلحاننا لكي يبدو رأيهم فيها ، ويلبي كثير
منهم هذه الدعوة ، ويدلون بدلوهم وكأنهم شهود
وحضور ، ولهم بوجه خاص إسهام في
« لجنة المعجم الكبير » التي يغذونها بملاحظاتهم
وإضافاتهم ، ولهم في لقائنا السنوي هذا ما يعين
على تدارك ما فات ، واستكمال ما تدعو إليه
الحاجة . وقد درجنا على أن نضع تحت أنظارهم
كل ما اتخذته مجلسنا من قرارات وما أبداه من
توصيات طوال العام المجمعى .

وإلى جانب الرسالة اللغوية البحتة التي
بضطلع بها المجمع في بلحانه الأدبية واللغوية
يعنى بأمرين هامين هما « لغة العلم » و « ألفاظ
الحضارة » ولجميعنا إسهام ملحوظ في هذه
اللغة ، وطوال ربع القرن الأخير أقر ثروة
علمية لها وزنها ، أخرجها أولا في مجموعات

بحق من مؤسسى « ألفاظ الحضارة » وسار
على نهجه زملاء آخرون أمثال « محمد خلف
الله أحمد » و « بدر الدين أبو غازى » .
وانتهى الأمر بهذه اللجنة أن أخرجت معجما
صغيرا أشرف عليه « بدر الدين » وجمع فيه
كل ما أقر من ألفاظ الحضارة حتى عام ثمانين
وتسع مئة وألف . وفيه حصر للغة المنزل
والأدوات المنزلية ، وبعض الحرف
والصناعات ، وألوان التربية الرياضية ككرة
القدم وألعاب القوى ، وأملنا كبير في أن
تسود هذه الألفاظ في العالم العربى جميعه ،
وأن تجد سبيلها إلى صحفنا وإذاعاتنا ، بل
وإلى معجماتنا اللغوية . ولا أزال أذكر
ملاحظة أبدأها المرحوم « عبدالرزاق
السنهورى » يوم أن رأى معجمنا الوسيط في
طبعته الأولى ، ولاحظ أنا أقررنا كلمة
« أكرة » وأدخلناها في معجمنا وعد ذلك خطوة
إلى الإمام يجب أن نتبعها .

ولا شك في أن ألفاظ الفنون والنشاط
الفنى بمختلف صوره تحتاج إلى تغذية وأداء
عربى ، وخطا مجمعنا فى هذا السبيل خطوات
يكفى أن أذكر أن من بينها مصطلحات فى
فن النحت والخزف كما عرض لمصطلحات
الموسيقى والسينما . ونعتقد أن لغة كرة القدم
بوجه خاص أصبحت شائعة وعامة فى العالم
العربى جميعه ، ونحن على يقين من أن الفنون
الأخرى ستأخذ سبيلها إلى هذا التوحيد
والاستعمال العام المعترف به .

وأظنكم تتفقون معى على أن « لغة
الحضارة » كانت جديرة بأن تحمل راية
البحث فى لقائنا هذا وسنسعد بكل ما يعرض
حولها من بحث ودرس .

والسلام عليكم ورحمة الله .



٣- كلمة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف الأمين العام للمجمع

السيد الدكتور وزير التعليم

السيد الدكتور رئيس المجمع

السادة الزملاء أعضاء المؤتمر

السيدات والسادة :^{١٤٧}

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد

فلإننا نلتقى اليوم للاحتفال بافتتاح مؤتمر المجمع في دورته الخامسة والخمسين إغزازا ووفاء للعربية لغة القرآن المجيد التي شرف الله بها أمتنا والتي ظلت تجمع شعوبها طوال أربعة عشر قرنا إلى اليوم على لسان واحد وفكر واحد ومشاعر واحدة وآمال واحدة، وستظل أمتنا تضمها إلى صدرها حريصة على بيانها الناصح وعلى ما يتيح لها النمو والإنطلاق في مسيرتها الحضارية العصرية ، وهو ما جعل مصر تنشئ مجمعا للغوى منذ خمسين عاما أو تزيد جامعة فيه صفوة من أعلام نهضتها اللغوية والأدبية والقانونية والعلمية وأعلام اللغويين في الأقطار العربية مع أفذاذ من المستشرقين آمله في أن يضطلع المجمع بكل

ما يتيح للعربية استيعاب المصطلحات العلمية والفنية الغربية وألفاظ الحضارة العصرية .

ودأب المجمع منذ إنشائه على تكوين لجان علمية تنهض بهذا العمل العلمى التحليل مؤلفة من بعض أعضائه ومن خبراء جامعيين مرموقين كل في علمه أو فنه ، وتصوغ بكل لجنة مع من يوازرها من أعضاء المجمع اللغويين مصطلحاتها العلمية في اجتماعات أسبوعية ، وتعرض اللجنة حصيلتها السنوية على مجلس المجمع ليدلى فيها أعضاؤه بمآراءهم ، وتنقحها اللجنة على هدى تلك الآراء ، ثم تعرضها على مؤتمر المجمع السنوى ليناقشها أعضاؤه ، حتى إذا أقروها أصبحت نهائية نثرة أو نتيجة لشورى جماعية كبرى ، وهى شورى تفسح - بوضوح - لفكرة توحيد المصطلحات العلمية فى أقطارنا العربية إذا يقرها كل أعضاء المؤتمر من مصر وشقيقاتها العربيات فى المؤتمر السنوى ، مما يعطيها صورة بيئة من الإجماع العلمى العربى .

ومجمعنا بذلك أدى - ويؤدي - أداء
سديدا الأمانة العلمية المأقاة على عاتقه من
الإعداد القويم لجعل العربية - في عصرنا -
وافية بمطالب العلوم والفنون ومسميات
الحضارة ، وقد استطاع أن يخرج إلى اليوم
عشرة معاجم علمية ، بل تزيد ، سوى
ما ينشره سنويا من مجموعات لمصطلحات
علمية وفنية وحضارية ، وجميعها تقف
بأبواب الجامعات تنتظر الأذن لها بدخولها
فيها . ولن يتحقق لها ذلك إلا مع تعريب
العلوم في الجامعات . وحينئذ تخلق العربية
بأجنحة قوية في آفاق العلم العالمية . وقد
أخرج المجمع معجما نفيسا لألفاظ القرآن
الكريم يطبعه الآن للمرة الثالثة ، ويخرج معجما
لغويا كبيرا للعلماء المتخصصين ، وأخرج
معجما وسيطا لطلاب الجامعات وأوساط
المثقفين ومعجما وجيزا لتلامذة التعليم العام
وبجانب ذلك عنى المجمع بتيسير قواعد العربية
للناشئة ، وله قرارات في أحد مؤتمرات
القريبة تحقق هذا التيسير على خير وجه .

وسيظل شأن مؤتمر المجمع في هذا العام
شأنه في الأعوام الماضية منعقدا لمدة أربعة
عشر يوما تُعرض فيها عليه حصيلة عام من
جهد اللجان العلمية وما وضعت من مصطلحات
علمية وفنية ومسميات حضارية وحياتية
وقرارات لغوية ومواد معجمية . وكل ذلك
يتدارسه أعضاء المؤتمر دراسة علمية جادة
مشورة ، ولا يصبح أى قرار لمصطلح علمي

أو لفظ حضاري أو قياس لغوي معتمدا إلا
بعد أن يرتضيه المؤتمر ويقره ، فهو صاحب
السلطان الأعلى في تأييد القرار المقترح أو
رفضه ، ويستمع المؤتمر في أثناء ذلك من
أعضائه العاملين والمراسلين إلى العديد من
البحوث الصافية القيمة التي تفيد هي وما تثير
من مناقشات خصبة اللغة والأدب والعلم
فوائد محققة .

السيدات والسادة :

يسعدني - كما تعودنا في إفتتاح كل مؤتمر
مجمعي - أن أعرض على حضراتكم صورة
مجملة للنشاط المجمع منذ عقدنا المؤتمر
السابق حتى أصبحنا على مشارف هذا المؤتمر .

المؤتمر السابق :

قد عقد المؤتمر السابق أربع عشرة جلسة
منها أربع علنية ، أولاها جلسة الافتتاح وفيها
تحدث الدكتور أحمد فتحي سرور وزير
التعليم والدكتور إبراهيم مذكور رئيس المجمع
والأستاذ المرحوم عبد السلام هارون أمين
المجمع السابق والدكتور إسحق الحسيني عن
الأعضاء العرب .

والجلسة الثانية عقدت لتأبين المرحوم
الدكتور عمر فروخ عضو المجمع عن لبنان ،
وألقي كلمة المجمع في توديعه الدكتور عبد الكريم
خليفة رئيس المجمع الأردني .

والجلسة الثالثة كانت لمحاضرة الدكتور كمال
بشر عضو المجمع موضوعها : « اللغة بين
التطور وفكرة الصواب والخطأ » .

والجلسة الرابعة عقدت لتأبين المرحوم
الدكتور أحمد عبد الستار الخوارى عضو
المجمع العراقى ، وألقى كلمة المجمع فى توديعه
الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع من
سورية ، واشترك فى توديعه اللواء الركن
محمود شيت خطاب عضو المجمع المراسل
من العراق بكلمة ألقى بالنيابة عنه .

والجلسات العشر الباقيات كانت مغلقة ،
عرض فيها على أعضاء المؤتمر ١٨٣٠١٨٣ مصطلحات
الإنزيقا والحيولولوجيا والهيديرولوجيا والكيمياء
والصيدلة والطب والنفط والنبات والحيوان
والرياضيات والجغرافيا والقانون (قانون
العقوبات) والاقتصاد والفلسفة (المنطق
الرمزى) والتربية وعلم النفس والتاريخ
والآثار والأصول والألفاظ والأساليب .

وقد أقر المؤتمر المواد المعجمية وما عرض
عليه من قرارات لجنة الأصول وهى : استغناء
الفعل المبني للمعلوم بمادته عن الفاعل ،
واستغناء الفعل المبني للمجهول بمادته عن نائب
الفاعل ، وجواز إثبات الياء فى اسم الفاعل
المنقوص النكرة .

وأقر المؤتمر من أعمال لجنة الألفاظ
والأساليب .

مجموعة من كلمات دارجة ردتها اللجنة إلى
أصول عربية .

وأيضاً أقر للجنة طائفة من الألفاظ
المستدركة على المعاجم المتداولة ، وهى ثلاثة
وثلاثون لفظاً مستخرجة بشواهدها الصحيحة
من كتاب البيان والتبيين للجاحظ .

وقد حفل المؤتمر السابق بكثير من البحوث
والدراسات ، ودارت كثرتها حول موضوع
« لغة الأعلام » بالإضافة إلى موضوعات متنوعة
أدبية ولغوية وفلسفية وتاريخية . وعطرت
أنفاس الشعر أجواء المؤتمر بقصائد أربع
هى « أخى » للدكتور حسن على إبراهيم ،
« وتحية مودة وأسى » للدكتور إبراهيم السامرائى ،
« والفصحى رباط وحدة الأمة وأداة إرتقاء
العلم والحياة » للأستاذ محمد بهجة الأثرى ،
« وتحية المجمع » للدكتور عبد الله الطيب .

توصيات المؤتمر السابق :

أصدر المؤتمر فى جلسته الختامية قرارات
وتوصيات أهمها :

١- يؤكد المؤتمر توصياته السابقة التى
تنص على أن يكون التعليم الجامعى والعالى فى
الوطن العربى جميعه باللغة العربية ويرحب
المؤتمر بالتوصية التى أصدرها اتحاد الأطباء
العرب بأن يكون عام ١٩٨٨ م هو بدء الوقت
فى تعليم الطب باللغة العربية على مدى عشر
سنوات .

٢- يوصى المؤتمر بضرورة الحرص على تعلم القدر الكافي من القرآن الكريم حفظا وتلاوة وتفسيرا في مراحل التعليم الأساسى .

٣- يوصى المؤتمر أن تلتزم كليات الإعلام ومعاهده بدراسة الجوانب النحوية والصوتية للكلم في العربية دراسة تعين الإعلاميين على معرفة الطريق السديد للنطق بالكلم نطقا سليما، مع دراسة نصوص من الأدب العربى في عصوره المختلفة بحيث تصقل ذوقهم الأدبى وتقفهم على أسرار البلاغة العربية .

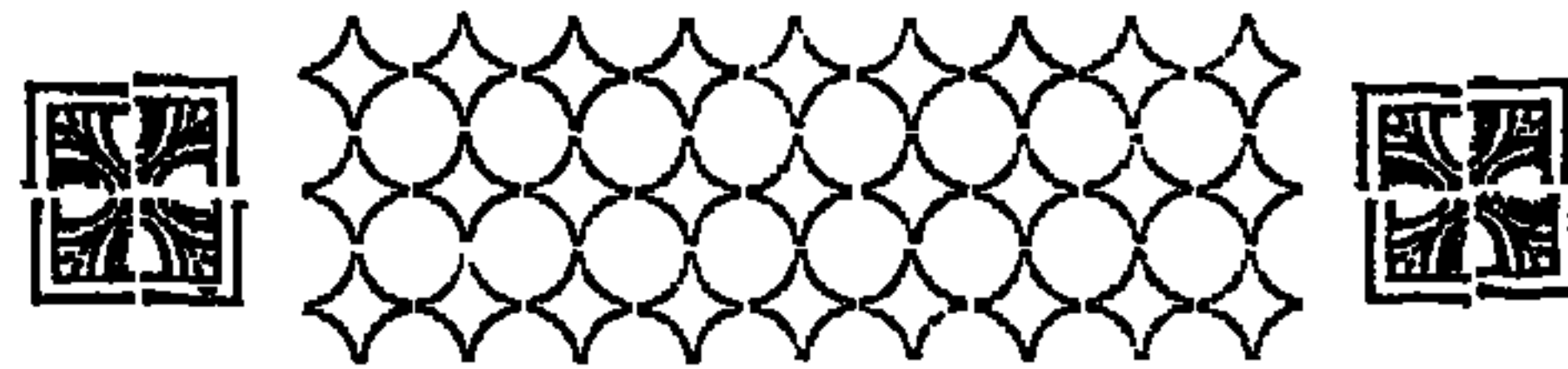
٤- يوصى المؤتمر بأن تعقد للمذيعين دورات تدريبية متصلة تغرس فيهم النطق القويم للألفاظ العربية ، بحيث تجعلهم يتفادون الأخطاء اللغوية الكثيرة التى تجرى على ألسنتهم .

٥- يوصى المؤتمر بأن يعنى فى جميع مراحل التعليم العام بتدريس قواعد اللغة العربية وزيادة الساعات المقررة لها .

٦- يؤكد المؤتمر ضرورة العمل بحزم على مقاومة كتابة لافتات المحال التجارية ونحوها فى جميع أرجاء العالم العربى وكذلك فى المؤسسات على اختلاف أنواعها بأى لغة غير العربية السليمة كما يوصى بتجنب كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية حفاظا على الإلتواء العربى .

٧- يؤكد المؤتمر ضرورة توحيد المصطلحات العلمية فى الوطن العربى ويوصى بتكوين هيئة تتولى إدارة مركز للمعلومات تسجل فيه جميع المصطلحات العلمية لاستخدام الآلة الحاسبة .

٨- يدعو المؤتمر إلى الحرص على أن تكون الخطب الرسمية والبيانات الموجهة إلى الجماهير بلغة عربية سليمة ، لما لهذا من أثر فى التوجيه اللغوى السليم .



أعمال المجلس واللجان

عقد مجلس المجمع منذ انتهاء المؤتمر السابق إلى اليوم ثلاثين جلسة ، منها جلستان علنيتان لتأبين الزميلين الراحلين العزيزين الأستاذ عبد السلام هارون والدكتور محمد زكي شافعي تغمدهما الله برحمته وجزاهما بخير ما يجزى به عباده العاملين المخلصين . واستقبل المجمع في جلسة علنية عالماً جليلاً نسعد بضمه إلى رحابه هو الدكتور عبد الرزاق عبد الفتاح إبراهيم ، أما سائر الجلسات الباقية فقد نظر المجلس فيها نحو ٢٧٩٠ مصطلحاً في الفيزيقا والكيمياء والصيدلة والطب والحيولوجيا والنفط والمعالجة الإلكترونية للمعلومات وعلوم الأحياء والزراعة والهندسة والرياضيات والآثار والجغرافيا والاقتصاد والقانون والتربية وعلم النفس والفلسفة وألفاظ الحضارة المتصلة بمصطلحات الموسيقى . ونظر المجلس في قرارات لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، وستعرض على المؤتمر تلك القرارات وما أنجزته لجنتنا المعجم الكبير من مواد جديدة .



المسابقة الأدبية

كان موضوع المسابقة الأدبية في الدورة
الجمعية السابقة هو « مجموعة قصص قصيرة »
ولم يتقدم أحد لنيل جائزتها ، واقترحت اللجنة
الخاصة بتلك المسابقة أن يكون موضوعها في

العام المجمعي الحالي ترجمة وافية للمرحوم
الشيخ أحمد الإسكندري عضو المجمع السابق
ووافق المجلس على الاقتراح

مسابقة احياء التراث

وكان موضوع مسابقة إحياء التراث تحقيق
نص لغوي أو أدبي لم يسبق نشره تحقيقا علميا
سديدا ، وفاز بالجائزة الدكتور أحمد خان
عن تحقيقه لكتاب « خلق الإنسان في اللغة »

لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن . ووافق
المجلس على أن يكون موضوع المسابقة في
العام المجمعي الحالي نفس الموضوع في العام
الماضي .

جائزة جديدة

وافق المجمع في هذه الدورة على إنشاء
جائزة سنوية جديدة تمنح لأهم بحث يصور
جمال الأداء القرآني لغة وأسلوبا، وتُموّل
من الهدية المقدمة إلى المجمع من فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى عضو المجمع وقدرها
خمسون ألف جنيه وأودعت الهدية بذلك فيصل
الإسلامي المصري .

مطبوعات المجمع

- أصدر المجمع في الدورة السابقة المطبوعات التالية :
- ٢ - الأجزاء الثالث والخامس والسادس من كتاب « التكملة والذيل والصلة للزبيدي » .
- ١ - الأجزاء السابع والخمسين والثامن والخمسين والتاسع والخمسين من مجلة المجمع .
- ٣ - الجزءين السابع والعشرين والثامن والعشرين من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .



وقييد الطبع الآن

- ١ - محاضر جلسات مجلس المجمع ومؤتمره للدورة الخمسين .
- ٢ - محاضر جلسات مجلس المجمع ومؤتمره للدورة الحادية والخمسين .
- ٣ - بحوث ومحاضرات العيد الخمسيني للمجمع اللغة العربية .



صلات المجمع الثقافية

لحضور ندوة تقييس وتوحيد المصطلحات
مجال التطبيق في المدة من ١٣ إلى ١٧ من
مارس المقبل ، وقرر إيفاد الزميل الدكتور
عبد الرازق عبد الفتاح إبراهيم لحضور هذه
الندوة . كما وافق المجمع على قبول الدعوة
الموجهة إليه من معهد الإيماء العربي للإشتراك
في أول مؤتمر علمي له يدور حول الكتابة
العلمية باللغة العربية : واقع وتطلعات ،
وسيعقد المؤتمر في عمان بالأردن في نوفمبر
المقبل ، وقرر المجمع إيفاد الزميل الدكتور
محمد رشاد الطوبى لتمثيله فيه .

ووافق المجمع على قبول دعوة من معهد
أتاتورك للدراسات التركية لحضور مؤتمر
الثقافة التركية قبل العثمانيين في شهر سبتمبر
المقبل وقرر المجمع إيفاد الدكتور أحمد السعيد
سليمان لتمثيله فيه ، ولا تتوقف صلوات المجمع
الثقافي عند المجمع والهيئات إذ يتلقى دائماً من
أفراد الدارسين بحوثاً ومقترحات لغوية
يحيلها على اللجان المختصة لدراستها تمهيداً
لنظرة فيها . وباستمرار يتبادل مطبوعاته مع
الهيئات والمؤسسات الثقافية ودعماً للروابط
الثقافية بين المجمع وعلماء العالمين العربي
والإسلامي إختار المجمع في الدورة السابقة ستة
عشر عضواً مراسلاً من المهتمين بشئون اللغة
العربية لمعاونته في أداء رسالته ، وهم :

يحرص المجمع دائماً على توثيق صلاته
بالمجامع العربية والهيئات الثقافية في مصر والعالم
العربي والإسلامي والدولي ، فيشارك فيما تعقده
من مؤتمرات وندوات ، وينظر فيما تقدم إليه
من مصطلحات ومسائل لغوية ويحيلها إلى
اللجان المختصة لإبداء الرأي فيها ثم عرضها على
المجلس وقد مثل المجمع الزميل الدكتور
محمود حافظ في إفتتاح الموسم الثقافي للمجمع
الأردني في شهر إبريل وألقى فيه محاضرة عن
اللغة العربية والتعليم العام والجامعي ومثل
المجمع الزميل الدكتور مجدى وهبة في الإتحاد
الدولي للمجامع ببروكسلي في شهر يونية ،
وقدم فيه التقرير السنوي عن أعمال لجنة
إحياء مؤلفات ابن رشد . ومثل المجمع الدكتور
محمد مهدي علام نائب رئيس المجمع في مؤتمر
التعريب بالرباط في شهر سبتمبر وشارك في
أعماله ، وقدم إلى المجمع تقريراً إضافياً عن
قراراته . ورشح المجمع الدكتور عبد الحليم
منتصر ، والدكتور محمود حافظ لتمثيله في
مؤتمر مصر عام ٢٠٠٠ الذي انعقد في أواخر
ديسمبر .

ومثل المجمع أيضاً الدكتور محمود مختار
والدكتور أحمد السعيد في ندوة اللغة العربية
والكمبيوتر بمؤسسة الأهرام في الشهر الحالي :
ووافق المجمع على قبول الدعوة الموجهة
إليه من المعهد القومي للمواصفات بتونس

من جمهورية مصر العربية - الأستاذ
الدكتور رشدي راشد ، ومن: السودان -
الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله ،
والأستاذ سر الختم الخليفة ، ومن الأردن
الأستاذ الدكتور أحمد سليم سعيدان ، والأستاذ
الدكتور محمود السمرة ، ومن السعودية
الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ، والأستاذ محمد
بن عمر بن عقيل ومن فلسطين الأستاذ أحمد
شفيق الخطيب ، ومن الجزائر الأستاذ

الدكتور أبو القاسم سعد الله والأستاذ الدكتور
عبد الرحمن الحاج صالح ، والأستاذ الدكتور
عمار الطالبي ، ومن باكستان الأستاذ الدكتور
ذو الفقار علي مالك ومن أندونيسيا الأستاذ
الدكتور فؤاد فخر الدين ومن نيجيريا الشيخ
الحاج أبو بكر محمد قمي والأستاذ الدكتور
علي أبو بكر ومن السنغال الأستاذ إبراهيم
محمود جوب .

صلوات المجمع الثقافية

جائزة الدولة التقديرية

نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب في
العام الماضي العالم الجليل المرحوم
الأستاذ عبد السلام هارون تقديراً لجهوده
طوال حياته في إحياء التراث ونشر كنوزه
النفسية .

مفسو جديد :

وإذا كان المجمع ودع زميلين جليلين
هذا العام فإنه سيستقبل - عقب هذا المؤتمر -
عالمًا جليلاً فاز بعضويته هو الزميل الأستاذ
عبد الكريم العزباوى .

ولا يفوتنى أن أبعث بأطيب أمنيات الصحة
والعافية للائحة الزملاء الذين حالت ظروف
طارئة دون حضورهم هذا المؤتمر والله أسأل
أن يسعدنا برويتهم في المؤتمر المقبل إن شاء
الله .

الزملاء المعتذرون هم :

الأستاذ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ،
الأستاذ الشاذلى القلايبي ، والأستاذ الدكتور

أحمد الطرابلسي ، والأستاذ الدكتور رودلف
زلهام ، والأستاذ عبد الله كنون ، والأستاذ
الدكتور سعيد خدوري ، والأستاذ محمد بهجة
الأثري ، والأستاذ الدكتور محمود السمرة
والدكتور شرباتوف .

السيدات والسادة :

يسعدنى فى ختام كلمتى أن أشكر كل من
شاركوا فى هذا الحفل ، كما يسعدنى أن أحى
أزكى تحية باسم المجمع الزملاء المجمعين
الوافدين من الأقطار العربية والإسلامية وكذلك
من الأقطار الغربية لشهود هذا المؤتمر
والمشاركة الخصبه فيه بعلمهم الغزير وآرائهم
القيمة ، فلهم منا أجزل الشكر وأصدق الود
راجين لهم طيب الإقامة بيننا فى بلدهم مصر .

والسلام عايكم ورحمة الله وبركاته



٢- كلمة الأعضاء العرب

للدكتور عدنان الخطيب

إلى المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية ،
وما شعرت مرة بغربة الديار وأنا في مصر ،
وما تركتها سنة إلا وشعرت بأن قلبي
زاد تعلقا بها ، وما عدت يوما إلى دمشق إلا
وكان التحنن إلى مصر ملء جواني إلى أن
أوثوب إليها مرة أخرى .

أنا لست الوحيد من أهل الشام في شعوري
هذا ، كما لست الوحيد من أبناء الوطن العربي
في حبي مصر ، لأن كل شامي - على
ما أعتقد - بل كل عربي ، ما دام
على فطرته ، إنما يحب مصر كحبه البلد الذي
ولد أو عاش فيه ، حتى إذا ما جاءها يوماً
تمنى ألا يفارقها ، وإذا غادرها كانت جل
أمانيه ألا يطول غيابها عنها . إن ديوان العرب
قد امتلأ بشعر الحنين إلى الأوطان ، وقد
جمع الجاحظ في رسالة له ، وشلا من خضم
ما قاله الشعراء في هذا الحنين كما علل علماء
النفس هذا الشعور حتى أنهم (فلسفوه) غير
أنهم قصّروا في تعليل شعور العربي ، وقد
يملاً قلبه الحنين إلى أكثر من ربع ، وإلى أكثر

سيدي الرئيس الحليل سادتي الأجلاء :

يسعدني أن أحمل إلى مصر ، التليد مجدها
في الحضارة والعمران ، العظيم شعبها في
الدفاع عن العروبة والإسلام ، العميم فضلها
في الهبوب إلى نصرة المستنجد بها من العالمين
العربي والإسلامي ، الشديد بأس أبنائها إذا
ما غضبوا لعسف حاق بمقهور ، الخاوة
شماثلهم إذا ودعوا ، الفائق كرمهم إذا ما
ما استضيفوا .

لا بل أنا جئت سعيد بأن أحمل اليوم إليكم
من بلاد الشام ، خالص الحب وجزيل التقدير
وأمهات الأطفال في بلاد الشام ، عرف عنهم ،
من قديم الزمان ، بأنهم يرضعن أبناءهم حب
مصر وسائر بلاد العرب ، حتى إذا ما ألحقهم
بالمدارس ، وكان نشيدهم صباح كل يوم :
« بلاد العرب أوطاني .. » .

سادتي الأجلاء :

منذ ربع القرن أو يزيد ، وأنا ألبى الدعوة

من بلاد ، وإلى أكثر من موطن في بلاده
الواسعة الأرجاء .

سادتي الأفاضل : لقد احتل الشعر عند
العرب مكانة مرموقة بسبب من خصب خيالهم
وشدة حبهم البلاغة والإيجاز ، ولطائفة لغتهم
الحميلة لأفكارهم المختلفة حتى أنهم كانوا
يبالغون في تكريم الشاعر إذا نبغ في إحدى
قبائلهم ، ويدفعون به إلى الأفق الواسع
الرحيب حتى يصبح شاعر العرب قاطبة :

وشد عن هذا التقليد العربي الأصيل
تلقيب كاتب من ألمع كتاب عصرنا الحديث ،
وشاعر من فحول شعراء العالم العربي ،
لقد كان هذا الشاعر يغوص على المعاني
ويولدها ، ثم لا يبالي بما يقع عليه من لفظ
مادام يؤدي المعنى الذي التقطه أو ولده ،
كان يستقصى المعاني ثم يعرضها على قارئه ،
وقد زانها فكره العميق وإطلاعه الواسع على
التاريخ وعلمه الزاخر في كل من الأدب
العربي وصنوه الفرنسي .

كل الربوع ربوع العرب لي وطن
للضاد ترجع أنساب مفرقة
تفني العصور وتبقى الضاد خالدة

* * *

من مبلغ فتية الحين مألوسة
فيم التخاذل لافلتت جموعكم
مالى وللناس ، جد الناس كلهم
لا تطلبوا الراحة الكبرى بلا تعب

* * *

كان شاعرنا قد ولد في إحدى مدن الشام ،
ثم جاء مصر ، وفيها استوفى معارفه ولمع
نجمه ، وفيها عاش طوال حياته إلى أن قضى
نجمه ، وكان يجمع في قلبه الواحد حبين ،
واستطاع أن يوفى حق الولاء للبلدين ، مما
دفع العرب إلى أن يغدقوا عليه لقب : شاعر
القطرين .

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى
أوزارها ، وتقاسم المستعمرون من رائجيها ،
الأقطار العربية ، وصنعوا فيها حكومات
موالية لهم ، متخاذلة مع شقيقاتها العربيات ،
جاء خليل مطران يزور بلاد الشام ، فاستقبل
ببالغ الحفاوة والتكريم ، وفي أحد المهرجانات
وقف شاب في مبة شبابه ، كان شبه
مغمور ، إلا عند قلة من النباء كانت تذنباً
له بمستقبل باهر ، وأنشد قصيدة ، وكان
مما جاء فيها :

ما بين مبتعد منها ومقرب
فالضاد أفضل أم برّة وأب
شجى بحلق غريب الدار مغتصب

كالسهم ريش فإن سدده يصب
والدهر يزحف بالأرزاء والنوب
وضاع قومي بين الجحد واللعب
فراحة المرء بعد الكد والتعب

أين الشباب وفتيان غـ... طارفة
 اليعربيسون لا حقد ولا غضب
 غنيت قومي بالأشعار أطربهم
 وأحزن الشعر بيت راح ينشده
 خير التمهائد ما أوحته عاطفـة
 "فسار في كل دنيا غير مغترب
 كالأسـد في الغيل ما واثبها تثب
 قد يسلب الحق بين الحقد والغضب
 لو يسمع القوم شذو الشاعر الطرب
 دمع تحدر من أجفان مكتئب

لقد كان الشاعر المغمور يومئذ ، محمد سليمان الأحمد شاعر العربية الكبير بدوى الجبل .

سيدى الرئيس الجليل :
 سادى الأفاضل :

لقد شرفت اليوم بالتحدث إليكم بمناسبة
 افتتاح الدورة الخامسة والخمسين لمؤتمر
 مجمع اللغة العربية ، اللغة التى شرفها الله
 عز وجل بالتنزيل الحكيم ، ولمصر أن
 تفاخر شقيقاتها العربيات بمجمعها هذا ،
 العامل ماوسعه على النهوض بالعربية ،
 لتؤدى الفصحى رسالة العلم والحضارة
 على ما يحب أنصارها ، المتفانون فى خدمتها ،
 ولإنى لأزداد شرفا ، إذ أعلن باسم الزملاء
 الوافدين على مصر من سائر أقطار الوطن
 العربى عن خالص تقديرهم وعميق شكرهم
 لمصر ولجميعها الموقر على ما يلاقونه من فائق
 الترحاب وعلى ما يسدى إلى الفصحى من
 جليل المكرمات .
 والسلام عليكم ورحمة الله .



كلمة الختام للأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع

في ختام جلستنا هذه لا يسعني إلا أن أكرر
ترحيبي بمن حضر معنا من الإخوة العرب ؛
والمستعربين وشكري لمن حضروا الجلسة
جميعاً .





عشرون

الأرقام العربية

بين مشرق الوطن العربي ومغربه

صلة الكلام في تسوية الأرقام للككتور عدنان الخطيب

لوزارة التربية والتعليم يشير فيه إلى صعوبة التفريق بين رقم ٢ و ٣ حين يكتبان بالخط النسخي في الكتب وسائر المطبوعات ، ويقترح عمل رسم جديد لرقم ٢ على نحو رسمه في الخط الرقعي ١

وقد أحيل الاقتراح إلى لجنة تيسير الكتابة فدرسته مع الأستاذين محمد علي المكاوي وشفيق متری الخبيرين باللجنة الفنية في تيسير الكتابة ، فقدم الأستاذ محمد علي المكاوي مذكرة أقر فيها اقتراح المراقب المالي لرقم ٢ بحيث لا يبعد عن القديم

١. - عودة الى ماض بعيد :

« . . وأعلن الأستاذ الرئيس موافقة المجلس على أن تبعث لجنة تيسير الكتابة بموافقتها على تعديل كتابة رقم (٢) فقط » ، كان هذا في الجلسة الختامية لمجلس المجمع في سنة ١٩٥٦ التي كان يتولى سدة الرئاسة فيها المغفور له استاذنا الجليل أحمد لطفي السيد^(١).

إن موافقة المجلس الكريم تمت بعد أن عرضت عليه مذكرة اللجنة الخاصة بتيسير الكتابة التالي نصها :

(ورد المجمع كتاب من المراقب المالي

(*) ألقى في الجلسة الثانية في يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .
(١) جلسة مجلس المجمع الثلاثون والمنعقدة بتاريخ ٢٨ من مايو سنة ١٩٥٦ انظر ص ٢٩٧ من محاضر جلسات المجمع في الدورة الثانية والعشرين طبعت في القاهرة سنة ١٩٧٩ وانظر ص ٣١٧ من كتابنا عن « العيد للذهبي لمجمع اللغة العربية » دمشق ١٩٨١ .

بمقاييس حروف الطباعة .

(٢٨ / ٥ / ١٩٥٦)

٢ - عيوب صور الأرقام :

تتقاسم العالم العربي اليوم سلسلتان من الأرقام مختلفتا الصور والأشكال ، أرقام مشرقية تسمى (الأرقام الهندية) ، وأرقام مغربية وليدة (الأرقام الغبارية) ، وكلتا السلسلتين من ابداع الحضارة الإسلامية ، ولا يجحد عروبتهما إلا متكابر .

ولقد حاولنا فيما سبق أن كتبناه أثبات عروبة الأرقام المشرقية ردا على من يقول بأعجميتها ، وليس لديهم من حجة إلا القول بأنها كاسمها هندية الأصل (٥) لأنهم يدعوننا إلى نبذها واحلال (الغبارية) محلها ، وهي التي يطلق عليها الفرنجة اسم (الأرقام العربية) اعترافا بحقيقتها ، وتغنيينا

ويمحو أثر الاشتباه (٢) وأضاف إلى ذلك تغيير الرقم (٥) احساناً له في مظهره وسط الأرقام (٣) ، وتغيير الرقم (صفر) أيضا له (٤) .

ووافق الأستاذ شفيق مري على هذا الاقتراح ولما عرضت المذكرة على الأستاذ إبراهيم مصطفى وافق على ما يختص بالرقم (٢) ورقم (٥) أما الصفر فإنه يرى ألا يجوز .

وهذه صورة الأرقام المقترحة للثنتين والخمسة والصفر هكذا (٢) (٥) ، (٥) مقابل (٢) ، (٥) ، (٥) .

ومع هذا نسخة كتاب المراقب المالي ، ومذكرة الأستاذ محمد على المكاوي ، وطابع للأرقام العشرة مكبرة ومصغرة صنعتها دار المعارف ليبدو فيه شكل الأرقام

(٢) من الواضح أن الاقتراح تغيا للاكتفاء بإحدى صورتى الرقم (٢) وهي معروفة في القلم الرقعى وشائعة في الكتابة العادية وفي التخطيط .

(٣) أنالم أطلع على اقتراح الأستاذ المكارى ، ولعله كان يود الرجوع إلى كتابة الرقم (٥) على الصورة التي كان عليها عندما تطور عن حرف (هـ) التي ترمز إلى العدد (٥) في حساب الجمل وهذه الصورة ما زالت مستعملة عند كثير من الأمم الإسلامية .

(٤) من الواضح أن الاقتراح فيما يتعلق بالصفر الذى رفضه المجلس كان يتضمن كتابة الصفر كدائرة مفرغة أى بشكل يشبه رمز الصفر فى الأرقام الغبارية التي أخذها الفرنجة عن العرب فى الأندلس .

(٥) من روائع الأدلة على عروبة الأرقام الموصوفة بالهندية لوحة ابن البواب المؤرخة سنة ٤١٤ هـ بتلك الأرقام قبل تطويرها انظر الملحق رقم ١ .

في هذا المقام الإشارة إلى الموضوع عن كل تفصيل فيه . (٦)

تشابه بعض صور فيها ، بعد أن تطورت إلى ماهي عليه اليوم في الآلات الراقمة أو الحاسبة أو في التخطيط ، ولم تنفرد هذه الأرقام بهذا العيب دون الأرقام الأخرى ، كما أن المراقب المالي لوزارة التربية والتعليم في مصر وحدها لم يكن أول من كشف عن مساوئ صور بعض الأرقام ، كما أنه لم يكن آخر من طلب تعديلها (٧) .

إن عيوب صور الأرقام نشأت من تشابه صور بعضها ، و أهل الحساب كأصحاب الآلات الحسابية في خوف دائم من اختلاط المتشابه ووقوع القارئ في الخطأ ، وكل أمانهم أن يبادر أصحاب الرأي إلى الموافقة على تعديل الأرقام بحيث يرفع التشابه بينها ، ولم تخل أرقامنا المشرقية من عيب

(٦) يقوم أفراد من كبار علماء المغرب العربي بحماسة بالغة ، بدعوة عرب المشرق إلى تبديل الأرقام التي يستعملونها بحجة أعجميتها ، ثم استعمال الأرقام الغارية التي يستعملها الفرنجة ويطاقون عايتها اسم (الأرقام العربية) .

وتلقف رجال في مختلف أقطار المشرق العربي تلك الدعوة الآثمة وأخذوا يعملون لتحقيقها بغيرة قومية واضحة وبحماس متفاوت بتفاوت الأقطار التي ينتمون إليها ، وبحسب ما لدى بعضهم من ساطات تنفيذية ، غير عائبين بكون الأرقام المشرقية ، فضلا عن عروبتها الأصيلة التي لم يستطع عالم لإثبات أعجميتها ، غدت جزءاً لا يتجزأ من التراث العربي الإسلامي الذي لا يجوز لأحد التفكير في التخلي عنه على أحد قول المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته السابقة سنة ١٤٠٤ هـ تأييدا لقرار مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية الصادر عام ١٤٠٣ هـ انظر مجموعة قرارات مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة ١٤٠٥ .

(٧) كان مما نشر مؤخرا في نقد الأرقام المشرقية النقدان التاليان :

أولا : نقد لجنة الأصول والتراث في مجمع اللغة العربية الأردني المنشور في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤ من مجلته ، وانحصر النقد في العيبين التاليين :

١ - عيب رمز الصفر (٠) الذي قد يختلط بالنقطة .

٢ - عيب الرقم (٢) الذي يمكن الالتباس معه بالرقم (٣) .

ثانيا : نقد محمد حسين صفوري المنشور في عدد حزيران (يونيو) ١٩٨٥ من مجلة المجمع الأردني وقد ورد فيه : « . . هذه الصيغة في نظرنا تشكو من شكل الصفر الذي يسهل أن يختلط مع نقطة آخر الجملة ، أو يكاد أن لا يظهر بوضوح عند الكتابة أو الطباعة ثم شكل العدد (اثنين) وشكل العدد (ثلاثة) وهما متشابهان وكثيرا ما يصعب تمييز الواحد منهما عن الآخر » .

٣ - الصفر وقيمته في الكتابة العربية :

لقد مرت على أرقامنا المشرقية عصور تجاوزت الألف من السنين تطورت خلالها تطورا عظيما ، إذ كانت في نشأتها مختزلة من الحروف العربية بترتيبها الأبجدي وبحسب قيمتها بحساب الجُمَّل ، كما اثبتنا ذلك في عديد من بحوثنا ، وكانت الأرقام في نشأتها الأولى أشكالا بدائية يصورها الناس تصويرا لاقاعدة له ولا ضابط يحدده ، إلى أن غدت اليوم جزءا من علم الخط العربي ، تطبق عليها قواعده ويلتزم فيها بضوابطه .

لقد ارتبطت أرقامنا المشرقية في تطورها وما آلت إليه ارتباطا وثيقا بالحروف العربية وطبيعتها في الليونة والانسياب حتى أصبحت منذ أكثر من قرن لدى علماء الخط ورجال الفن وحدة لا تتجزأ من حيث جمالها الفني ومقاييسها المحددة وقواعدها الدقيقة .

إن ماوجه إلى أرقامنا المشرقية من عيوب ينحصر في صورتين أساسيتين هما :
أولا : عيب صورة الرقم (اثنين) التي انتهت في الطباعة والتخطيط إلى هذا الشكل (٢) وهي صورة تقلل من فرص التمييز بينها وبين صورة الرقم (ثلاثة) التي انتهت إلى هذا الشكل (٣) .

وهو عيب وجد حثلا في قرار مجلس مجمعنا الموقر المشار إليه آنفا (٨) .

ثانيا : عيب صورة (الصفر) وهي صورة تشابه النقطة وقد تختلط معها (٩)

أما العيب الذي أسنده الخبير على مكاوي إلى شكل الرقم (٥) فهو عيب ينبجم عن الأخذ برأى من يقترح تفادي عيب (الصفر) بتجوييف النقطة التي تدل عليه أو بتغيير آخر كجعل رمزه في الأرقام المشرقية مشابها لرمزه في الأرقام الغبارية . (١٠)

(٨) إن الحل الذي تضمنه قرار مجلس مجمع القاهرة المؤرخ في ٢٨ من مايو ١٩٥٦ للسابق الإشارة إليه ، جاء في مشروع مجمع اللغة العربية الأردني لسنة ١٩٨٥ فقد وردت فيه التوصية التالية : (نوصي الذين يستعملون لأشكال المشرقية :

أولا : أن يستعملوا الشكل (٢) للاثنتين بالكتابة والطباعة . : (انظر صفحة رقم ٢٣ من المشروع وص ٢٢٩ من عدد مجلة المجمع الأردني المذكور في الهامش السابق) .

(٩) سبق أن أشرنا في الهامش رقم ٣ ما كان اقترحه الخبير محمد علي المكاوي بشأن صورة الصفر أما في مشروع الرموز الأردني فقد جاء في التوصية نفسها المشار إليها في الهامش السابق ما يلي : (. . ثانيا : (نوصي) أن يستعملوا للصفر شكل (٧) فيكتبوا مثلا العشرة والمئة هكذا : ١٧ ، ٧٧ ، ١٧٧ إلخ .) .

(١٠) لهذا جاء في تقرير لجنة الأصول والتراث في المجمع الأردني المشار إليه في الهامش رقم ٧ أن الزميل عبد الحميد صفر اقترح أن يكتب للصفر على هذا الشكل (٧) .

إن قواعد الخط العربي^{١١} تؤلف اليوم علمائنا ومحددًا بالنسبة لأكثر أنواع الخطوط العربية الأعمية ومقاييس الحروف في هذه الخطوط إنما تعتمد على (الصفر) أو على النقطة بالتعبير الدارج والصفر أو النقطة في علم الخط عبارة عن مربع صغير ضلعه يساوى طول قطة القلم الذى يكتب به . فإذا ما روعيت القواعد المجمع عليها بدقة كانت الكتابة في غاية الجمال ومنتهى الذوق الفنى الرفيع^(١١) .

إن القواعد المشار إليها تقضى بأن رمز الصفر في الخط العربى لا يمكن الاستغناء عنه وأن بقاءه ضرورة يقتضيها جمال الخط ، على أن نحاول إيجاد وسيلة أخرى بجانبنا العيوب التى تسند إليه والتى قد ينجم عنها أخطاء فادحة إذا وقعت بسببه عند استخدام الآلات والأجهزة الراقمة والطابعة والحاسبة آلية كانت أو الكترونية .

٤ - كيف نتفادى عيوب الصفر :

والكى نتفادى عيوب رمز الصفر مع الانبقاء على شكله الشائع يمكننا الأخذ بأحد هذين الاقتراحين :

الأول : العودة في كتابة الصفر إلى أحد

العهود التى مر بها في تطوره : وذلك برسم دائرة تحيط به ترسم بقلم أشد دقة من القلم الذى تخط به الأرقام المرافقة له ، ويمكن أن تكون الدائرة مفرغة منتظمة أو بيضوية أو مخصرة على أن يكون ارتفاعها يساوى ارتفاع الأرقام المرافقة له^(١٢) .

الثانى : إضافة تاج أو مظلة إلى رمز الصفر على صورة هلال مفرغ أو أعى أو على صورة أنشودة أو تويجة يرتفع كل منها إلى علو سلسلة الأرقام التى ينتمى الصفر إليها^(١٣) .

لقد عرضت هذين الاقتراحين على بعض أساتذة الخط في سورية ، وكان أحدهم الأستاذ محمود هوارى خريج مدرسة أميرين من أمراء الخط العربى هما الأستاذ بدوى الديرانى السورى والأستاذ حامد الآمدى العثمانى تغمدهما الله برحمته . فاستبعدا من الأشكال مارأى أنه لايتفق بسهولة مع قواعد الخط الثابتة ، ثم وجد بالتجارب أرجحها وأيسرها فى الرسم بالقلم نفسه الذى كتبت به الأرقام المجاورة ثم كتب بخط يده الشهادة المرفقة^(١٤) .

(١١) انظر نماذج عن هذه القواعد فى الملحقات ذوات الأرقام ٤ - ٦ .

(١٢) انظر نماذج عن هذا الاقتراح فى الشكل الأول من الملحق رقم ٧ .

(١٣) انظر نماذج عن هذا الاقتراح فى الشكل الثانى من الملحق المذكور آنفا

(١٤) انظر شهادة الخبير فى الملحق رقم ٨ .

٥ - نهاية البحث وما أرجو تحقيقه :

كان العالم العربي بأسره ، من مشرقه إلى مغربه يقرن الأرقام الهندية بالحروف العربية ولا يفرق في الهوية بينهما ، بينما يقرن الأرقام الغبارية بالحروف اللاتينية ويعتبرهما شيئا واحدا ، فلما أعلنت دول المغرب العربي استقلالها وطردت المستعمرين من أراضيها أخذت العربية في تلك الدول تتصارع مع لغة المستعمرين الشائعة بين شعوبها ، وكان لكل منها أنصارها ، وكان حظ الأرقام الغبارية فائقا إذ اقترن بإجماع المتصارعين على الحروف بوصفها عربية الأصل فأقرت إلى جانب الحروف العربية .

ولكن لم يكتف أخواننا علماء المغرب الكبير بالأجلاء بنبذ الأرقام المشرقية مع الكتابة بالحروف العربية بل قاموا يهتمون أرقامنا بالعجمة متذرعين بوصفها بالهندية غاضين الطرف عن سبب هذا الوصف الذي كان بسبب أثر الهنود في وضع النظام الحسابي الذي نقله العرب عنهم وأخذوا العالم بأسره بعدئذ .

أما رموز الأرقام نفسها فهي عربية المنشأ ، وعربية التطور وعربية الأسلوب

في ليونتها ولا يمتها وليونة الأرقام الشرقية واضحة وهي على نقیض شقیقتها الغبارية المزواة التي تبدوا مقحمة اقحاما بين أنواع الخطوط العربية ، باستثناء الخطوط ذات الثزعة الكوفية منها .

واليوم وبعد أن انتقلت جامعة الدول العربية من قلب العالم العربي في مشرقه إلى مغربه أخذت كفة الأرقام الغبارية ترجح بفضل الحو المغربي من جهة ، إضافة إلى الحماس القومي لدى طائفة من شباب المشرق الذي يبلغ حد الهوس مع ضعف في معرفة التراث والتاريخ الصحيح من جهة ثانية .

لكل هذا جئت أناشدكم مستثيرا حميتكم في الدفاع عن العربية وعن الصحيح من أساليب النهوض بها .. اتخاذ الإجراءات التالية :

أولا : اعتبار قرار مجلس المجمع المؤرخ في ٢٨ من مايو (آيار) سنة ١٩٥٦ مرفوعا إليكم للنظر فيه ومن ثم موافقتكم عليه .

ثانيا : الأخذ باقتراح تسوية رمز (الصفر) بالإبقاء عليه مع إضافة ما لا يفسد شكله ولكن ينفي عنه عيب التشابه مع النقطة (١٥) .

蘇軾詩集

۱۳
 ۱۲
 ۱۱
 ۱۰
 ۹
 ۸
 ۷
 ۶
 ۵
 ۴
 ۳
 ۲
 ۱

五、

لوحة راعمة بخط ابن السبواب نقلتها البرزكلي في أعلاه من ديوان الساجدة
كله بخطه وم محفوظ في دار الكتب المصرية برقم (٢١٤٥) أدب ١

10

والله اعلم بالصواب والاعرجون الذين على

۱۰۸

احرف اربعه فابن المفضل

111

وہ حرف ضروریہ نزعہ نہا سقلا

نظف اسبیل المیزر والوسط

کلا

کلا

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

نظف اسبیل المیزر والوسط

خط الفارسی "البیانی"

پیش از آنکه از این کتاب مطلع شوید

کتاب الفارسی

کتاب الفارسی

کتاب الفارسی

مذکورہ بالا عبارت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ
وَمَا يُعَلِّمُهُ الْغَيْبُ إِلَّا بِإِذْنِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Yeni talimatlar bağlanan kitabın girişinde olduğu gibi
başlangıçta olduğu gibi bu kitabın girişinde olduğu gibi
in ilahiyat ve ilahiyatın öğeleri hakkında bir yazı
ve süsü yapılmıştır.

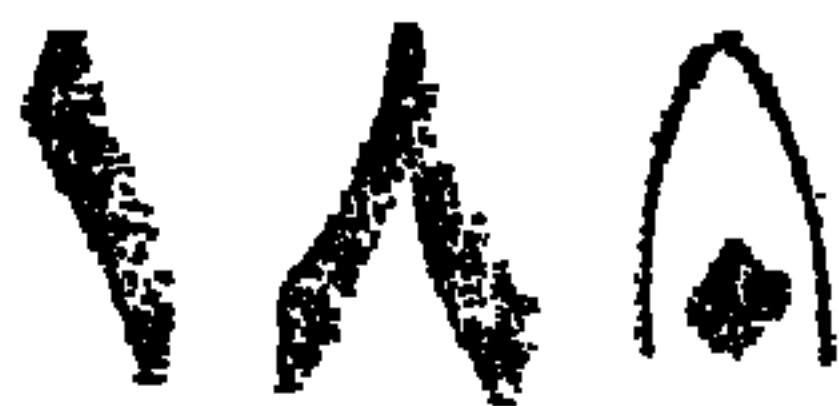
Yeni talimatlar bağlanan kitabın girişinde olduğu gibi

ملحق رقم ٧

٩٠٧٠٦٤

٩٦٠٤٥

١٥١٤



الشكل الأول



الشكل الثاني

طهارة
DRAWER

M. ALHAWARI

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاط
محمد الجوّاري

الخطاط محمود الجوّاري يعلن بأن تقادري عيب استعمال شغل
انصهر الحالي في الطباعة بالآلات الحديثة لا يكون الدّبا
تفوق وقواعد الخط العربي الحديثة مقاييسه على النقطة. وأنا
أريد رأي الدكتور عدنان الخطيب وأرى أن أرجع الشغل الصفر
الملائم للحرف العربي هو الشغل التالي.

صلى الله عليه وسلم

دمشق في ٢١ جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ الموافق ٢١ كانون الثاني ١٩٨٧ م

١٢٣٥٤٥٦٧٩٥

٢٥٣٥٤٥٥٥

الملحق رقم ٩



عشرون

الشكل المقترح لرقم عشرون

عدنان الخطيب
عضو المجمع من سورية

بشائر في أفق العروبة

(قصيدة)

للأستاذ حسن عبد القادر شفي

لَحْمٌ لَمْ يَغَابَ فِي سَمَاءٍ بَعِيدَةٍ ۖ ثُمَّ آبَتْ أَطْيَافُهُ الْمَحْمُودَةَ
وَمَرَاةٌ ضَاعَتْ وَرَاءَ عِجَافٍ ۖ مِنْ سِنِينَ ذُنَابِهَا مَرْصُودَةَ
ثُمَّ عَادَتْ تَرِفٌ مِثْلَ رَفِيفِ الْوَدِّ ۖ فَجَرَّتْ، تُحْيِي أَوطَارَنَا الْمَوْعُودَةَ
وَحَدَّ (الْمَغْرِبُ الْكَبِيرُ) سُرَاهُ ۖ وَبِهِ جَدَّدَ الْإِخَاءُ خُلُودَهُ
قَبْلُ أَحْيَا (الْخَلِيجُ) وَخُدَّةُ شَعْبٍ ۖ ثُمَّ آذَنَى مَسَارَهَا وَخُدُودَهُ
وَبَدَتْ (مِصْرُ) فِي شِمَائِلِهَا الْغُرَّ ۖ بِجَمْعِ الْقُلُوبِ جِدَّاسَ عِيدَةٍ
تَنْثُرُ الزَّهَرَ فِي الدُّرُوبِ وَتَسْمُو ۖ بِرَأْوِهَا أَوطَارُهَا الْمَغْهُودَةَ
هِيَ بَيْتُ الْقَصِيدِ فِي أُمَّةٍ (الْعُرَّ ۖ) وَمِنْهَا الزَّمَانُ أَهْدَى نَشِيدَهُ
حَمَلَتْ رَايَةَ الْكِفَاحِ وَمَاذَا ۖ لَتَ ، تُبَيِّنُ أَيْامَهُ الْمَشْهُودَةَ
فَاخْمَدِ السَّيْرَ كَمْ أَنْارَ سَبِيلًا ۖ كَمْ بِهِ حَقَّقَ الزَّمَانُ نُوعًا وَدَهُ
لَا أَرَى الْأُفُقَ غَائِمًا مِثْلَمَا كَانَ ۖ نَ ، وَلَكِنْ أَحْسُ ثُمَّ رَعًا وَدَهُ
فَانْتِلَافُ النُّفُوسِ يَرْجُو مَزِيدًا ۖ مِنْ صَدَفِ الْعُرُوبَةِ الْمَمْدُودَةَ
وَرِفَاقُ الْكِفَاحِ مَازَالَ فِيهِمْ ۖ عَاتِبًا ، غَاضِبًا ، وَرُؤْيَا عَنِيدَةً .

* * *

* أُلْقِيَتْ فِي الْحُلُوسَةِ الثَّانِيَةِ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢٢ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ ١٤٠٩ هـ الْمَوَاقِقِ ٢٨ مِنْ فَبْرَايِرِ
(شَبَاط) سَنَةِ ١٩٨٩ م .

لا تسلني عن أرز (لبنان) غاب (أر)
 ويح (لبنان) قد عراه ذبول
 غاله آله ، ورب سلام
 نحن في موسم الربيع ، فلم لاه
 كلما شاقني عيب - رؤايب -
 إن أكن قد عشقت منه قلباً
 أيظل الإنسان فيه مضاعاً
 شهر الغدر فيه أمضى سلاح
 فدا صرحه حمى مستباحاً
 أتري يستعيد مجداً مضاعاً
 لهف نفسي لجنّة قد تهاوت
 نكس الدهر ثم أعلامه جز

لأرز (وأستهدف الجوى غريبه
 وأسى أرث الصراع وقوده
 ضاع في محنة الأمانى البلبلّة
 تنفياً ظلاله النشودة ؟
 - تحاملت ، مُرسلاً تنهيدة
 إنني رافض بحق جديده
 وتظل المذابح العريضة
 وأستجد العذو فيه المكية
 أتري يكسر الإخاء قيوده
 فنحى أطيافه ، ووروده ؟
 ولحارية غدت مفتحة وده
 رأ ، فهل يستعيد خضراً بنوده ؟

في (فلسطين) عاصف هال (صهي)

نفض الثائرون أكفان ذل
 من صغار عادوا كباراً بعزم
 تركوه في ذمّة اللعير يهنى ،
 منزعوا الجمر ، فاستحالوا شراراً
 صعدوه حجارة بـارك اللـ
 أرخصوا من عذابه مستبداً

ناضت آمـ الهم مصفـوه
 وأرتدوا حلة النضـال ا سيادة
 راع زحف العدو ، فل حديد
 لم يبالوا تهـ ليدى ووعيد
 حنرتهم إلى الزهاد انعتيـبـ
 نشوة الشار تستميز شهيد

وذيَّارُ الأحرارِ مَهْمَا أَسْتُضِيْمَتْ
صَمِيْدُ النَّاشِثُوْنَ فِي خَيْمَةِ الْقَهْرِ
أَذْكُرُونَا أَمْجَادَ ماضٍ عَرِيْقٍ
أَرْجِعْـوا دَوْلَةَ بَرِغْمِ الْمـ.آسِي
مَصْرُخُ الْبَغْيِ حَانَ فَالْبَغْيِ مَخْذُو
فَهِيَ تُخْزِي الْبَاغِي ، وَتَعْجِمُ عُوْدَه
ر فَاذْجَحُوا عَلَى الزَّمانِ شُهُودَه
فِي زَمَانِ الْمَطَامِحِ الْمَحْدُودَه
وَأَسْتَعَاذُوا كِيَانَهُمْ ، وَوَجُودَه
لُ ، وَأَحْـ أَلَامُهُ غَذَتْ مَوْوُودَه !

* * *

أُمَّةُ الْعَرَبِ غُرْبَةُ الرُّوحِ طَالَتْ
قَدْ تَدَاعَى عَلَيْكَ فِي غَفْلَةِ النَّصِ
فَاسْتَعِزِّي بِوَحْدَةِ تَرْفَعُ الظُّلْمَ
إِنْ تَوَحَّدْتَ فَاَنْتَصِرْـ أَرْكَ آتِ
قَدْرُ أَنْ تَعِيَ الْمَصِيرَ شُعُوبِ
مُنْذُ حِينَ وَنَحْنُ نُرْقُبُ صُبْحاً
أَتَسْرَاهُ يَجِيءُ الْبَعْدُ ثَنَاءً
وَلَوْى الدَّهْرُ عَنْ أَمَانِيكَ جِيْدَه
ر ، خَبِيْثُ نَصَارٍ يَحْتِجُ الْجُنُودَه
م ، وَتُعَلِّي رَايَاتِنَا الْمَعْقُودَه
أَوْ تَفَرِّقْتِ فَالْأَمَانِي بِـبَدِيْدَه
قَدْرُ الْعَرَبِ ، وَحْدَةُ مَشْهُودَه
قَدْ أَطَالَ أَزُورَارَه ، أَوْشُرُودَه
فَنَنَاجِي بِفَرَحَةِ الْقَلْبِ عِيْدَه !

حسن عبد الله القرشي
عضو المجمع المراسل من السعودية



دواب الأرض في القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطويل

تقد

كرم الله سبحانه البشر ، كما أظهرت الدراسات الدقيقة ،
وتعالى تلك الدواب ، التي أجريت على البعض منها - وذلك
بمختلفة الأنواع ، المتعددة الأشكال ، والأحجام والألوان ، والتي منها ما يدب
على سطح الأرض ، أو يستقر مختبئاً في
لمبقاتها السطحية ، أو يطير في أجواز
الفضاء كرمها الله سبحانه وتعالى بالآية
التالية :

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر
يعطير بجناحيه إلا أومئ أمثالكم ﴾ (صدق الله العظيم)
فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى آية كريمة
أخرى ، أكثر شمولاً من الآية السابقة
بما يتعلق بمخلوقات الله سبحانه وتعالى ،

﴿ إننا نستطيع أن نتلمس في تلك
الكلمات البسيطة الواضحة أن الله سبحانه
وتعالى قد رفع من شأنها ، وأعلى من قدرها -
لتصبح في منزلة الأهم التي يعتز بها بنو
السموات ومن في الأرض والشمس

(*) ألقى في الجلسة الثانية في يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط)
سنة ١٩٨٩ م .

والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب
وكثير من الناس) - صدق الله العظيم .

لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى راض
عن جميع الدواب ، لأنها تسجد له وتسبح
بحمده ، ولكنه غير راض عن كل الناس ،
بمنهم من آمن ومنهم من كفر .

إن الأصل في اشتقاق كلمة «الدواب»
هو أنها تدب على سطح الأرض ، ويسمى
لانتقالها صوت ، وهي كلها تشترك في
ذلك ، من النملة الصغيرة ، الى هي من
أصغر مخلوقات الله حجماً ، إلى الفيل وهو
أضخم الحيوانات الأرضية المعاصرة على
الإطلاق . ولكل منهما في القرآن ذكر ،
كما أن لكل منهما في القرآن قصة مشهورة
ولا أظن أن هناك من لا يعرف قصة
النملة التي شاهدت سليمان وجنوده يعجتازون
الوادي الذي تعيش فيه ، فخاطبت أفراد
قومها قائلة :

(يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا
يشعرون) - صدق الله العظيم .

ولما كان سيدنا سليمان عليه السلام على
معرفة بلغة الحيوانات على اختلاف أنواعها
فقد أدرك قولها على الفور ، وتبسم منه
صاحكاً ، وسوف نستعرض بعد قليل موجزاً
عن لغة الطير والحيوان .

ما قصة الفيل . وهي التي وردت في
قوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ
الْفِيلِ) - صدق الله العظيم .

وتشير تلك الآية الكريمة إلى جيش
« أبرهة الحبشي » الذي أعاد جيشه أ
كبيراً على رأسه فيل ضخم هاجم
به بلاد العرب ، وغزا مكة المكرمة
ببيل الإسلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى
سم يشركهم كثيراً يتمتعون بهذا النصر ،
ل سرعان ما أرسل عليهم « طيراً أبابيل »
أبادت هذا الجيش عن آخره ، وانقذت
مكة المكرمة من الدمار .

وبين هذين الحدين - النملة وما هو
أصغر منها بكثير كالبكتريا والطحالب
الدقيقة والحيوانات وحيدة الخلية ، والفيل
وما هو أضخم منه بكثير مثل حوت العنبر

والهرقل وحت بسكاي وغيرها من الحيتان البحرية^١ ، بين هذين الحدين ينتشر « المليون نوع » من الحيوانات التي استطاع علماء التصنيف توصيفها^٢ وتبويبها^٣ في مختلف بلاد العالم إلى :

Phyla	شعب ^١
Classes	وطوائف
Orders	ورتب ^٢
Families	وقصائل
Genera	وأجناس ^٣
Species	وأنواع
Races	وسلالات

وهي في مجموعها تستوطن لكل مكان على اليابسة أو في البحر ، حيث تستغل جميع البيئات والمناطق الجغرافية وغيرها ، فمنها على سبيل المثال ما يعيش في الصحارى لجرداء ، أو في السهول المنبسطة التي يخضر آدمها بعد هطول الأمطار ، أو عند نيم الجبال المرتفعة ، أو على سفوحها المنحدرة ، أو في داخل الكهوف والسراديب التي يصعب الوصول إليها ، كما أن منها ما يعيش في الأحراش والأدغال والغابات ،

أعلى أشجارها وشجيرات المتشابكة الفروع والأغصان ، كما يسبح في أنهار تلك الغابات ومستنقعاتها ومصادرها المائية الأخرى أنواع عديدة من الحيوانات المائية ، كما أنها تستخدم أيضاً مساق تلجأ إليها الحيوانات الأرضية عند اشتداد القيظ ، وخصوصاً في مواسم الحرارة والجفاف .

و هناك عدد كبير من تلك الدواب ورد ذكرها في القرآن الكريم^٤ ، بدءاً من تلك الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والذباب والبعوض والجراد والقمل وغيرها^٥ من الحشرات ، ومروراً بالحية والثعبان والهدأة ، وانتهاءً بالخيل والبغال والحمير والأنعام والإبل والقرودة وغيرها من ذوات الأثداء .

وقد ذكر كل من تلك الدواب إما في إحدى المناسبات التاريخية أو إشارة لإحدى قصص الأنبياء والمرسلين ، أو تذكراً لما تؤديه للإنسان من خدمات في حياته ، المنزلية أو الحقلية ، أو لإمداده بما يحتاج إليه من طعام أو ملبس ، أو غير ذلك من الفوائد والمزايا المتعددة التي لا حصر لها

منطق الطير :

سبق أن ذكرنا أن للحيوانات لغة يتفاهمون بها فيما بينهم ، ويوجد في القرآن الكريم ما يقطع بصحة هذا القول ، ومن ذلك على سبيل المثال قصة الحديث الذي تم بين الهدد وسيدنا سليمان عليه السلام ، فقد كان هذا الرسول الكريم يتفقد الطيور والحيوانات الأخرى فلم يجد الهدد بينهم ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

(صدق الله العظيم)

وماهى إلا فترة وجيزة حتى حضر الهدد ، معتذراً عن تأخره ، وموضحاً أن السبب في هذا التأخر كان لأمر عظيم ، فقد شاهد وهو يطير في جو السماء قوماً يعبدون الشمس من دون الله ، وتشول أمرهم سيدة لها « عرش عظيم » ، وكانت تلك السيدة هى بلقيس ملكة سبأ ، فما كان من سيدنا سليمان إلا أن أمر الهدد بأن يحمل رسالة يلقيها عليها وعلى أتباعها من القوم

الظالمين ، داعياً لهم جميعاً بالهدى والاسلام في قوله الصريح الواضح :

(أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِي مُسْلِمِينَ)

(صدق الله العظيم)

وبقية القصة معروفة لاداعي للاسترسال فيها ، مع أنها من أمتع القصص التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ولا يهمنا في هذا المجال سوى الحديث الذي دار بين سيدنا سليمان والهدد ، وذلك لأن هذا الطائر المشهور كان بطبيعة الحال يتكلم « بلغة الطيور » ، وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ)

(صدق الله العظيم)

وواضح هنا أن المقصود « بمنطق الطير » هو « لغة الطيور » التي يتفاهمون بها فيما بينهم ، كما يشاغب بنو البشر .

اللغة في مفهومها العام :

لابد لنا قبل الدخول في تفصيلات أخرى فيما يتعلق « بلغة الطير والحيوان » من إيضاح المقصود بكلمة « لغة » في مفهومها العام ، كما هو وارد في المعاجم

العربية والأجنبية ، فقد جاء في « المعجم الوسيط » على سبيل المثال أن اللغة « هي أصوات يُعبرُ بها كل قوم عن أغراضهم » ، وجاء في معجم اكسفورد الكبير أن « اللغة هي طريقة التعبير بالكلمات المسموعة » وجاء في معجم وبستر أن « اللغة هي نظام للتخابر بين بنى البشر بواسطة رموز مكتوبة أو سموتية » .

يتضح من تلك التعريفات وغيرها أن اللغة الحقيقية تعتمد على عنصرين أساسيين ، وهما : صدور أصوات من مصدر ما ، ثم سماع هذه الأصوات ، وفي الإنسان يتحقق العنصر الأول باهتزاز « الأحبال الصوتية الموجودة داخل الحنجرة » ، ويقوم اللسان الموجود في أفواهنا بتكثيف تلك الأصوات عند مرورها عبر تجويف الفم إلى الخارج ، أما سماع هذه الأصوات والاستدلال على مفهومها فهو من وظائف الأذن ، وهي عضو السمع عند الإنسان ، وغيره من الطيور والفقاريات الأخرى .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب بالصمم ، لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التي نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك

فإنه يصبح فيما بعد من البكم الذين لا يتكلمون ، ولست في حاجة إلى القول بأن الإنسان يتعلم في طفولته جميع الكلمات التي ينطق بها كل من حوله من البشر ، أي أنه يتعلم اللغة تعليماً ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصمم والبكم في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ومنها على سبيل المثال :

(صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(صدق الله العظيم)

والواقع أن البكم أو الخرس لهم لغة خاصة يتفاهمون بها ، وهي لا تعتمد إطلاقاً على الأصوات ، ولذلك فقد قيل في تعريفها إنها لغة الأصابع ، وجاء في قاموس اكسفورد مثلاً أن « لغة الأصابع » عبارة عن : « التفاهم برموز متفق عليها مسبقاً بواسطة أصابع اليدين » .

لغة الطير والحيوان :

ونستطيع من هذا المنطلق إن نتدرج بسهولة إلى المقصود « بلغة الطير والحيوان » فهي تختلف في مفهومها العلمي اختلافاً واضحاً عن « لغة الإنسان » ، كما أنها

تعتمد في كثير من الحالات على طرق وأساليب متباينة ، يتوقف كل منها على نوع الحيوان الذي يمارس استخدام هذه اللغة أو تلك ، فقد تكون في كثير من الحالات على شكل أصوات أو صيحات أو تغريد ، وفي حالات أخرى لا تكون صوتية على الإطلاق ، وتستخدم فيها بعض الحواس الأخرى كالشم واللمس والإبصار وغيرها .

كما أنها قد تكون في بعض الحالات على شكل « إشارات ضوئية » تصدر عن مجموعات مختلفة من الحيوانات يطلق عليها اسم « الحيوانات المضيئة » ومن أشهر أمثلتها « الذباب المضيء » الذي ينتشر في كثير من المناطق الاستوائية ، وكذلك « الديدان المتوهجة » ، وكلاهما من الحشرات غمدية الأجنحة ، وقد أجريت عليهما كثير من التجارب العملية التي أو ضحت أن الذكور فقط هي القادرة على إنتاج أضواء قوية ، وأنها لاتصدرها إلا في ظلمة الليل ، وقد وصفت تلك الأضواء بأنها من « الإشارات التزاوجية » التي يصدرها الذكور لتستدل بها الإناث على أماكن وجودها .

وأيا كانت وسيلة هذا التفاهم فقد اعتبرها العلماء المختصون لغة لهذه الحيوانات أو الحشرات أو الطيور ، طالما أنها تستخدم في نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية أو الجنسية من فرد إلى آخر .

ويحتوى عالم الحيوان بصفة عامة وعالم الطيور بصفة خاصة على عدد كبير من الأنواع ، يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهموا فيما بينهم بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التي سبق ذكرها ، وقد استطاع العلماء المختصون بدراسة « سلوك الحيوان » أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذي يتم بين أفراد النوع الواحد ، قد يكون بقصد التحذير من أخطار تلوح في الأفق ، أو التنبيه إلى اكتشاف مصادر غذائية جديدة ، أو التجمع في قطيع واحد أو سرب واحد ، وخصوصاً أثناء الانتقال أو الهجرة من مكان إلى مكان ، أو بقاء الأسرة متماسكة حتى لا يضل صغارها عن الكبار في موسم التكاثر ، أو غير ذلك من الأسباب .

هجرة الطيور :

ننتقل بعد ذلك إلى موضوع هجرة الطيور ، تلك الهجرة التي تعتبر من أدق

الظواهر الحيوية ، واكثرها شمولاً في الحفاظ على الحياة ، وفي تلك العملية التي تمارسها أنواع خاصة من الطيور عاماً بعد عام في دقة ونظام ، تلعب « الأصوات » دوراً أساسياً في تجمعاتها قبل بدء الرحيل ، ثم المحافظة على الآلاف المؤلفة التي يتكون منها السرب الواحد متماسكة متآزرة ، لا يضل منها فرد ، أو ينحرف عن خط سير الجماعة في كل من رحلتى الذهاب والعودة . .

وتعيش تلك « الطيور المهاجرة » طبيعياً في الأقاليم الشمالية الباردة من نصف الكرة الشمالى ، في كل من آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية ، وهى في الواقع من سكان تلك المناطق ، ولكن عند حلول فصل الشتاء ، تشتد برودة الجو ، ويتساقط الجليد على سطح الأرض ، ويقل الغذاء تدريجياً حتى يكاد ينعدم .

ولا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش سوى القيام بهجرة جماعية نحو الجنوب ، حيث يكون الجو أكثر دفئاً ، والغذاء أكثر وفرة وتنوعاً ، وقد لاحظ علماء الطيور أنها تتحدث في تلك الفترة من

تاريخ حياتها ، كثيراً من « الإشارات الصوتية » المتتالية ، وأنها لاتنقطع عن ترديد تلك الأصوات ، حتى تتجمع منها في النهاية أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب .

ويتكون كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط ، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأناً ، حيث يسير في مقدمة السرب وكأنه رمز للكفاح والصمود ، ويقطع البعض من تلك الأسراب آلافاً من الكيلومترات في تلك الرحلة الجماعية ، ولما كانت هناك أنواع من الطيور لاتهاجر إلا ليلاً ، كان من الضروري صدور أصوات مميزة ، ليبقى السرب متماسكاً أثناء الطيران ، وخصوصاً في الليالى الحالكه الظلام ، التي لايجدى فيها الإبصار .

وبعد انقضاء فصل الشتاء الأوروبي تعود تلك الطيور إلى أو طانها مرة ثانية ، حيث تكون أجسامها قد امتلأت شحمياً ولحماً ، وأصبحت مستعدة للتكاثر في تلك الأوطان ، ومن الغريب أن بعضاً من تلك الطيور التي تهاجر من انجلترا إلى جنوب

أفريقيا ، تعود بعد رحلتى الذهاب والعودة إلى نفس المناطق التى هاجرت منها ، وأحياناً إلى نفس الأعشاش التى كانت تبيض فيها من قبل .

ومن أشهر الطيور المهاجرة التى تصل إلى مصر :

السمانى (السلوى) والكركى (الغرنوق والعنز (اللقلق الأبيض) والوروار والغر والشهرمان والببول والخضارى والشرشير والبجع والحبارى والدريجة والشنقب والطيوطى وقنبرة الماء وغيرها .

اصوات لا تسمع :

يستطيع الإنسان سماع الأصوات التى تصدر من الأنواع المختلفة من الطيور ، ومنها على سبيل المثال زقزقة العصافير ، أو هديل الحمام واليام ، أو تغريد البلابل والكروان . أو تلك الصرخات الحادة التى تطلقها الطيور البحرية عندما تشاهد سرباً من الأسماك يسبح بالقرب من سطح الماء .

ولكن هناك أصواتاً أخرى لا يستطيع الإنسان سماعها على الإطلاق ، وتلك هى أصوات الخفافيش ، والخفافيش من الحيوانات الشديدة ، الأنثى منها تحمل

وتلد وترضع صغارها ، كما تفعل الأنثى من بنى البشر . وهى من الحيوانات الليلية التى تختبئ فى أوكارها أثناء النهار ، ولا تخرج للبحث عن غذائها إلا ليلاً .

وقد لوحظ منذ قديم الزمان أنها قادرة على الطيران بسرعة فائقة ، وفى الظلام الحالك ،

دون أن ترتطم بالأشجار أو الحواجز الأخرى التى تعترض طريقها ، ولم يكن من المستطاع تفسير تلك الظاهرة ، إلا بعد التجارب الواعية التى أجراها عالم الأحياء الإيطالى المشهور « سبالنزانى » ، فقد كان

يضع فى معمله عدداً من الأحبال ، يدها فى مختلف الاتجاهات ، وقد علق بها أجراس خفيفة الوزن سرعان ما تسمع جليجلتها عند لمس الأحبال ، ثم يطفى بعد ذلك أضواء المعمل ، ويتركه فى ظلام حالك ، ويطلق الخفافيش موضع التجربة من أقفاصها ، فكانت تطير فى مختلف الاتجاهات ، حتى لتكاد تلمس وجهه ،

وهو قابع فى سكون تام ، فى أحد الأركان دون أن يدق جرس واحد من تلك الأجراس العديدة ، وعرف بعد ذلك أن الخفافيش تصدر أثناء طيرانها الليلي « أصواتاً فوق

«سمعية» ، لا تستطيع الأذن البشرية إدراكها ، وأن تلك الأمواج الصوتية تنعكس من الحواجز التي ترتطم بها ، فتلتقطها أذن الخفاش ، رتنحرف عن تلك الحواجز فلا ترتطم بها . وقد استخدمت تلك المعلومات فيما بعد في تصنيع « أجهزة الرادار » .

دابة الأرض :

بين دواب الأرض جميعاً على اختلاف أشكالها وأحجامها دابة صغيرة اختصها الله سبحانه وتعالى، بحدث عظيم ، وتلك هي « دابة الأرض » التي ورد ذكرها في الآية الكريمة التالية :

(فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ المَوْتَ ما دَلَّهمْ عَلَى موْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتِهِ)
(صدق الله العظيم)

إن ما يدور حول تلك الدابة من حديث يدل بشكل قاطع على أن المقصود بها هو « الأرضة » (النملة البيضاء) .

وكانت الأرضة معروفة عند العرب حيث وصفت بأنها دويبة صغيرة تشبه النملة . وقد اشتق اسمها من فعل « أرض »

بمعنى أكل ، أما المنسأة فهي العصا الغليظة التي تكرر عادة في حوزة الراعي ليهش بها على الأغنام أو يتوكعها عليها ، وموجز تلك القصة أن سيدنا سليمان عليه السلام قد أدركه الموت وهو واقف على قدميه . ومركز على عصاه المصنوعة من الخشب . وكانت الأرضة قد وصلت إلى تلك العصا من باطن الأرض ، وأنحلت تنخر فيها من الداخل تدريجياً حتى أتت عليها تماماً ، ولم يبق منها سوى قشرتها الخارجية الرقيقة ، وسرعان ما سقط سيدنا سليمان بعد ذلك على الأرض ، حيث أعلنت وفاته بعد هذا السقوط .

والواقع أن « الأرضة » تختلف كل الاختلاف عن « النمل الحقيقي » الذي يعرفه كل إنسان ، والذي يعيش معه في المنازل والحدائق والمزارع والمصانع وغيرها . فبالنمل الحقيقي له جسم صلب داكن اللون عادة ، ولكن « الأرضة » جسمها لين فاتح اللون ، وهذا هو السبب في إطلاق اسم « النمل الأبيض » عليها ، ولا يوجد للأرضة خصر ضيق بين الصدر والبطن كما في النمل الحقيقي ، كما أنهما يختلفان أيضاً في العادات الغذائية .

فالنمل الحقيقي يأكل كل شئ عـ يعثر عليه من بقايا الحيوانات الحية أو الميتة والأوراق النباتية والفطريات ورحيق الأزهار والعصارات النباتية وما يستطيع الوصول إليه من طعام الإنسان كالحبـز والسكر والخضراوات والمشروبات الحلوة وغيرها ، بينما لا تتغذى الأرضة إلا على الخشب والمصنوعات الخشبية ، كما تتغذى فى الغابات على جذور الأشجار وسيقانها وفروعها المختلفة .

وفى مجتمع « الأرضة » يمكن تمييز أربعة أنواع من الأفراد ، وهى الذكور والملكات والجنود والشغالة ، ولكل منها وظيفة محددة تودى لصالح هذا المجتمع ، وتكون الذكور عادة قليلة العدد صغيرة الحجم وظيفتها الوحيدة هى إخصاب الملكات .

ولكل مستعمرة ملكة واحدة لا تقوم بأى عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى انتاج البيض ، ويوضح لنا عالم الحشرات « اسكيريتش » (Escherich) فى بحث أجراه على أحد الأنواع الإفريقية من الأرضة أن الملكة تضع ما يقرب من

ثلاثين ألف بيضة فى اليوم الواحد ، أى ما يقرب من عشرة ملايين بيضة فى العام ، ولما كانت الملكة تعيش ما يقرب من عشرة أعوام فى المتوسط فهى تضع مائة مليون بيضة خلال حياتها . وتوضح لنا تلك الأرقام السرعة التى تنتشر بها الأرضة إذا ما صادفت البيئة الصالحة لحياتها .

وهناك من الأفراد من تخصصوا فى الدفاع عن المستعمرة وسكانها وهم الجنود ، وهم يختلفون عن بقية السكان بشكل واضح ، إذ أن لهم رؤوسا كبيرة وفكوكا قوية حادة تستخدم كسلاح فتاك فى الهجوم على أى دخيل يحاول اقتحام المستعمرة أو التعرض لسكانها ، وبذلك يعيش باقى السكان فى أمن وسلام ، ومن الغريب أن هولاء الجنود قد يكونون من الذكور أو من الإناث على حد سواء .

والشغالة أيضا بعضها من الذكور ، والبعض الآخر من الإناث ، وهى تقوم بجميع الأعباء المنزلية المتعلقة بحياة

المستعمرة وازدهارها ، ومنها على سبيل المثال جمع الغذاء الكافي لجميع سكان المستعمرة ، ثم القيام بإطعام الملكة والجنود و « الحوريات » الصغيرة التي تفقس من البيض ، وبناء الأعشاش الجديدة اللازمة للسكان الذين يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ، وأيضاً عمل الممرات أو السرايب التي تربط جميع الأعشاش بعضها ببعض لسهولة الاتصال فيما بينها .

والواقع أن تلك الشغالة هي التي تقوم بقرض الخشب وابتلاع أجزاء من التربة ، متخذة من تلك المواد طعاماً لها ، وبعد هضم هذا الطعام تبقى الشغالة جزءاً منه لإطعام الملكة والجنود والحوريات الصغيرة كما ذكرنا من قبل . وهي تستخدم في بناء الأعشاش والممرات مادة من جزيئات التربة تبللها بلعابها ، ثم تقيئها بعد فترة من الزمن فتصبح صالحة للاستعمال - « كمادة لاصقة » ، ويقول عالم الحشرات

المشهور هويلر (Wheeler) - إن هذه المادة تصبح بعد جفافها في صلابة « الأسمنت » الذي يستخدمه الإنسان في عمليات البناء والتشييد .

ومن أطرف ما عرف عن تلك الدابة الصغيرة أنها قد مارست « زراعة الحدائق » قبل أن يعرفها الإنسان بأزمته بعيدة ، إذ تقوم الشغالة بالتجول بين نبات الأرض لتجمع منه بعضاً من الفطريات (وهي من النباتات البسيطة الخالية من الكلوروفيل) ثم تقوم بزراعتها داخل المستعمرة ، حيث تنمو إلى حدائق مزدهرة تسر الناظرين ، ويوضح لنا « هويلر » أن « حدائق الفطريات » التي تتم زراعتها على هذا النحو ، تصبح بعد نموها « دوراً للحضانة » في مستعمرات الأرضة ، فهي تموج بالآلاف العديدة من الأفراد حديثة الفقس ، وتقوم تلك الأفراد الصغيرة في غدوها ورواحها داخل تلك الحدائق بجنى ثمارها ذات القيمة الغذائية العالية . ومن الغريب أن الشغالة الناضجة وكذلك الجنود لا يقتربون من ثمار تلك الحدائق على الإطلاق ، بل يتركونها لمن هم في حاجة إليها من صغار النمل .

ولا يقتصر العيش في جماعات منتظمة يسودها الهدوء والدقة والنظام على الأرضة وحدها ، بل هناك أيضاً حشرات أخرى كالنمل أو النحل تمارس مثل تلك « الحياة

الاجتماعية » ، حيث وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها « أُمَمٌ أَمْثَالَنَا » ، ولا كفى اخترت من بينها جميعاً تلك الأرضة التي أكلت عصا سيدنا سليمان عليه السلام ، ويرجع هــذا الاختيار في الأساس لأن « الأرضة » قد أخذت تنتشر في وقتنا الحاضر انتشاراً سريعاً في بعض القرى المصرية من صعيد مصر ، حيث طالعنا الأنبياء بأنها دمرت قرية بكاملها وشردت جميع سكانها ، وتلك هي « قرية السلام » بمحافظة أسوان ، ثم أخذت بعد ذلك تنتشر في كثير من القرى المجاورة ، حيث تلتهم المنازل المصنوعة من الخشب وكل ما تحتوى عليه من الأثاث أو المصنوعات الخشبية كما عرفنا أيضاً أنها انتقلت إلى كل من السويس وبور سعيد ، حيث بدأت في مهاجمة المنازل الخشبية ، وخربت مئات الأطنان من الخشب المستورد في مخازن الجمارك والتجار ، مما استدعى القيام بحملة مكثفة يقوم بها حالياً المختصون في وزارة الزراعة لمكافحة تلك الآفة الخطيرة ووقف انتشارها إلى أماكن أخرى .

الإنسان ودواب الأرض :

هناك من الآيات البينات ما يدل بشكل واضح على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى الإنسان نفسه على أنه من دواب الأرض ، ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية :

« وَلَوْ يُوَاسِّدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » . (صدق الله العظيم)

وآية أخرى مشابهة :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » . (صدق الله العظيم)

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان عن جميع المخلدات - وقات الأخرى بالعقل والحكمة وحسن التدبير ، كما أوضح دون لبس أو غموض أنه سبحانه وتعالى قد وضع كل تلك المخلوقات في خدمة الإنسان لينعم بالحياة الحرة الكريمة .

ولا تقتصر المنافع والمزايا على تلك - الدويبات الصغيرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ومنها النحل على سبيل.

المثال ، وهى التى يقول عنها فى كتابه
لكريم :

« يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » .

(صدق الله العظيم)

بل تمتد تلك المنافع والمزايا فى الأساس
إلى تلك الدواب الكبيرة التى تودى للإنسان
خدمات لا تعد ولا تحصى . فهناك مثلاً

دواب الحمل التى تستخدم فى الركوب
وجر العربات وحمل الأثقال ، وهى التى
ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا

وَزِينَةً » . (صدق الله العظيم)

بل إنها تستخدم أيضاً فى الحرب والقتال
مصدقاً لقوله سبحانه وتعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ
رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ »

(صدق الله العظيم)

وهناك أيضاً تلك الدواب التى يتخذ

الإنسان من لحومها وألبانها طعاماً له .
ولأطفاله فى مختلف بلاد العالم ، وتلك
هى « الأنعام » التى ورد ذكرها فى الآية
الكريمة التالية :

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » .

(صدق الله العظيم)

وفى آية أخرى أكثر شمولاً :

« وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا
وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ » .

(صدق الله العظيم) (١)

وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم
الذى أصدره المجمع عام ١٩٧٠ أن كلمة
« الأنعام » تطلق فى الأصل على الإبل ،
كما أنها تطلق أيضاً على الإبل والبقر
والغنم على التوسع . وهى جميعاً من ذوات
الأربع (أى تلك التى تمشى على أربعة من
الأرجل) .

(١) الصوف للغنم ، والشعر للمعز ، والوبر للإبل .

أما الإنسان - وهو الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على رأس تلك المخلوقات جميعاً - فهو يمشى على رجلين اثنتين فقط ، ويكون فى سيره معتدل القامة ، مرفوع الرأس بطريقة لا يدانيه فيها أى مخلوق آخر على الإطلاق . وهو ما تشبه إليه الآية الكريمة التالية :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ »

(صدق الله العظيم)

وهناك آية أخرى مشابهة تقول :

« الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ » .

(صدق الله العظيم)

وتحتوى كل من هاتين الآيتين على إشارة واضحة إلى حسن القوام واعتدال الجسم ، كما هو مشاهد وملحوس .

وقد أدت استقامة القامة وارتكاز الجسم على رجلين اثنتين بدلاً من أربع ، إلى تحرير الرجلين الأماميتين ، حيث تحورتا إلى ذراعين يستخدمهما الإنسان فى مختلف الأعمال والأغراض ، ولعل من أهم تلك التحورات انزلاق الأبهام ليصبح فى مواجهة

الأصابع الأخرى . حيث يستطيع الإنسان عن طريق تلك اليد القابضة الإمساك بمختلف الآلات والأدوات .

ويعزى كثير من العلماء تفوق الإنسان وتقدمه فى العلوم والفنون ، وإتقانه لكثير من الحرف اليدوية التى تحتاج إلى مهارات عالية ، ونجاحه فى ولوج الميادين الزراعية والصناعية وغيرها ، يعزونها كل تلك القدرات إلى امتلاكه تلك اليد القابضة التى يقع فيها الإبهام فى مواجهة الأصابع الأخرى فى اليد .

تلك نبذة موجزة عن « دواب الأرض فى القرآن الكريم » ، وهى التى تشكل فى مجموعها موضوعاً متسع الأرجاء ، ومتعدد النواحي والأغراض ، لعل أكون قد وفقت فيها فى إيضاح بعض الجوانب العلمية والتطبيقية التى لاتخفى أهميتها على أحد ، وعذرى فى ذلك هو ضيق الوقت الذى منح لى لإتمام هذا الحديث .

والله ولى التوفيق .

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع

شعراء مغمورون

(عبد بن عمرو بن أبي صبح المزني)

للأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

١ - أخباره

كتاب (جمهرة نسب قريش) ، الجزء الأول ، الذي حققه الأستاذ (محمود محمد شاكر) . . ولم يصدر بعد الجزء الأول شيء.

وحينما أقول يكاد ، فلنما أعني أنني - عدا ما ذكرت - لم أقف حسب اطلاعي الضئيل على شيء من شعره في كتاب مطبوع إلا في (التعليقات والنوادر) لأبي هارون بن زكريا الهجري ، المتوفى حوالي سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م ، والا قطعة واحدة من أربعة أبيات ، جاءت في كتاب (الورقة) ، نقلها صاحب (الفهرست) وسيأتي الكلام عنها بعد قليل .

أما ماورد لدى كل من الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في (تاريخ بغداد) ، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) ، من شعر ، فهو ينتهي بروايته إلى الزبير بن بكار .

شاعر من شعراء القرن الثاني الهجري ، قلما

هذا

عنيت به المصادر الأولى ، أو ترجمه المترجمون . . بالرغم مما يتميز به شعره من طلاوة ، حتى كتاب الأغاني الضخم ، الذي استقصى الكثير من الأخبار والأشعار ، لم يرد فيه ذكر هذا الشاعر ، أو أي خبر عنه ، مع أننا نجد أبا الفرج مؤلف الكتاب ، ينقل الكثير الكثير عن الزبير بن بكار - والزبير هو المصدر الأول لأشعار هذا الشاعر - ولكنه لا ينقل إلى الأغاني شيئاً من خبره ولا شعره .

والزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م) ، يكاد يكون المصدر الوحيد الذي نقل إلينا طائفة من شعر هذا الشاعر في القسم الذي طبع من كتابه عن أنساب قريش . . أعني

(*) ألقى في الجلسة الثالثة في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٩ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .

ولم أقف على من ترجم له ترجمة
مستقلة من قدامى المؤرخين ، إلا النديم أو
ابن النديم في (الفهرست) . .

وقد دل على (الفهرست) الأستاذ
(محمود محمد شاكر) في هامش ٦٧ و
٦٨ من كتاب (جمهرة نسب قریش)
الجزء الأول ، في الفقرة (١١٩) .

وبالرجوع إلى (الفهرست) طبعة =
(رضا - تجدد) وجدته قد ترجم له في
(فصحاء الأعراب) ، وجاءت ترجمته
في ص (٥٥) وهذا نصها :

« ابن أبي صبيح ، عبد الله بن عمرو
بن أبي صبيح المازني ، أعرابي بدوي ،
نزل بغداد ، وبها مات . كان شاعرا
فصيحاً ، أخذ عنه العلماء ، وله مع الفقهسي
أخبار طريفة قال دعبل : حضر الفقهسي
داراً فيها أولمة ، وحضرها ابن أبي صبيح
الأعرابي ، فازدحما على الباب ، فغلب
ابن أبي صبيح ، ودخل قبل محمد وقال :

ألا ليت أنك أم عمرو

شهدت مقاومي كي تعذريني

ودفعني منكب الأسد عني

على عجل بناحية زبون

بمنزلة كأن الأسد فيها
رمتني بالحواجب والعيون

و كنت إذا سمعت بحق خصم

منعت الخصم أن يتقدموني « اهـ :

أما خصمه الفقهسي ، الذي زاحمه على
باب الوليمة ، فقد ترجم له أيضاً صاحب
الفهرست ، قبله مباشرة ، ويبدو أنهما
يزدحمان حتى على باب الفهرست للترجمة ،
ولكن الفقهسي كان هذه المرة هو الغالب ،
فقد تقدمه في الترتيب ، وهذا نص
ما أورده صاحب الفهرست (ص ٥٥
أيضاً) :

« الفقهسي ، واسمه محمد بن عبد الملك
الأسدي ، راوية بني أسد ، وصاحب
مآثرها وأخبارها ، وكان شاعراً ، أدرك
المنصور ومن بعده ، وعنه أخذ العلماء
مآثر بني أسد ، فمن شعره يمدح الفضل بن
ربيع :

الناس مختلفون في أحوالهم

وابن الربيع على طريق واحد

وله من الكتب المصنفة « كتاب مآثر

بني أسد وأشعارها » أ هـ (١)

(١) يبدو أنه كان محظوظاً أيضاً عند الزركلي ، فقد ترجم له في (الأعلام) ولم يترجم للخصم فذهب إلى
أن وفاته نحو سنة ٢١٠ هـ = ٨٢٥ م ، وقال انه أدرك أيام المنصور العباسي ، ومدح الرشيد والمأمون ،
وبعض رجالهما ، واعتمد على (كتاب الورقة) لابن الجراح .

ولكننا نجد ابن الجراح ، محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م ذكر ابن أبي صبيح في كتابه (الورقة) ص ١٤ ، حينما ترجم لخصمه : محمد بن عبد الملك الفقعسي الأسدي ، سالف الذكر في ص ١٣ ، (ورب ضارة نافعة) . فقال مانصه :

« قال ابن أبي خيثمة : قال دعبل : حضر محمد بن عبد الملك الفقعسي دارا فيها وليمة وحضرها ابن أبي صبيح الأعرابي ، وكان بدويا نزل بغداد ، ومات بها ، وكان شاعرا مجيدا ، فازدحما على باب الدار ، فغلب ابن أبي صبيح ، ودخل قبل محمد ، فقال ابن أبي صبيح : (ثم أورد الأسماء الأربعة التي سلف ذكرها) .

ونحن نرى تشابه النصين عند ابن الجراح وابن النديم ، ماعدا بعض الاختلاف ، فرواية ابن الجراح تقول : إنه كان شاعرا مجيدا ، ويقول ابن النديم : كان شاعرا فصيحاً . وهو عند ابن الجراح ابن أبي صبيح ، بضم الصاد وبعدها باء فياء بتصغير صبيح ، ولكنه عند ابن النديم ابن أبي صبيح بصاد ثم باء فحاء ، وهو يقول في تعريفه (المازني) نسبة إلى (مازن) وابن الجراح لم ينسبه إلى قبيلة .

وابن الجراح كان أسبق وأقدم ، وقد نقل ابن النديم من كتابه (الورقة) الشيء الكثير . . وربما اعتمد عليه في نقل هذا النص مع شيء من التغيير . . وكلاهما ينقل الشعر عن (دعبل) ، وهو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي (١٤٨ - ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ - ٨٦٠ م) الشاعر المعروف ، له كتاب (طبقات الشعراء)^(١) ، وربما كان هو مصدر هذه النصوص .

ولكن لا يفوتنا أن ابن الجراح ، يقول في بداية نصه (قال ابن أبي خيثمة) . . وابن أبي خيثمة هو أحمد بن زهير (١٨٥ - ٢٧٩ هـ = ٨٠١ - ٨٩٢ م) ، وهو من أبرز تلامذة المصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري ، صاحب كتاب (نسب قريش) ، وأحد كبار الرواة للأخبار والأشعار ، وعليه اعتمد ابن أخيه (الزبير بن بكار) في كتابه (نسب قريش) ، أو جمهرة نسب قريش . . وهذا يقودنا إلى السند الزبيري . ولا يبعد أن يكون كتاب (جمهرة نسب قريش) ، هو مرجع هؤلاء الذين نقلوا أخبار ابن أبي صبيح أو على الأقل طرفاً من أخباره - بيد أنني لا أستطيع الحزم مادام جزء كبير من هذا الكتاب لم ينشر بعد ، غير ما هو مفقود منه لم يعثر عليه حتى الآن .

(١) انظر عنه (تاريخ التراث العربي) لسزكين ج ٤ من المجلد العربي الثاني الخاص بالشعر ، ص ١ وما بعدها ، وهو يقول عن هذا الكتاب : « وهو كتاب كثير النقل عنه » .

على أنه وقد تطرق الحديث إلى كتاب (الفهرست) وما أورده من تعريف عن ابن أبي صبيح - مهما كان ضئيلاً - فلا أود أن أتجاوزَه دون أن أذكر أنه قال عنه في باب (الفن الثاني - من المقالة الرابعة ص ١٨٧) من طبعة تجدد: « ابن أبي صبيح مقل » ، وسواء أنقل هذا من كتاب (الورقة) لابن الجراح أم لم ينقله ، فهو يعطينا معلومة انتهى إليها علمه ، وهى أن هذا الشاعر مقل . . فهل كان مقلاً حقاً . . ؟ هذا ما أرجو أن أعود إليه بالحديث فيما بعد إن شاء الله .

المصدر الأقدم - اذن - الذى نجد فيه ذكر ابن أبي صبيح هو كتاب (جمهرة نسب قريش) ، ولكنه ليس المصدر الوحيد ، فهناك مصدر آخر هو كتاب (التعليقات والنوادر) لأبي على هارون بن زكريا الهجرى ، المتوفى نحو سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م ، أى أنه كان معاصراً لابن الجراح^(١) .

وقبل أن اتعرض بالتفصيل ، لما جاء فى هذين المصدرين . . أود أن أقف قليلاً عندما جاء من اختلاف فى اسم الشاعر ونسبته . . فهل هو ابن أبي صبيح أو ابن أبي صبيح كما جاء عند ابن الجراح ؟ وهل هو من مازن ؟ كما قال صاحب الفهرست ، وتابعه على ذلك الأستاذ (سيزكين) فى (تاريخ التراث العربى) ؟

أقول هو عند الزبير بن بكار فى جمهرته ، وعند (الهجرى) فى تعليقاته وهما أسبق وأقدم (ابن أبي صبيح) أى بدون تصغير ، كما هو عندهما مُزنى لـ مازنى . . وبين النسبتين فرق ، كما هو معلوم . . وبعض كتب الأنساب تذكر اسم (عبد الله بن عمرو المزنى) فى النسبة إلى مزينة . . كما هو عند السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) ، ولا أستطيع أن أجزم أيقصد هذا الشاعر ، أو علماً آخر . ؟ ذلك أن شاعرنا اشتهر بلقب (ابن أبي صبيح) يلزم اسمه . . ومهما يكن الأمر فهو ليس مازنيا وقد يكون الخطأ فى (الفهرست) تحريفاً من الناسخ .

وقد جاء فى شعر هذا الشاعر ما يجزم بأنه من مزينة مضر ، وهو قوله يمدح مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيرى :
أنى لأحبس نفسى وهى صادية
عن مصعب ، ولقد بانّتلى الطرق

رعوى عليه كما أرعى على هـرم
قبلى زهير^٢ وفينا ذلك الخلق
وزهير الذى يعنيه هو (زهير بن أبي سلمى) وهو شاعر مُزنى من مضر : بل هو يصرح بمزينة فى قوله مادحاً مصعباً :
لسارت إليه مدحة مزنية
يلد بها فى المنشدين نشيد

(١) لأستاذنا العلامة الشيخ محمد الحامى كتاب مطبوع عن الهجرى .

ولا ينبغي أن يفوتني عندما أعزو معظم ما انتهى إلينا من شعر إلى رواية الزبير ابن بكار ، أن أذكر أن هذا يروى الكثير مما ورد في كتابه (جمهرة نسب قريش) عن عمه مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري ، وهذا كان صديقا حميما للشاعر ، وطالما امتدحه الشاعر ، وسيأتي من الشواهد ما يدل على ذلك . . على أنه مما يلفت النظر حقا ، أن مصعبا لم يشتر إطلاقا إلى اسم صديقه الشاعر في كتابه (نسب قريش) ، وذلك لأن منهجه فيه كان إيراد الأنساب فحسب ، متجنبيا الأخبار والأشعار ، وكأنما كان يدخرها لكتاب آخر ، أو كأنه ادخرها لابن أخيه أعني الزبير بن بكار ، الذي كان مولعا بالاستطراد الأدبي ، فذكر أخبارا وأشعارا كثيرة إلى جوار الأنساب ، وحسنا فعل ، فقد أصبح كتابه وثيقة تاريخية مهمة ، ومما يؤسف له أن لا يصدر منه إلا قسم واحد فحسب ، وأن يظل باقيه مطويا حتى الآن . . وغني عن القول ، أن بعض القدامى قد أكثروا منه النقول ، ومنهم على سبيل المثال ، ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، في كتابه (تاريخ دمشق) .

* * *

قال صاحب (الفهرست) ص ١٨٧ ، إنه مقل . . أي في شعره ، ولكن النصوص التي رأيتها فيما نشر من (جمهرة نسب قريش) تدل على خصب إنتاجه وشاعريته . . وهي جزء من شعره لا كله ، وربما كان في سائر الكتاب ، مما لم ينشر بعد ، أو فيما لم يصل إلينا من مخطوطته نصوص أخرى ، فإن الزبير بن بكار كان حفيبا به ، لصلته الوثيقة بآل الزبير ، فهو كثير المدح لهم ، والثناء عليهم ، وفيما وقفت عليه من نصوص (الجمهرة) ما يدل على أن الشاعر طرق باب الأرجوزة . وإن لم يورد من أرجوزته إلا أبياتا معدودة .

وفي محاولة لاستقراء شيء عن حياته وأسرته ، فيما اطلعت عليه من شعره ، وجدت بعض الإشارات التي نستطيع أن ندرك منها المعلومات التالية :

١ - أن له أبناء يفخر بهم ، كما يفخر بأجداده وأسرته أو عصبته :

أبي الضيم لي قلب ذكي وصارم
وأنف حمى قد أبي الذل والخللا
وأبناء صدق ماجدون ، وأسرة

مصاليب ، كانوا لابطاء ولا نكلا (١)

(١) التعليقات والنوادر لأبي علي الهجري ، تحقيق الدكتور محمود عبد الأمير الحمادي ٢ / ٢٩٠

بينهما صلح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

دعاني أبو عمرو إلى الله دعوة
أصاب بها مافي فؤادي ولا يدرى

إلى خلق من خير من وطئ الحصا
وفي روضة بين الأساطين والقبر

فتبنا وأشهدنا الزبير ، وأن نعد
بنقض فما من توبة آخر الدهر (٢)
فقد كناه الشاعر هنا . . بأبي عمرو . .

ونعلم من نص آخر ورد في (جمهرة
نسب قريش) ١ - ٢١١ ، أن له ابناً اسمه
(عدي) ، وهذا هو النص :

« أنشدني عدي بن عبد الله بن عمرو
ابن أبي صبح المزني لأبيه ، يمدح مصعب
بن عبد الله بن مصعب ، حين أجمع المسير
إلى اليمن ، لميعاده مصعباً أن يطلع أهله ثم
يأتيه بصنعاء فقال :

« تقول ابنة الزيدى : أصبحت وافدا
على ملك أي الملوك تريد ؟ »
إلى آخر القصيدة . .

٢ - أنه ذكر في شعره (شمسية) ، وهي
في أغلب الظن اسم زوجته . وذلك في
قصيدة كافية طويلة ، والشاهد في مطلعها :

قالت (شمسية) ، إذ قامت تودعني
والدمع يجري على الخدين أسلاكاً

لا يلهينك عنا ، بعدد فرقتنا
بعد المزار ، وأن صاحبت أماركا
وهو يكتنيتها بأمر عمرو ، إذ يرد بعد البيت
تتمة الحوار :

فقلت : لو كنت أنساكم يوماً نسيتمكم
إذ قال لي مصعب : لو شئت أجزاك

خطان في شبر قرطاس يطير به
منا جرى ، وتمضي . قلت : كلا
لا بد من نظرة أشفي بها كمدى
من أم عمرو ، قليلاً ثم ألقاك (١)

فعمرو على ما يبدو ابنه من (شمسية) ،
ويؤيد ذلك أن مناقضه أبا مدرك ، حاتم
ابن مدرك السلمي (٢) قال يخاطبه وقد انعقد

(١) الأبيات من قصيدة طويلة وردت في (جمهرة نسب قريش) ١ - ٢٨ وستردي أشعاره .
(٢) يبدو أن هذا الشاعر من الأغفال الذين لم ترجم لهم المصادر التي بين أيدينا ، يقول الأستاذ (محمود
محمد شاكر) محقق كتاب (جمهرة نسب قريش) ١ - ١٠٨ في الهامش عند إيراد هذه الأبيات : (لم أجد
له ترجمة) ، ويقول محقق كتاب « التعليقات والنوادر » لأبي علي الهجري ، ٢ - ٢٥٤ في ذكر بعض
مناقضاته لابن أبي صبح ، ورد اسمه في اللسان في مادة (مض) يهجو أبا البوق ، ولم يرد ما يفصح عنه
شيئاً في المصادر الباقية أقول : لم يذكره الزركلي في (الأعلام) ، ولم أجده لدى سيزكين في كتابه (تاريخ
التراث العربي) ، المجلد الثاني - الجزء الرابع (الشعر) .

(٣) جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار ، ص ١ - ١٠٧ .

أقول : ولعل المراد بابنة الزيدى هنا هو
(شمسية) .

* * *

ولا يعين ما وقفت عليه من النصوص
والأنخبار على تعيين مولده ، ولا موضع
ميلاده ، ولا منازله ، ولا تاريخ وفاته
ولكنها تفيدنا مما ذكره عن ممدوحيه الذين
سجدوا أسماءهم في النصوص التي سأوردها
— إن شاء الله — ما يجعلنا نقول إنه من شعراء
القرن الثاني من الهجرة ، وإنه كان يقصد
الزبير بن عدي في المدينة المنورة وفي صنعاء
وإنه كان صديقا حسيما لمصعب بن عبد الله
بن مصعب ، وإنه لحق به في صنعاء
عندما ولي هارون الرشيد أباه (عبد الله بن
مصعب) إمارة اليمن ، حيث احتفى الأب
والابن به ، ونزل ضيفا في دار الإمارة ،
وقد بلغ من حفاوة مصعب به أنه كاد أن
يحملة معه إلى صنعاء ، لولا أن الشاعر استمهاه
ريثما يصل إلى أهله فيزورهم ويودعهم ،
وذلك ما صرح به في قصيدتيه . . . (قالت
شمسية) . . . و (تقول ابنة الزيدى) . . .
وهذا يدل على أن أسرته لم تكن تقيم في
المدينة ، وأن منازله تحتاج إلى عدا أو جرى
أو نجاب . . . إذ قال : إلى مصعب لو
شئت أجزاءك ، خطان في شبر قرطاس
يطر به منا جرى ، ونمضي . . ؟ قلت
كلًا . . لا بد من نظرة أشنى بها كمدى من
أم عمرو . . » .

وهو فيما تدل عليه نصوصه الشعرية شديدا
الالتزام للزبيرين وليس لمصعب وأبيه فقط
. . بل لغيرهم أيضا ممن سترد أسماؤهم
في أشعاره ، وهذا مناقضه حاتم بن مدرك
يقول له .

« . . وتندرننا آل الزبير ، كأننا
طلبنا يحزم ، أو حملنا لهم ذحلا »
وهذه النصوص تدل على أن شاعرنا كان
أعرابيا متبديا ، وأن دياره قريبة من المدينة
المنورة ، يسهل على العدا أن يصل إليها على
قدميه ، فهو إذن يسكن حوالى المدينة
المنورة ، مما يدل على أنه من مزينة .

وبالرغم من أن إحساسنا بخامرئى — مما
رأيت من طلاقة الشاعر ، وانصرافه للمديح
خاصة لمن عاش في كنفه من الزبيرين
ودخوله أحيانا في بعض المعارك الشعرية
وتطرقه إلى شئ من الغزل — أن شعره كان
كثيرا جدا ، ولكن لم يصل إلينا منه إلا هذا
القدر الذى تداوله بعض المؤلفين .

أما وقد أوردت ما وسعنى الوقوف عليه
من معلومات عن هذا الشاعر ، فقد حان
أن أنتقل إلى الجزء الثانى من المقال ، وهو
إيراد ما عثرت عليه من شعره في المصادر
القليلة التى أتيج لى الاطلاع عليها ، ولعل من
الباحثين من يستطيع أن يضيف إليها نصوصا
جديدة ، خادمة لتراثنا الشعرى والادبى .

٢ - أشعاره

الباء

١ . قال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب الزبيرى :
فتى همه أن يشتري الحمد بالندى
فقد ذهبت أخباره كل مذهب

لعمرك ان المنتمى بابن مصعب
لمعتدل الحجرة ، جزل المواهب
مفيد ومتلاف كأن نواله
علينا نجاء العارض المتنصب

وان امرأ بين الزبير اذا انتضى
وبين أبي بكر لحض المضارب
المصدر : ٢١٣/١ من جمهرة نسب
قريش ، وقد جاءت الأبيات أيضا في
تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلد السادس
عشر من المخطوطة ص ٥٥٠ . وفيه البيت
الأخير : (بحار) بدلا من (نجاء) . والنجاء :

جمع نجو ، وهو السحاب أول ما ينشأ ،
والعارض : السحاب المطل يعترض الأفق ،
كما جاءت الأبيات في ج ١٣/١١٣ من
تاريخ بغداد . وفيه في البيت الأخير ،
(المتنصب) بدلا عن (المتنصب) .

الدال

١ - قال يمدح عبد الله بن مصعب
الزبيرى ، وابنه أبا بكر :

أكرم بنى شرف ألقى مكارمه
فوق الثريا فعلى فوق ما وجدا
ذاك ابن مصعب الموفى بذمته
أعطى الخزيل ، وأوفى كل ما وعدا

المعنى : أن من كان عبد الله بن مصعب
أباه ، فهو على طريق مستقيمة ، أجزل
الله له المواهب ، كيف وقد جاء من جدين
عظيمين هما الزبير بن العوام ، جده من
جهة آبائه ، وأبو بكر الصديق جد عبد الله
بن الزبير لأمه ، فهو ابن أسماء بنت أبي بكر
ذات النطاقين .

٢ - قال يمدح مصعب بن عبد الله بن
مصعب الزبيرى :

إذا شئت يوما أن ترى وجه سابق
بعيد المدى فانظر إلى وجه مصعب
ترى وجه بسام أغر كأنما
تفرج تاج الملك عن ضوء كوكب

من فتية صبروا في كل نائبة
حتى نفوا عنهم ما عاب فانتقدا
: المصدر ١ / ١٤١ و ١٤٢ من جمهرة
نسب قريش للزبير بن بكار.

٢ - وقال يرثي عبد الله ومحمدا ابني
مصعب بن ثابت :

قل للأمير جزاه الله عارفة
وأهل ودّي جميعا من بني أسد
مجرى المديح وقد راخيم الأعدا

قد رثموني ، فهذا ريشكم خضل
بادي علي ، وقد أنعمتم رغدا

إن الخواري والصدیق وابنهم
وابن الرباب ، بنوا بنيانكم صعدا

ثم الأميران شدا عقد عروتكم
ولا سبيل إلى حل السدى عقدا

نعم الأميران بكّار ووالسدة
ما أشرف الوالد الميمون والولدا

المسالسان بعسل الله قبضته
والمصلحان ، بإذن الله منا فسدا

والحافظان لما أوصى الإله به
من حق ذي الحق إن غابا وإن شهدا

والصادران معا عن كل ما تركنا
والواردان جميعا كل مساوردا

، والطاعنان صدور الخيل مقبلة
والضاربان إذا غاب القنا قصدا

أعز بمن كان عبد الله نساصره
ومن يكون أبو بكر له عضدا

المصدر : ١ / ١٥٢ و ١٥٣ من جمهرة
نسب قريش والمقصود ببني أسد هنا :

أسد بن عبد العزى جد الزبيرين :
والأبيات على ما يبدو موجهة للأمير أبي
بكر بن عبد الله بن مصعب ، الذى خلف
أباه فى إمارة المدينة المنورة ، وهو المعروف
ببكار .

٣- قال يمدح مصعب بن عبد الله
ابن مصعب ، حين أجمع المسير إلى اليمن
لميعاده مصعباً أن يطلع أحله ثم يأتيه بصنعاء :

نقول ابنة الزبيدي : أصبحت وافدا
على ملك أىّ الملوك تريد ؟

فقلت لها : مستورد حوض مصعب
فقلت : وأنىّ والمسير بعيسى ؟

فقلت لها : لو كنت فى سجن عارم
بدمياط ، قد شدت على قيود

لسارت إليه مدحمة مزينة
يلد بها فى المنشدين نشيد

أرى الناس فاضوا ثم غاضوا ومصعب
على العهد يتطغى بحره ويزيد

إذا صدرت بالحمد عن حوض مصعب
وفود ، وحلت بعد ذاك وفود

تهلّ فياض الندى عاجل القرى
إذا أهل وهناً قِطْقِطَ وجليد

أقول لمغتاض على كسانما
بليته حامي السنان حديد :

تبرد بعبي فى الخلاه فإنه
نقى العيب غنى مشهد وجدود
وبغرة أملاك تنجيت نوءها
فأسديتوها والحاسدون شهود

تعلقت الحساد منها زمائسة
فلم يبق إلا أن يموت حسود

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ / ٢١١
و ٢١٢ ، وقد رواها الزبير بن بكار عن
عدي بن عبد الله بن عمرو بن أبي صبح
المنزى ، ابن الشاعر . وقد نقلها ابن عساكر
فى تاريخ دمشق ١٦ / ٥٥٢ - المخطوط ،

وفى البيت الرابع إشارة صريحة إلى
قومه (مزينة) ، ويغنى فى البيت السادس
معناها يزيد ، ومعنى قِطْقِطَ فى السابع :
صغار البرد والبغرة : فى البيت العاشر
معناها الدفعة الشديدة من المطر .

الراء

قال يمدح مصعب بن عبد الله :

فسا عيشنا إلا الربيع ومصعب

يدور علينا مصعب ونلدور

وفى مصعب ان غينا القطر والندى

لنا ورق مغرورق وشكير

متى ما يرى الراؤون غرة مصعب

ينير بها لشرافه ، فتسير

يروا ملكا كالبدن أما فشاؤه
فرحب ، وأما قدره فكبير
له نعم من عند قصير دونها

وليس بها عما يريد قصور
عددنا فأكثرنا ومدت فأكثر

فقلنا كثير طيب وكثير
لعمري لئن عدت نعاء مصعب

لأشكرها إني إذا لشكور

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ /
٢١٢ ، ونقلها ابن عساكر في المجلد
السادس عشر .

المخطوط ص ٥٤٩ ، كما نقل خبرها
الوارد في الجمهرة ونصه : « حدثنا الزبير
ابن بكار ، وكان أبو غزية محمد بن موسى
الأنصاري ، كثيرا ما يجلس إلى ، فجلس
إلى ليلة بين المغرب والعشاء الآخرة ،
في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وهو إذ ذاك قاض ، فتحدثنا إلى أن
ذكرنا الشعر ، فقال : ابن أبي صبح
المزني أشعر الناس ، حيث يقول لعمرك
ثم ذكر الأبيات . »

أقول : وترجمة محمد بن موسى في
أخبار القضاة ١ / ٥٧ مات سنة ٢٠٧
وفي هامش ص - ٢١٢ من جمهرة نسب
قریش ذكر المحقق بعض مصادر
ترجمته ،

ومعنى (الشكير) في البيت الثاني :
الورق الصغير يتلو الورق الكبير في
النمو .

الصاد

وقال :

أبي قلبه منهن أن يتخلصا
وقد مح سربال الشباب وقلصا

رمين وأرماهن في كسل موطن^١

فأحذينه نبل الخبال ، وأشخصا

إذا شئن أن يوطئنه جبل عاثر

ليصطدن منه فرصة ...

تلبس أريادا ، وأبرزن أوجهها
حسانا ، وأظهرن الجمان المخرصا

وفيهن طورا أن دعت قلت : نادب

أجاب ، وان نصنصن قلت تنصنصا

سقى الله من نوء الثريا طعائنا

تيممن نجدا ، واختصرن المرخصا

ظعائن ممن سار فاحتل رأبغنا

وودان ، أيام الجلا ، فالأخصا

أقمن به حتى أتى الصيف قادمنا

وقضى لبانات الربيع فأشخصا

المصدر : التعليقات والنوادر لأبي على

المجري : مصورة مخطوطة الجمعية الآسيوية

في (كلكته) ، أطلعني على محل الشاهد

أستاذى الشيخ حمد الجاسر ، جزاه الله
خيـرا ، وخطها غير جلى ، وقد استعنت
ببعض الأصدقاء على حل رموزها ،
وتركت محل كلمة بياضا لعدم وضوحها ،
وذلك فى البيت الثالث .
الألفاظ الغريبة :

١ - مع : بلى ، قلص : تقلص :

٢ - أحذينه : أعطينه ، وأشخص :

يقال الشخص أشخص السهم إذا مرق
أعلى الغرض (الهدف) ، والمقصود أن
سهامهن أصابته وأخطأ سهمه فلم يصبنه :

٤ - المخرصا : أى الذى ازدان بالخرصان
وهى حلق الذهب والفضة وما يماثلها .

٥ - أشخص (فى البيت الأخير) :
ارتحل .

الفاء

قال يمدح عبد الله بن مصعب وابنيه
أبا بكر ومصعبا :

يا أيها الرجل المهلى الفناء لسه

من كل شعب يسدانى ثم يختلف
دع عنك ليلى ، فما ليلى بجازية

لا تجلهن ولا يلجج بك الكلف
واذكر بأحسن قول أنت قائله

آل الزبير ، فقد أعطوا وقد عطفوا
وقد سقوك بسجل من سجالهم

حتى رويت ، وقد زادوا وقد لطفوا

وقد كفناك ندام نوء غيرهم
فلا تعول على الغرف الذى غرفوا
قد كان لى فى أبى بكر ووالده
ومصعب ذى الندى من تالد خلف

والثابتيون قوم فى ودادهم
غنى الحياة ، وفى أحقادهم تلف

اللاحظون بنور الله إن غضبوا
والشاملون. بيمين حيثما انصرفوا

والفارطون فلا توبى حياضهم
بالواردين ، وان ذوادها قصفوا

ان ابن مصعب الميمون طائره
ثبى على خير ماسدى لسه السلف

لا يدرك الناس فى الحجارة غايته
ولو تعالوا ، ولو خبوا ولو خنفوا

تمشى الملوك على أذيال لأمتيه
إن سارساروا وإن أوما وقفوا وقفوا

يا ابن الزبير لقد فرجت من كربى
ورفلتنى لك الفيضات والتحف

وقد جبرت جناحى بعسد رقتيه
حتى انتهضت ، وحتى مسنى الترف

وقد تخلصتنى من بين مأسدة
أذلتنى لهم السلطان والصحف

ادركتنى بعسد أن دارت عقابهم
وقد بللت لها رأسى وقد وحفوا

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ١٤٠ وينظر أيضا ١ / ١٢٢ .

ومعنى البيت التاسع أنهم يتقدمون قومهم وقوله لا توبى حياضهم : أى لا تنقطع من الماء . وقصفوا : تراحموا :

وفي البيت العاشر ، معنى ثبى : اقتنى وسدى : خلف :

وفي البيت الحادى عشر أراد الشاعر أن الناس لو جاروه لما استطاعوا اللحاق به مهما استعملوا من أنواع العدو :

وفي البيت الثالث عشر : أراد فى الشطر الثانى : أنك جعلتني أرفل فى فيضك وتحفك :

وفي البيت السادس عشر (الأخير) يقول : أدركتني بعد أن تهيأت لاستقبال الحالقة ، وبللت رأسى لحلق لمتى ، وهو نوع من التعزير كان يخضع له المغلوب والأسير ، ومعنى وحفوا : أسرعوا .

القاف

١ - وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله ابن مصعب من أرجوزة يقول فيها :
يا بكر أدعوك وفيما صادقا

ثم قال فيها :

وقد رأيا الحلق المصالحقا
وهى تسامى ترسل الشقاشقا

إن نظرت يوما - إليه باسقا
أو كر فيها ناظرا أو ناطقا

ألقت على الأرض له العناققا

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ١٨٥ .

المعنى : الحلق : جمع حلقة المصالحق : ذات الضجيج تسامى : تتعالى . الشقاشق : الهدير . العنققة : الشعر تحت الشفة السفلى : أى أن حلقات الرجال التى تهدر بضجيجهم إذ جاءها فنظر أو نطق أبدت خضوعها واستمعت إليه . :

٢ - وقال يمدح مصعب بن عبد الله :
وقد علمت ، ألا والله يعلمه
ما قلت زورا ولا من شيمتى الملق

إنى لأحبس نفسى ، وهى صادية
عن مصعب ، ولقد بانى لى الطرق
رعوى عليه كما أرعى على هــرم .
قبلى زهير ، وفينا ذلك الخلق

مدح الكرام ، وسعى فى مسرتهم
ثم الغنى ، ويد الممدوح تندفق

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ٢٠٧
تاريخ دمشق ١٦ / ٥٤٩ مخطوط .

المعنى : الرعوى : الرعاية والإشفاق وهو يشير فى هذا البيت الثالث إلى أن زهير بن أبى سلمى ، وهو منى مثله ،

كان يشفق على ممدوحه هرم بن سنان. ذكر
محقق الجهرة الأستاذ محمود أحمد شاكر
في الهامش نقلا عن الأغاني ٣٠٥/١٠
أن هرما كان قد حلف أن لا يمدحه زهير
إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا
يسلم عليه إلا أعطاه ، فاستحى زهير مما
كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملا قال :
عموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت .

وفي البيت إشارة إلى كونه من مزينة ،
ولعله يقصد بالغنى في البيت الرابع
(الأخير) التعفف .

٣- وقال يمدحه أيضا :

إذا رفعت أحراسه السير واستوى
على ظهر مصفوف عليه المنسارق
يدا ملك في صورة البدر طالعا
فيالك حسنا زينته الخلائق

خلائق أحرار الملوك ونورها
يلوح عليها نظمها المتناسق

فتى لم تفتسه خطبة مجمع التقي
إلى المجد إلا ضمها فهو رائق

فمنح بفضل الله في فضل مصعب
لنا صابح من ذى نسده و غابق

متباعد عن مصعبا - غير باعد - الله
مدائح تذررها الرياح الزواعق

جزاء بآلاء له ان شكرتها
شكرت عظيما لم تصفه المناطق
ألم تُلَفنى ذا خلة فاصطنعتني
وأطلقت مالي ، وهو في الرهن غالق

وأنقذتني من لجة السدين بعدما
غرقت ، وغاشى لجة الدين غارق
وأغنييتني عن سواك وأنبتت
رياحك ريشي والنجاء الدوافق

وأسببت إسبال الربيع وأخصبت
رياضك للجسادين ، والله رازق

فاقسم لا أحصى الذى فيك مادم
بمدح ، ولكنى جزوف مخارق

ولا ضن نصحا عنك بالغيب مؤمن
تنى ، ولا عياداك إلا منافق

ولا خفت إلا الكاشحين ملمة
عليك ، ولكنى بنى العرش واثق

المصادر : جهرة نسب قریش ١ /
٢٠٩ ، ٢١٠ ، وهى فى مخطوطة تاريخ
دمشق لابن عساكر ١٦ / ٥٥١ و ٥٥٢
وقدم وأخر فى البيتين الأخيرين .

وفى البيت التاسع إشارة إلى أن ممدوحه
فك الرهن الذى كان فيه ماله ، ولعل هذا
يفسر لنا قوله فى القصيدة الفائية التى
سلفت حينما قال :

وقد تخلصتني من بين مأساة
أذلني لهم السلطان والصحف
أدركتني بعد أن دارت عقابهم
وقد باللت لها رأسى وقد وحنوا

الكاف

١ - قال يمدح مصعب بن عبد الله :
قال (شميسة) إذ قامت تودعني
والدمع يجري على الخدين أسلاكاً
لا يلهينك عنا ، بعد فرقتنا
بعد المزار ، وإن صاحبت أملاكاً
فقلت : لو كنت أنساكم يوماً نسيتكم
إذ قال لي مصعب لو شئت أجزاك

خطان في شبر قرطاس يطير به
منا جرى ونمضي . قلت : كلا
لا بد من نظرة أشفي بها كبدي
من أم عمرو ، قليلاً ، ثم ألقاك
دع عنك ما فات ، واكس الرجل معترفاً
أعطاكه مصعب أيام ألقاك
عارٍ جناحك قد حُصت قواديمه
قد عضك الدهر عضات فأدماكا

يا ذا الندى ، ليس لي في غيركم وطر
أغنيتني بالغنى ، والله أغناك
إن امتدحككم ، فخير القول مدحككم
وقد نزال بغير المدح جدواك

يا أوسع الناس فضلاً بعد والده
إن تمنع خيراً فإن الله أعطاك
مجدا تطأطأ عنه كـل ذي شرف
فيمنع الناس أن يجروا بمجراك
مد ابن أسماء كفيه بمكرمة
وابن الرباب فقالا مصعب هاكا

أنت ابننا ، ما اجتمعنا قط في رجل
فيستطيع له الساعون إدراكاً
ثم الأمير أدام الله صالحه
نعم المبتوا بحمد الله بـواك
رقاك في المجد حتى نلت ذروته
فمن بغاك محلّ النجم وافساك

المصدر : جمهرة نسب قریش ٢٠٨/١
و ٢٠٩ ، ومخطوطة تاريخ دمشق لابن
عساكر ١٦ / ٥٤٩ و ٥٥٠ وفيه البيت
الثالث بدون (فقلت) وهي هنا زائدة ،
وبها يخلط الوزن وفي الخامس (كبدي)
محل (كمدى) .

وقد ذكر (الزبير بن بكار) قصة
هذه الأبيات ، بعد إيرادها ، فقال :

« حدثني عبد الله بن عمرو بن أبي
صبيح المزني قال : لما استعمل عبد الله
بن مصعب على اليمن ، قال لي مصعب
بن عبد الله : امض معنا إلى صنعاء . فقلت :
لم أعلم أهلي ذلك . فقال : ترسل رسولا

ونكتب معه بحاجتك ، وتمضى معنا
وتكفاهم . فقلت : لا بد لي من مطالعتهم ،
ثم ألحقكم ، وهو حين قلت هذه القصيدة
ثم قدمت عليهم صنعاء ، فأزلىني عبد الله
ابن مصعب معه في دار الامارة ، وأجرى
على خمسين دينارا في كل شهر ، وأكرمني
ثم غرضت (قلقت) فشكوت ذلك
إليه ، واستأذنته في الانصراف ، فأذن
لي فأعطاني خمسمئة دينار ، وكساني
كسوة فاخرة من عصب اليمن ، وأمرني
فدخلت على نجبائه ، فأخذت منها نجيبا
مهريا ، فانصرفت سالما غانما إلى أهلي
أهـ .

اللام

١ - قال يمدح أبا بكر بن عبد الله :
كأن لم ترى غب ارتحالي وغيتي
وعرف أبي بكر بسجل على سجل
مدحت أبا بكر فما خاب عنده
مديحي ، وما ألفيته عنده ذا شغل
وما كذبتني سنح الطير دونه
وما كذبت روياي إذ نمت بالرمل
أثنت فلما ملت في نشوة الكرى
رأيت على الريش أخضر كالبقل
وأبصرتني أسمو إلى البدر طالعا
وأعقد في أسباب أحبله حبلى

وأغرقت من فيض الفرات وأكتفى
من النيل عبابا فأسقى به نخسلي
فقلت لأصحابي : جرت طير أسعد
لكم فوق أعناق الغريفة الفتلى
ورؤياك أخذ الكف بالكف بشرت
بيوم ندى من ذى ندى واسع الفضل
متى تهبطوا أرض الزبيرى تعتقوا
خشاش المطايا ، من سأم ومن هزل
أثابك عنا الله حسن ثوابه
بغذلك في الأحكام والخلق الجزل
خلفت لنا الصديق تهدي كهديه
وهدي الزبير حذوك النعل بالنعل
وسرت إلينا والبلاد كأنها
لما غبت من أدوائها مرجل يغلى
فداويتها حتى إذا مساشفيتها
من الداء والتامت جميعا على العدل
وطئت على سيسائها فكأئما
رسا ورقان فوقها وقرى تبطل
فأصبحت يا ابن الخير تنمى إلى العلى
على حلق الأعداء والحدق الشهل
وإن أمير المؤمنين لعسارف
غناءك عنه في البلاء الذى تبلى
ولى لمن بالذى قد فعلتم
بنى ثابت فى الناس ما اشتد لى عقلى

وإني لأدعوكم إذا جلّ حدث
من الدهر أو ضاقت بنا عروة الحبل
وأعلم لولا الزهر من آل ثابث
لمرت ببعض القوم خفاقة الرجل
ولكنهم جادوا وسادوا وأنعموا
وقادوا وردوا بالندى طيرة الجهل
وماحوا وراحوا بالندى حين لم ترح
بدرتها أم عوان على طفل
* * *

وكانت بينه وبين أبي مدرّك ، حاتم
بن مدرّك الحبشي ، من بني الحارث ،
سُلمى ، ملاحاة شعرية وقد جاء في كتاب
(التعليقات والنوادر) لأبي على هارون
بن زكريا الهجري^(١) ، انشدني شيخ من
جيلة الفرع^(٢) لأبي مدرّك يرد على عبد الله
بن أبي صبيح المزني :

ألا أيها الغادي اتسق الله واحتمل
لنا حاجة لا تستبين لها ثقلا
تبلغ يعقوب بن يحيى رسالة
وعمرنا وشبلا أودع الله لي شبلا

وحى بنى لقمان فالحى حيرة
وتقرا عليهم من تحيةنا مثلاً^(٣)
وكل بنى عيش الكرام فإنهم
صديق وجيران أرى لهم فضلا
إذا جثهم من مخدع الغيب ساعة
لأنظر ما هم لم أجد لهم دغلا
وقل بعد هذا كله : إن حاتما
يقول لكم : قولوا لصاحبكم مهلا

وقولوا له : ما بال عقلك ناشئا
وجهلك لما عدت ذا شيبة كهلا ؟
كأنك لم تقرأ من السوحى سورة
بأرض ، ولم تسمع بها ساعة تتلى
إذا ما التقينا عدّ ما كان ما بيننا
من الحلف والإسلام واجتنب الجهلا

وان غبتُ عنه ساعة ظل يفترى
على ، فلا أدرى أأشتمه أم لا ؟
أم اعرض عن عوراته فهو جاهل
فيكفر إحسانى ، ويحسبه ذلا

(١) توفي نحو سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م كما في (الإعلام) للزركلي ، ولأستاذنا الشيخ حمد الحاسر

كتاب عنه .

(٢) جيلة والفرع : موضعان قرب المدينة .

(٣) حيرة : وردت بالحاء وأظنها بالميم .

أم أشتم جبرائي فأصبح مثله
 أعوذ بربي ، أن أكون له مثلاً
 وإني لأستحي من القوم أن أرى
 جباناً جهولاً لا حياء ولا نکلاً
 وأن يعلم الأقسام أني كالسدى
 يكون على معرفه أبداً قفلاً
 فما زلت تغشاننا بشيائك ظالمنا
 ونصفح حتى مساتظن لنا عقلاً
 وتندرننا آل الزبير كأننا
 طلبنا بجرم أو حملنا لهم ذحلاً
 وتفتح الأنساب من دون خندف
 كأنك تُعطى دونهم باليد السفلى
 كأنك لم تعلم أباً لك دونه
 بلى ، قد علمنا إن في خندف فضلاً
 وإن قریشا خير من وطىء الحصى
 وأنعمه فرعاً وأكرمته أصلاً
 فإن كنتم إخوانه فسا بن عمه
 حبيب قريب الدار مستوجب وصلاً
 كريم فلم يبسط يداً بعداوة
 إليهم ولم يبعث بها لهم رجلاً
 فلا تطرحنا إن سقوك على الظما
 مع الناس يوماً من سجالهم سجلاً
 فما هي الانقمصة تبتهلى بهما
 كما كنت بالأولى التي قبلها تبلى

فليت لنا عدلاً فيحكم بيننا
 وأهون مما بيننا نبتغى عدلاً
 له ريدى من قُرى قطرية
 شديد جديد مُنذبح محكم فتلاً
 فينظر أسوانا إذا كان عائياً
 لصاحبه عيباً ، وأقبحه فعلاً
 وأشبها وجهها إذا كان بيننا
 بوجه الظلوم ثم يوجعه غسلاً
 ويشهدنا آل الزبير وهـاشم
 وآل أبي بكر مجالس لا تقلى
 ويجلس ذلفاء المايحة عندنا
 وجملاً فإن الله ملح لى جملاً
 هجانان قال الله كونا فكانت
 كما قال لا تدرون أيهما أحلى
 وذلفاء من غير التماس لعينها
 بغور فلم تسكن دماثاً ولا سهلاً
 وليست كأخرى بالبياض فأعطيت
 بياضاً ولحماً ما يرا وشوى خدلاً
 ملا العين ، ربا الحجل يلعب سمطها
 كأن بعينها ولم تكتحل كحلاً
 فلا يرفع الجلال عنه سياطه
 بمحضهم حتى يقولوا له : بسلاً
 وحتى يرى آل الزبير وهـاشم
 وآل أبي بكر عقوبته مثلاً
 ويقدر للمظلوم أن يجمعاً له
 ويجلس أسواطاً أشدهما بخلاً

٢ - فأجابه عبد الله بن أبي صبح المزني :

ألا حبيبا الذلفا ألا حبيبا جملا

وقولا : تغنى حسام بكما جهلا

لكيما تظنا أنه اليوم فارغ

وأقسم إني قد ملأته بي شغلا

وفضلكم يا جميل وكيا لعنى

أروح مغیظا قد حملت لكم ذحلا

وأنت من أن تشفى بنا كحامة

بمكة ، يغدو سربها حرما سهلا

سقى الله ذلفاء الربيع وترها

وجملا فاسقى الله من صيف سحلا

سقى الله كل منجاة الحلة والنوى

أناة . . ضا تملأ القلب والحجلا

إذا برزت بين القطين وأبرزت

جميل الحيا لا كثيبا ولا جبلا

رأيت إلهي البيض ميلا كأنما

أمرن بأن يرعينها الحدق النجلا

... مهلا فإنك قلت لي مهلا

وإن قلت قولا فانتبل نبلا جزلا

إليك فإني غافر لك ما مضى

من اللغو الا أن تحملنا ثقلا

وتلقى علينا جانبيك كليهما

وتسرع في أعراضنا الجدد والهزلا

وتعرض دون الجانبين فلا أرى

لمثلك ألا أن أعرضه نكلا

فإن كنت قد أبصرت من بعد عشوة

فأهلا بما أحدثت من سلمنا أهلا

فلست ولا أطنى بأول عاش

عشا ، فجعلت القافيات له كحلا

وما أن أحب الشر ما لم تجره

على جناتي أو أكون له نعللا

بل أصفح اجمالا وأدرا سبه

بأحسن ما يدرى وأدمله دملا

وأدفعه حتى إذا حل ساحتي

صليت بأذكي جمرة كل من يصلي

أبي الضيم لي قلب ذكي وصارم

وأنف حمى قد أبي الذل والخذلا

وأبناء صدق ما جلدون وأسرة

مصاليك كانوا لا بطاء ولا نكلا

وعقدي بحبلى مصعب وابن مصعب

وحبل أبي بكر برغم العدى حبلا

كأنك نشنا أن فخرت بخندف

كأنك لا ترضى طريقتك المشلى^{١٢٧}

كأنك لم تعلم أبيا لك مثله

ولا وأبيكم لا تكونوا له مثلا

فإن تلك قد أصبحت ثوبان آمنا

مثلا وغرتك الأكبولة والرسلا

المصدر : التعليقات والنوادر ٢٥٤/٢

وما بعدها .

ويلاحظ أن في هاتين القصيدتين ألفاظا غير مفهومة ، وبعضها ترك محله محقق الكتاب بياضا ، ويبدو أن المخطوطة كانت عسرة الخط .

الميم

١ قال يمدح هاشم بن يحيى بن هاشم بن حمزة :

فمن سألني عن هاشم : كيف هاشم ؟
فلنسا وجدنا هاشما خير هاشم
وجدنا في أفصت إليه جوده

بني المعالي ، واكتساب المكارم

المصدر : جمهرة نسب قريش ١/٦٧ و ٦٨ .
وحمزة : هو حمزة بن عبد الله بن الزبير .

٢ -- وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب ، وما تمتع الناس به من أمن على عهد ولايته للمدينة المنورة :

أمسى الحجاز أمنت أصرامه (١)
وصبح نجد وبسرى سقامه
رفعته وقد همت أخصامه (٢)
بالعدل حتى سكنت عرامه

فلا تأمن الأولى التي قد تعرقت

فقارك حتى عدت ذا شيبة كهلا

ألا يا لقوم من ترى مثل حاتم
يجور ويبغى بيننا حكما عدلا

ويدعونا أن يرسل الله جالدا
على شرننا رأيسا ، وأقبحه فعلا

وأشبهنا وجهها إذا قيس بيننا
بوجه الظلوم ، ثم توجعه غسلا

ويشبهنا آل الزبير وهاشم
وآل أبي بكر مجالس لا تقالا

فقلت له : آمين آمين إنمسا
دعوت على الأردى فبسلنا له بسلا

فإن شهدت آل الزبير وهاشم
وآل أبي بكر فقد علموا الغلا

وكل قريش يعلمون أمورنا
وحيث يظنون الدواغل والدغلا

تمشيت للذلفاء نجلا لعلها
تعاقب ، والذلفاء خالية تخللا

وسمحت جملا وهي ظني بخيلة
ولكن بما قد تنطق الكلم الخطلا

(١) الأصرام : للفرقة من الناس ينزلون ناحية من الماء .

(٢) الأخصام : هي زوايا المزاردة وجوانها .

نُمت جادت بالندى رهامه^(١)

فهو كغيث مسيل غمامه

أرزامه^(٢) بالسوبل وانهمزاه

ما قال فيه بصّر يشامه

عادل أبي بكر ولا إسلامه

ولا الحوارى ولا إقدامه

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ / ١٦٥

٣- وقال يمدح مصعب بن عبد الله

ابن مصعب :

ان الحوارى والصدیق وابنهما

دعائم الدين إذ شدت له الدعائم

وثابتا ذا الندى والمصعبين معا

وذا اليمینین ، عبد الله بعدهم

شدوا عرى مصعب فى كل مكرمة

وعلموه من الخيرات ما علموا

فهو الكريم ملاقة ومختبرا

وابن الكرام إذا ما حصل الكرم

رحب الفناء ، رخی الباع ، محتمل

للمضامع إذا اشتدت بنا الأزم

لا تنكر العوذ منه أن يضربها

ولا العشار إذا أضيافه قدموا

ولا يبالي وإن كانت مماتحة

أن نخضب السيف من أنسائهن دم

ياذا الندى ، والندى حج الحجيج له

هل بعد هذا على ذى محنة قسم

لئن نشرت ثناء لاخفاء بسه

لقد بسطت عطايها ما لها قيم

ذقنا الثناء فلم تسأل الجزاء به

وقد جهلنا وما فى نصحننا ونختم

لن ينقذ القول ما أسديت من حسن

يا ابن الحوارى حتى تنفذ الكلام

ولا نزال بخير ما بقيت لنا

تسمت علينا بسلك الآلاء والنعيم

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ / ٢١٣

و ٢١٤ ، وهى فى تاريخ دمشق ، المجلد

١٦ / ٢٥٢ المخطوطة .

(١) للرهام : المطرة للصغيرة للدائمة .

(٢) الإرزام : صوت الرعد يصحب الغيث والانهزام : تشقق للسحاب بالماء مع صوت وفال إذا تفرس

فأخطأ ولم يصب .

النون

قال ابن أبي خيثمة : قال دعبيل : حضر
محمد بن عبد الملك الفقعسي دارا فيها وليمة ،
وحضرها ابن أبي صبيح الأعرابي ، وكان
بدويا نزل بغداد ومات بها ، وكان شاعرا
مجيدا ، فازدحما على باب الدار ، فغلب ابن
أبي صبيح ودخل قبل محمد ، فقال ابن أبي
صبح :

ألا ياليت أنسك أم عمرو
شهدت مقساوي كي تعذريني

ودفعني منكب الأسدى عنى
على عجل ، بناحية زبون
بمنزلة كأن الأسد فيها
رمتني بالحسواب والعيسون
وكنت إذا سمعت بحى خصم
منعت الخصم أن يتقدمونى
المصدر : كتاب الورقة لابن الجراح ١٤ ،
والفهرست ٥٥ .

عبد العزيز الرفاعي
عضو المجمع المراسل من السعودية



أفكار وقضايا حول مجمع محمد بالفاظ الحضارة فى الوطن العربى للدكتور عبد الكريم خليفة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

دأب مجمعنا بالقاهرة
على اختيار قضية أساسية

فقه

من قضايا العربية فى العصر الحديث ،
يجعلها فى كل عام الموضوع الرئيسى
للبحوث فى مؤتمره السنوى . وبذلك
سن سنة حميدة إذ يطرح للبحث
والدراسة أمام المجمعين وعلماء العربية ،
جوانب مهمة من قضايا العربية فى العصر
الحديث . وهى قضايا تمس جوهر وجود
أمتنا ووحدةها وارتقاءها فى سلم العلم والحضارة ،
والانتقال من حالة التبعية الفكرية إلى حالة
المشاركة الأصيلة المبدعة فى العلوم والتقنيات
الحديثة . وقد جاء موضوع البحث فى
« ألفاظ الحضارة فى الوطن العربى » ليكمل
الصورة الكلية لخدمة العربية والعناية بها فى
جوانبها المتعددة من حيث التعريب وجعل

العربية لغة التدريس والبحث فى الجامعات
والمؤسسات العلمية ، وكذلك من حيث
الارتقاء بلغة وسائل الاتصالات الجماهيرية
فى الصحف والمجلات ودور الإذاعة
المسموعة والمرئية ، وكذلك الموضوعات
التي تثار حول الصراع بين العاميات باتجاهاتها
الأقليمية الضيقة وقدراتها الفكرية القاصرة ،
وبين اللغة الفصيحة ، بقدراتها الفكرية
المبدعة وباتجاهاتها الموحدة .

وأن النظرة الشاملة للقضايا التي تواجهها
العربية فى العصر الحديث فى مختلف أقطار
العروبة لتؤكد وجود قضية أساسية تتمثل
بالفاظ الحضارة . وهذه القضية المهمة ،
ولأن بلادنا منفصلة إلى حد ما عن اللغة
الأدبية واللغة العلمية ، فأنها متصلة بها أشد
الاتصال ، لأنها لغة الحياة العملية والتعامل
اليومى .

(*) ألقى فى الجلسة الخامسة يوم الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤١٩ هـ الموافق ٢ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

ومن البدهى أن ننبه إلى أن الحديث عن ألفاظ الحضارة سواء أكانت الدارجة منها أم المقترحة ، لايعنى بالضرورة الحديث عن اللغة العامية أو اللهجات العامية . فالحديث عن العامية حديث عن هذه اللهجة من حيث نحوها وصرفها وأساليب التعبير بها ، في حين أن الحديث عن ألفاظ الحضارة الدارجة أو المقترحة ، هو حديث عن مفردات من حيث جرسها وإيجاءاتها ودلالاتها وأصولها وقد تجد هذه المفردات طريقها إلى اللغة الأدبية كما تجد طريقها إلى اللغة العلمية . وتجد طريقها إلى اللغة الفصيحة كما تجد طريقها إلى اللغة العامية . وبما أن الألفاظ الحضارية متصلة أشد الاتصال بالحياة اليومية للناس في ظروفهم الحياتية ومعاملاتهم المعاشية فإنها تخالط العامية وتمازجها تمازجا كلياً يصعب التفريق بينهما . وربما أن مبادرة الجمهور بإحساسه اللغوى وعفويته في إطلاق هذه اللفظة أو تلك على ذلك المدلول ، يصلح أساساً لتفسير هذه الظاهرة في إغناء اللغة المحكية من حيث الألفاظ الحضارية .

ونحن عندما نتحدث عن « ألفاظ الحضارة » ، فنعنى بها جميع الألفاظ التى يستعملها الإنسان العربى فى حياته المعاشية ، من مأكل ومشرب وثياب ومايتعلق بها ، ومن منزل وأدوات منزلية وأسماء الأماكن ومايتعلق بها ، ومن المكاتب وأدواتها والمركبات ومايتعلق بها . وكذلك مما يتعلق ،

بالحرف وأنواع المهن والصناعات وأدواتها والمواد المستخدمة فيها ، فضلاً عن التربية الرياضية وغيرها من الألفاظ والمصطلحات التى تدخل لغة وسائل الاتصال الجماهيرية واليومية . . ولاشك أن هذه الألفاظ الحضارية ، من حيث اتصالها بالحياة والاستعمال اليومي ، قد تتسع فى دوائرها حتى تتصل بمصطلحات الفنون الجميلة على مختلف أنواعها ومذاهبها .

وربما كان من المفيد أن نحدد أن الفاظ الحضارة التى تعيننا فى هذا البحث ، هى الألفاظ التى تعبر عن ظروف الحياة ومستلزماتها المعاشية لجماهير أمتنا العربية فى أقاليمها المختلفة . ومن هنا تنشأ الخصوصية التى تتميز بمعجم ألفاظ الحضارة بالعربية عن غيره من المعاجم المتخصصة .

فقد أدى تعثر الحياة العلمية وجهودها فى أقطار العروبة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، ولاسيما فى حقول العلوم الحديثة من تطبيقية وبحثة إلى توقف العربية عن استيعاب المصطلحات العلمية . وعندما بدأت النهضة العلمية الحديثة ولاسيما منذ أوائل القرن العشرين ، واجهت مؤسساتنا اللغوية والعلمية فراغاً يكاد أن يكون تاماً فيما يتعلق بمصطلحات العلوم والفنون الحديثة باللغة العربية . وما أن بدأت بذور هذه النهضة العلمية فى الوطن العربى حتى نشب الصراع بين أنصار العامية من جهة .

وانصار العربية الفصيحة من جهة أخرى .
وكان يسائر هذا التيار ، ويجسد أهدافه
العدائية صراع آخر مازال محتدما ، مع
الأسف حتى يومنا هذا ، بين أنصار جعل
العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي
في جميع حقول المعرفة الانسانية ، وبين
القلة المتنفذة التي مازالت تتشبث في أبعاد
العربية عن أن تكون لغة الفكر العلمي
العربي في مؤسساته العلمية وجامعاته الوطنية .

وإذا تجاوزنا هذه المرحلة من تاريخنا
العلمي واللغوي ، إلى مرحلة سيادة العربية
في أوطانها ومؤسساتها العلمية والجامعية
وهي بالغتها قريبا إن شاء الله — وجدنا
أنفسنا أمام قضية جوهرية واحدة ، وهي
توحيد المصطلحات العلمية والحرص على
أن تكون هنالك لغة علمية واحدة بالعربية .

فإذا كان هذا هو الحال ، فيما يتعلق
بالمعجمات العلمية العربية المتخصصة فإن الحال
مختلف فيما يتعلق بمعجم «ألفاظ الحضارة» .
فألفاظ الحضارة مستمرة في حياة أمتنا في
أقاليمها المختلفة ، عبر القرون باستمرار
الحياة ذاتها والحاجة إلى التعبير عن لوازمها .
فنحن أمام سبل متصل من ألفاظ الحضارة
في مجتمعنا العربي في أقاليمه ومناطقه
المختلفة ، وفي مدنه وأريافه وبواديه . . .
ولا شك أن ألفاظ الحضارة هذه هي نتائج
ظروف الأمة الاجتماعية والاقتصادية
والسياسية والثقافية . فنحن في هذا المجال

لأنواجه قضية الفراغ الذي واجهناه ونواجهه
عند وضع المصطلحات العلمية ، وإنما
نواجه قضية من نوع آخر . ولعل دراسة
هذه القضية تؤدي بنا إلى تحديد معالمها ،
من حيث أصول بعض هذه الألفاظ
الحضارية ومنابعها الأولى سواء أكانت
عربية صليبية أم عربية ، وكذلك من حيث
الشيوع وملائمة رونق العربية وأساليبها .
ومن حيث الذوق والخفة على السمع واللسان .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإن معجم
ألفاظ الحضارة ، باللغة العربية يواجه أيضا
فراغا في بعض جوانب الحياة الحضارية
الحديثة . ومن هنا فهو معجم دائم النمو
ومن الواجب أن يتابع المتطلبات الحياتية
للأفراد والجماعات .

وقد أشار مجمعنا العتيد بالقاهرة إلى عظم
هذه المشكلة وأهميتها ، وطرحها للبحث
منذ وقت مبكر في أواسط هذا القرن .
فقال الأستاذ الرئيس الدكتور إبراهيم
مذكور في تصديره لمحاضر الدورة الثانية
عشرة لعام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ، وكان إذ
ذاك أميننا عاما للمجمع : «ألفاظ الحضارة
ضرب آخر من المصطلحات اللغوية ،
وقد تكون معالجتها أعسر من معالجة
المصطلح العلمي ، والإجماع عليها ليس بالأمر
الهيّن ، ولا بد أن نستعين عليها بشتى
الوسائل » .

أما أن معالجتها أعسر من معالجة المصطلح العلمي وأن الإجماع عليها ليس بالأمر الهين ، فهذا لاشك فيه ، ولكننا نتساءل كيف أن أمة قد وحدث لغتها الأدبية وتحاول توحيد لغتها العلمية ، بتوحيد مصطلحاتها ، مازالت تغض النظر عن معالجة موضوع ألفاظ الحضارة وضعاً وتوحيداً على الرغم من الوسائل العلمية والتقنية التي تيسرها وسائل العلم والتقنيات الحديثة . . . أليس من الواجب أن يكون هنالك معجم شامل باللغة العربية يستوعب جميع ألفاظ الحضارة يصلح أن يكون أساساً للغة حضارية واحدة بين جماهير الأمة العربية في مختلف أقطارها .

ولكى نستوعب عظم هذه المشكلة ومدى أهميتها ، جسعت عدداً من الألفاظ الحضارية في مدينة ما من المدن الأردنية . ودون استقصاء أو محاولة إقامة دراسة جادة . فقد اكتفيت بنماذج عشوائية تشمل أسماء الأدوات المنزلية وأثاث المنازل والمكاتب والملابس وأدوات بعض المهن وأسماء المأكولات وغير ذلك من التعابير الحضارية .

حقاً ، لقد هالني الأمر . فهناك الاختلاف بين الألفاظ الحضارية بين مدينة وأخرى وبين منطقة وأخرى . وهذا الاختلاف قد يضيق ويتسع وفق ظروف مينة أو تباعد المسافات . وهناك الاختلاف الملحوظ بين كثير من الألفاظ الحضارية بين جيل وآخر . أما الألفاظ الحضارية الوافدة من

البلاد الأجنبية ولا سيما من الغرب ، فقد وجدت طريقها بصورة عمياء إلى الجماهير المستهلكة وإلى وسائل الاتصالات الجماهيرية ، من صحف ونشرات وإعلام رسمي وشعبي . . . وتعدى ذلك إلى طغيان حضاري حيث يتمثل بإشاعة الأسماء الأجنبية وإطلاقها على المحلات العامة من تجارية وصناعية . . . ويبلغ هذا الطغيان مداه عندما نرى هذه الأسماء الأجنبية تكتب أيضاً بحروف عربية . فقد رأيت في إحدى القرى الأردنية النائية ، حانوتاً كان أشبه بمدخل ضيق . . . وأن محتوياته من البضاعة المعروضة للبيع ليست بأحسن حال من مبناه ، وينحيل إلى أن صاحبه يستطيع القراءة والكتابة بصعوبة . . . ومع ذلك فإن المحل يحمل اسم «سوبر ماركت» ! ! ! أما في شوارع العاصمة والمدن المهمة . . . فحدث عن ذلك ولا حرج .

ونحن إذا تجاوزنا حدود قطرنا إلى الأقطار العربية المجاورة والبعيدة ، فإن الأمر يصبح مذهلاً وخطيراً . فالاختلاف في ألفاظ الحضارة ، يجعلنا ، مع الأسف ، نقف أمام حاجز خطير يمنع تفاهم جماهير أمتنا بعالمها وفلاحها ، بعضهم مع بعض . . . وإذا كان المثقفون يجدون في اللغة الفصيحة المكتوبة أو في اللغة المحكية القريبة منها ، وسيلة للتفاهم ، فإنهم أيضاً يصطدمون بعسر التفاهم ، إذا تناولوا ألفاظ الحضارة بالاستعمال . . . والأمثلة على ذلك كثيرة ،

سواء أكان منها تراثيا شائع الاستعمال في أقطارنا العربية منذ أزمان قديمة أم كان منها دخيلا حديثا حملته الحضارة الحديثة إلى شعوبنا صانعة أو مستهلكة .

فهناك مثلا القمح والحنطة والبر والغلّة وجميعها ألفاظ قرائية ، وغالبا ماتستعمل مترادفات في كل قطر .

ولنأخذ مثلا كلمة « البطيخ » وكم تعدد الاختلافات في مدلولاتها في مختلف الأقطار . وقد يضطر الباحث مع الأسف أن يضع مقابلها اللفظة الأجنبية كي يحدد مدلولها . فهناك « بطيخ أصفر » في الشام ، وشام في الأردن وفلسطين ، وشام وقاوون في مصر هذا مع العلم أن كلمة « قاوون » تركية وهكذا تعدد الألفاظ لمسمى واحد . فهو : بطيخ أخضر وبطيخ أحمر وبطيخ شامى وبطيخ هندي ، ودلاع وخربز وَحَبَّ شَحَب ، وَجَبَّس وَرَقَّ . حيث تسود كل لفظة في قطر من الأقطار أو في منطقة دون أخرى .

وقل مثل ذلك في كثير من أسماء الفواكه والأطعمة والمأكولات والأدوات المنزلية وغيرها من ألفاظ الحضارة . فالوعاء مثلا الذى يوضع فيه أعقاب السجائر يسمى : متكة ومكته ومنفظه وطقة وطوقة وسندرية... الخ .

وفي أدوات الكتابة ذاتها ومستلزمات المكتب ، اختلاف كبير في الألفاظ الدالة عليها . أما الأدوات الحديثة التى دخلت في الحرف والمهن والصناعات ، فقد دخل معظمها بألفاظها الأعجمية ، بعد أن أصابها التحريف العفوى ، أو المبادرة المحلية بعيدا عن كل قاعدة أو قانون ينظمها .

ومنذ مطلع هذا القرن جرت محاولات ودراسات ، كانت غايتها أغناء اللغة العربية بما يجد من ألفاظ الحضارة الحديثة . وكثيرا ما كان الأمر يغيم فتتداخل مصطلحات العلوم الحديثة بألفاظ الحضارة الحديثة ، دون أن يفرد أيضا موضع خاص بمصطلحات الفنون الحديثة مثل : التصوير والنحت والمرسومات والخزف والسينما والموسيقى . . . الخ .

وكان لمجمعنا بدمشق ومجمعنا بالقاهرة فضل الريادة في إثارة هذا الموضوع الخطير . وقام مجمعنا بالقاهرة ، منذ أوائل الأربعينات بالبحث في الوسائل التى يمكن استخدامها من أجل تزويد اللغة العربية بمصطلحات الحديد في ميادين الحضارة الحديثة . . . ولأن المناقشات والآراء المختلفة التى طرحت في ذلك الوقت ، وحفظتها محاضر جلسات المجمع ، تكون مصدرا مهما من أجل وضع الأسس العلمية التى يمكن أن تصلح منطلقا منهجيا لمجمعنا اللغوية من خلال اتحاد المجامع ، لوضع « معجم موحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربى » .

وما زالت مقولة المرحوم العالم المحمدي
الأستاذ محمود تيمور ، تكون أساسا صالحا
تقوم عليه فلسفة هذا المعجم الحضاري ،
وتعطيه هويته العربية الجامعة ، حيث يقول -
رحمه الله - : « إن السعي إلى وضع مقابل
صحيح لألفاظ الحضارة أو الحياة العامة
ليس مقصودا به فرض ذلك على أفواه العامة
في البيوت والأسواق ، ولكن المقصود
به أسعاف الأقلام الكاتبة بما يسد حاجة
التعبير من ألفاظ فصاح لمسميات حضارية
شاملة ، وإشاعتها في الصحف السيارة
والكتب المتداولة ، ولذا عنتها في مجالات
الأذاعة الفصيحة على اختلاف منابرها
وهي صاتها في حياتنا التعليمية والاجتماعية
في أرحب نطاق » (١) .

ونحن الآن لا يدور في خلدنا أننا نهدف
إلى التغيير القسري لما يستعمله عامة الناس
في كل قطر من الأقطار العربية ، ولكن
من الواجب ، كما أشرنا سابقا ، أن يكون
هناك معجم شامل باللغة العربية يستوعب
جميع ألفاظ الحضارة ومستلزمات الحياة
الحديثة ، يمكن أن يكون مرجعا ليكتتاب
العربية وأدبائها في العصر الحديث في مختلف
الفنون الأدبية ، من قصة ورواية ومسرحية
وغيرها ، وفي جميع وسائل الاتصال الموجهة
إلى جماهير الأمة العربية . . . ولا شك

أن هذا الوضع سيؤدي إلى اشاعة هذه
الألفاظ ، وأحيائها بالاستعمال . . .
وبالتالي ستحل الألفاظ الحضارية الموحدة
محل تلك الألفاظ المحلية ، بصورة طبيعية
ودون عنت أو قسر ، وإن لغة الثقافة كفيلا
بنشرها . . . وهناك أمثلة كثيرة يمكن
الاستشهاد بها من حياتنا العملية . فنحن
نعلم مثلا أن هنالك كثيرا من الألفاظ المغرقة
بعاميتها ، محليا أو قطريا ، قد اختفت من
الاستعمال العام ، وحلت محلها ألفاظ فصيحة
أو أقرب إلى الفصيحة ، مما يخف وقعها على
الأسماع ويسهل دورانه على الألسنة . .
فلو أخذنا مثلا لفظة « سيارة » ، هذه اللفظة
الترائية الحميلة قد باتت تسير على جميع
الألسنة ، دالة على هذه الآلة الحضارية
الحديثة ، في حين أننا لو رجعنا إلى نصف
قرن أو يزيد ، لوجدنا ألفاظا كثيرة مختلفة
للتعبير عنها في كل قطر من الأقطار العربية
فهناك « الأوتوبيس » و « الأوطمبيل »
« الطنمبيل » و « الكاره » و « الحنتور » . .
الخ ، من الألفاظ الأعجمية والعامية الخلفة
... وقد حل محلها جميعا في الاستعمال
الثقافي وبين عامة الناس أيضا لفظة « السيارة » .
وقد نقلت من معنى تراثي معروف في اللغة
الفصيحة إلى معنى اصطلاحى يدل على هذه
الآلة المحددة . . . ولا أظن أن الذهن

(١) معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون ، تصدير الأستاذ بدر الدين أبو غازي ،
للقاهرة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ / ص ٢٠٠ .

يتجه إلى أى معنى آخر لهذه اللفظة في الوقت الحاضر بين عامة الناس والمثقفين ..

وقد قام مجمعنا القاهري ، بتأصيل هذا الاتجاه ، بنشر ما وضعته لجنة ألفاظ الحضارة وخبرائها ، وأطلق عليه تفاؤلاً اسم « معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون » .

وجاء تصدير الزميل الأستاذ بدر الدين أبو غازی . رحمه الله - على إيجازه شاملاً وعميقاً لموضوع « الألفاظ الحضارية » .

وهناك محاولات أخرى في هذا المجال كان لمجمعنا بدمشق مشاركة مهمة فيها . . . ومنذ حوالى عقدين من الزمن نشر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في مجلة اللسان العربي التي تصدر عن مكتب تنسيق التعريب في الرباط سلسلة من معاجم المهن مثل « الخبازة والنجارة ، والحدادة . . . الخ .

وقد قامت مؤسسة « دار لسان العرب ، ببيروت » بنشر مجلد خاص الحقته بمجلدات معجم لسان العرب ، تحت عنوان (معجم المصطلحات العلمية والفنية » (عربي-فرنسي انجلیزی - لاتینی) ، قام باعداده وتصنيفه الأستاذ يوسف خياط . وقد سار على نهج ابن منظور في محاولته جمع وتصنيف المصطلحات العلمية والفنية الواردة في عدد من المصادر الجمعية والجامعية عند

بعض المؤلفين . وقد تداخلت فيه بعض الألفاظ الحضارية مع المصطلحات العلمية . وليس من شأننا في هذه الكلمة أن نعرض لموضوع المصطلحات العلمية ، التي كان فيها لمجمعنا اللغوية ومؤتمرات التعريب جهود مشكورة خيرة .

أيها السادة العلماء ، فهذه كلمة عامة وعرض سريع ، لقضية مهمة من قضايا العربية التي نواجهها في أواخر القرن العشرين وإن مجمعنا اللغوية ومؤسساتنا العلمية : لمدعوة ، بحكم واجبها أن تتصدى لجميع هذه المشكلات والقضايا التي مازالت تقف عائقاً بين لغتنا العريقة في تاريخها العلمي والحضاري والفكري ، وبين استيعابها جميع معارف الحضارة الإنسانية الحديثة . وإن موضوع « معجم موحد لألفاظ الحضارة » ليندرج في هذا السياق ، من أجل وحدة الأمة ، وفسح المجال للرحب أمامها من أجل بناء نهضتها العلمية والأدبية والفكرية والمشاركة الأصيلة في بناء الحضارة الحديثة.

ونحن نعتقد أنه قد آن الأوان ، كي تقوم مجمعنا اللغوية العربية ، ومن خلال اتحاد الجامعات بالعمل على إنشاء مؤسسة خاصة بالمعاجم العربية ، حيث تستغل إمكانات الأمة العلمية والمادية من أجل وضع المعاجم

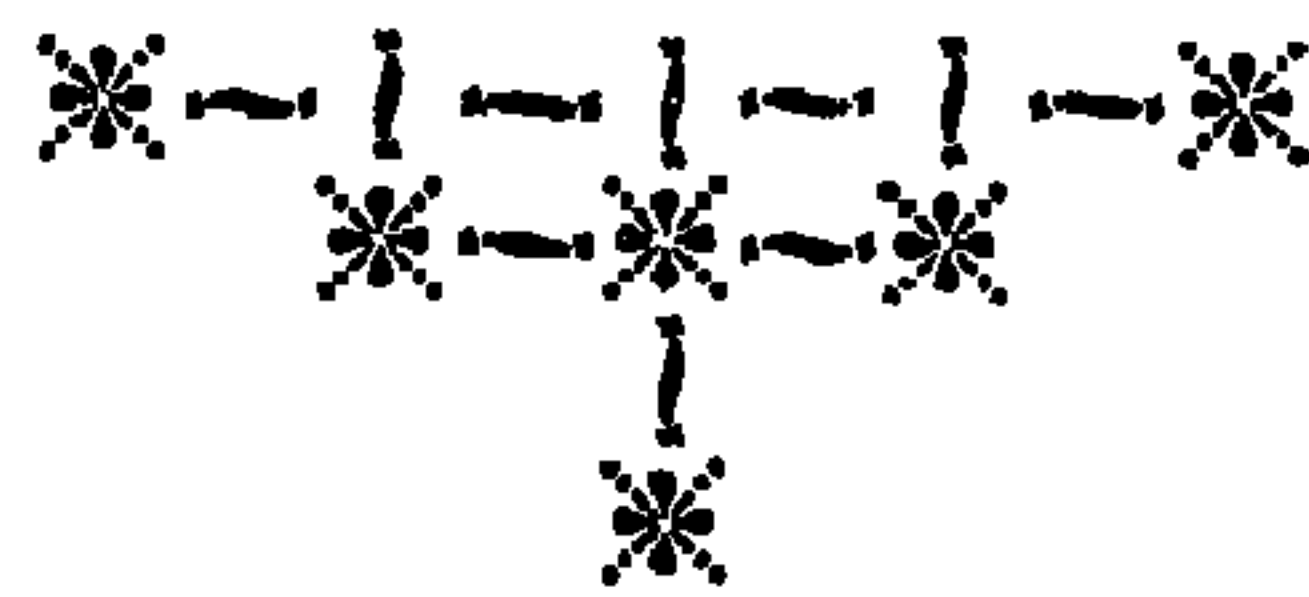
المتخصصة في مختلف العلوم والفنون والمعجم الحضاري ووضع المعجم التاريخي للغة العربية ، الأمل الكبير الذي طالما تطلعت إليه أمتنا في مختلف مؤسساتها العلمية. أما ما يخص المعجم الموحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي « فنحن نعتقد أنه من الضروري أن توضع خطة علمية شاملة على مستوى الوطن العربي . . . فنجمع جمع استقصاء جميع ألفاظ الحضارة التي تستخدم في جميع الأقطار العربية ، سواء منها ما كان من ألفاظ المؤسسات العلمية أو ما كان من ألفاظ السوق أو الأسماء التي يطلقها أصحاب الصناعة على آلاتهم وأدواتهم . . . الخ ، وان تضبط ضبطاً كاملاً وأن تشرح شرحاً واضحاً ، وقد يستعان بالرسم عند الحاجة .

ولابد من استخدام الحاسوب والتقنيات الحديثة في مثل هذه الأعمال اللغوية الجارية ،

فنخزن جميع هذه الألفاظ ، مع الضبط والشرح والجهة التي تشيع فيها . . . وأن يكون هذا كله أحد المصادر التي يستعان بها إلى جانب المعاجم القديمة والحديثة ، العربية منها والأجنبية . . . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الاجتهاد في الوضع والنقل والاشتقاق والنحت . . . وغير ذلك من أساليب العربية ، يجب أن تكون الفلسفة التي تنزع عنها هذه المؤسسة في إصدار المعجم الموحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ، ،

عبد الكريم خليفة
عضو المجمع من الأردن



ألفاظ الحضارة في التراث للدكتور حسين علي محفوظ



ولدت الحضارة في
هذه البلاد وإذا اتسعت

وامتدت وتعمقت وتنوعت وآتت
أكلها في هذه الرقعة من الأرض ؛
فقد وجدت في اللسان العربي المبين ما يعبر
عن مقاصدها وأغراضها وحاجاتها ، وما يفي
بمعطياتها وابتكارها وأفكارها من الألفاظ
والتراكيب والكلمات والمشتقات . وهذه
المزية هي إحدى خصائص هذا اللسان
القديم الكريم المعرق المدهش العجيب .

اشتغل العلماء العرب - في تاريخ الإسلام -
بالتأليف ، وصنفوا الكتب في مختلف
الموضوعات والعلوم . وأمتلأت الخزائن
العربية بالتأليف في أبواب المعارف والفنون .
ولو وصل إلينا كل ما ألف القدامى في العلم
تعذر احصاؤه والإحاطة به فضلا عن
تلخيصه ، والتماس مضامينه واستخراج
ألفاظه واصطلاحاته .

هذا - وقد كنت تتبع ما تيسر تحصيله
والاطلاع عليه من المصادر والأصول

وعرفت به ، واستخرجت ما يحتاج إليه
مما فيه من ألفاظ الحضارة وأسماء الآلات
والأدوات والأشياء والحاجات ومصطلحات
العلوم والمواضيع والتعريفات . وهو أمر
يشارك في بعض جوانبه كثير من المهتمين
باللغة والتراث الآن ومن قبل . والاهتمام
به قديم في اللغة والعلم .

وقد ألف العلماء واللغويون من الكتب
والمعاجم في الاصطلاحات والألفاظ والعلوم
ما لا ينفده تراحمنا عليه وازدحامنا على
الاستقاء منه .

لا أحتاج إلى التنبيه على ما في خزائن التراث^١
من طرائف الكتب في اللغة والعلم - وهي
كثيرة وما ضاع أضعاف ما بقي - ولا أحتاج
إلى توضيح ما في المعاجم المبيوبة ، وكتب
اللغة المرتبة على الموضوعات ، وجوامع^٢
المفردات الثنائية المصنفة على الأبواب أو

(•) ألقى في الجلسة الخامسة يوم الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

الحروف من غنى في ألفاظ الحضارة مما
ينفع في تدوين المعجم التاريخي وقواميس
العلوم والفنون والحضارة واللغة .

ولا أحتاج إلى إيراد الأمثلة ، وهي
تستغنى عن التعريف . وإنما أكتفى في هذه
الدراسة المقتضبة من مباحث ألفاظ الحضارة
في التراث باستخراج مصطلحات الصيدلة
وتعريفها من اقربا ذين القلانسي ، والتنبيه
على أهمية كتاب شرح كليات القانون لابن
النفيس ، والتعريف بكتاب بحر الجواهر
للإوسني الهروي الطبيب .

أما بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد
القلانسي السمرقندي فقد كان « مجيداً في
صناعة الطب » كما قال ابن أبي أصيبعة .
وكتابه (الاقرباذين) « قد أستوعب فيه
ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة .. »

وقد جعله مشتملاً على (٤٩) باباً
في التقاط الأدوية ، وادخارها ، وأحكام
الاحراق والغسل والحمود والمجاورة والممازجة ،

وتركيب الأدوية المفردة وكيفية استعمالها
في الأدوية المركبة ، وكيفية الأحراق
والقلي والشبي والغسل ، وعمل الأدهان

والأضمدة والقيروطي ، وطبخ السرطانات ،
واستخراج الأدهان وعسل البلاذر ولبن
الشبرم ودخان الكندر ، وتطرية العود ،

واصلاح الدبق ، وحفظ المرارات والشحوم
والأدمغة ، واتخاذ دم التيس وماء الجبن . .

وباب العشرون والباب الحادي والعشرون
هما مقصد هذا البحث . فقد اضطرنا على
عشرات الاصطلاحات والتعريفات .

فسر القلانسي في الباب العشرين أسماء
الأدوية المركبة باليونانية . وشرح في الباب
الحادي والعشرين أسماء الأدوية المركبة
بالعربية .

يحتوي الباب العشرون على (٤١) تعريفاً
لمجموعة من الألفاظ والتعابير ، ويحوي
الباب الحادي والعشرون على (٥٠)
تعريفاً كذلك . والتعريف يقرب المراد من
المصطلح ويفيد في تحديد ما يقابله من الألفاظ
الأجنبية .

قال في تفسير أسماء الأدوية المركبة
اليونانية :

الترياق - كل دواء قاوم السموم - .
ويسمى الترياق الأكبر ، وترياق الأفاعي ،
وترياق الفارق .

المثروذيطوس - ترياق عمله مثروذيطوس
الملك ، وسماه باسم نفسه ،

ترياق الأربعة - ترياق عمل من أخلط
أربعة

الاثاناسيا - معجون ينفع من أوجاع
الكبد وغيرها ، ومعناه المنقذ . . .

الدحمرثا - الحادورة ، كأنها تحذر
الرياح والطمث وتخطمها

يد الله - هو الدواء المتخذ بدم التيس ،
النافع في تفتيت حصاة المثانة . وإنما سمي
بهذا الاسم لحالته .

المعجون المسمى الجاويداني - أى المعمر .

الأطريفل - أى الثلاثة أخلاط وهى
الملييح والبليج والأبلح .

قرص الكوكب - الغالب على الامراض ،
الذى لا تغلبه الأمراض .

دواء الخطاطيف - المتخذ بالخطاطيف
المحرقة .

جوارشن الحكماء - جوارشن سليمان

المعجون المغيث - يسكن جميع الأوجاع
معجون ابى مسلم ألف فى عهدة فسمى
باسمه . وكان ذلك قبل عهد جاليينوس
(كذا ؟)

الأكسيرين - كل دواء مركب ، منبت
للحم فى القروح ، ملصق للجراحات .

القيروطى - الشموع المذابة ، المرفقة مع
الأدهان او مياه البقول والثمار - المركبة فى
الشمع والدهن .

الحشتجات - الحبوب المسهلة .

الكشتجات - كذلك . وقيل معناه
(المدقوق) هو الذى يدق ثم يستعمل .

الايارج - معناه الشريف .

- اسم للمسهل المصلح .

- الدواء الألهى .

المرهم - ما يعالج به القروح والجراحات
وهى الأدوية المليئة بالأدهان والمخاخ والشحوم
ونحوها .

وذكر - أيضا - من أسماء الأدوية المركبة
الكثير النجاح - والمفلح ، وهبة الله -
والخلص الأكبر .

ويلاحظ ان القلانسي اشتبه أحيانا فى
التأصيل ، وخلط فى نسبة الألفاظ إلى
الأصول فى بعض الأحيان .

ومن شروح أسماء الأدوية المركبة بالعربية

الفرزجة - ما يتحمل فى القبل ؟ وجمعه
فرازج

الشياف - ما يتحمل فى المقعدة .

- ويستعمل أيضا لدواء العين

البلوطة - التى يتحمل بها .

البندقة

الفتيلة -

شبار - إن كانت طويلة .

الحقن - مياه مطبوعة مع الأدوية ،

وما يجرى مجراها ، تصب فى المقعدة .

البنداق - جمع بندقة . وهى أكبر من

الحبوب ، فى هيئة البندقة .

الحب - ما حبيب على هيئة الحبات . أى
جعل على هيئتها مدورة ومطولة ، صغاراً
وكباراً . وجمعه حبوب .

المطبوخات - مياه الأدوية إذا طبخت
والغرض منها تليين الطبع واسهاله .

الأكحال - أدوية العين إذا كانت يابسة .

الأطلية - ما يطلى على العضو . والفرق بين
الضاد بين الطلاء إن الضاد أغلظ والطلاء
أرق . وهو يساعد اليد ويجرى معها .
والطى ولا يساعد اليد ، ولا يجرى معها .

الأضمدة - هى الأدوية التى تخلط وتبل
بالأدهان ، وتلين بالصمغ . وتوضع على
العضو .

الأشربة - مياه الفواكة وغيرها إذا
طبخت مع السكر والعسل حتى يكون لها
قوام مثل السكنجبين وشراب التفاح .

الربوب - مياه الفواكة وغيرها ، إذا
طبخت وحدها حتى تغلظ .

الأفشرات - هى الربوب
والأفشرج معرب معناه العصارة . ولا يكون
رباً حتى يطبخ ويغلظ .

الحلنجبين - الورد المربى .

السكنجبين - الشراب المركب من الخل
والعسل .

المية - شراب مركب من رب السفرجل
والخمر .

السرداروج - التقوية التى تلتقى فى الدواء
المطبوخ بعد التصفية لى . معرب من سردارو

الحوارش - هو الهاضوم .

المعجون - كل ما عجن من الأدوية .

والفرق بين المعجونات والحوارشات أن
المعجونات تكون مرة وحلوة ومنتهنة وطيبة
والحوارشات لا تكون للأعذبة الطعوم
طيبة الروائح .

الشموم - ما يشم من الرياحين والأدهان
وغیرها .

النشوع (أو النسوع فى أكثر النسخ)
بالعين غير المعجمة ما يصب فى الأنف
وكذلك النشوغ . بالغين المعجمة .

النشوق - ما ينشق بالأنف ليدخل فيه
بخاره أو رائحته .

الكبوب - ما يطبخ به الأدوية ، ويكب
على بخاره .

الغسول - ما يغسل به العضو أو البدن .

الصبوب - ما يصب على العضو صلباً
واسعاً .

النثور - ما ينثر على القروح والجراحات .

السكوب - ما يسكب على العضو من

ماء أو دهن ونحوهما قليلاً ، ويستعمل فى
الشيء الرقيق .

المنطول — ما ينطل على العضو أى يصب
ويستعمل فى الشئ الغليظ . ويشبه أن يكون
من المنطل وهو العددى .

— كل ما أعلى من الأدوية وصب على
العضو .
البخور — ما يلقي فى النار .
السنون — ما يدلك به الأسنان من الأدوية .

— ويطلق أيضاً على ماء مسخن يصب
على العضو ، من غير أن يطبخ فيه شئ من
الأدوية .

— ويطلق أيضاً على الصوفة المغموسة
فى الماء المطبوخ فيه الأدوية إذا وضعت على
العضو .

الكمد — كل شئ يسخن بالنار ،
مثل خرق أو نخالة أو نحوهما ، ويوضع
على العضو . كما يوضع على البطن الملح المسخن
المصرور فى القولنج المريحى .

البرود — دواء يتخذ لتبريد العين .

اللحوق — ما يلحق من الأدوية .

الدور — أدوية يابسة تذر فى العين أو فى
القروح والجراحات .

القرص — واحد الأقراص والقرصة ،
أدوية تدق وتحيا . مثل الأقراص صغارا
أو كباراً ويقال أيضاً قرصة للواحد .

القميةحة — ما يؤكل من الأدوية يابساً ،
ويكون مقداره لقمة .

السفوف — ما يستف كالسويق ونحوه .
ويقال قمحت الدواء ، وسففته ، واقتمحته
واستففته .

البخور — ما يلقي فى النار .

السنون — ما يدلك به الأسنان من الأدوية .

اللطوخ — ما ياطخ به العضو .

المسوح — ما يمسح به .

المروخ — ما يمرخ به .

المضوغ — ما يعضغ .

الغرور — ما يتغرغر به .

المضوض — ما يتمضمض به .

الوجور — ما يصب فى الفم .

اللدود — ما يصب فى أحد شتى الفم .

النفوخ — ما ينفخ فى الأنف أو اللهاة
والخلق من الأدوية اليابسة .

القطور — ما يقطر فى الأنف أو الأذن
أو الأحليل من دهن أو ماء أو كل سيال .

السعوط — ما يقطر فى الأنف .

العطوس — ما يعطس به .

المربيات — كل ما يربى فى السكر أو العسل
حتى يتحول فيكتسب كل واحد قوة من
صاحبه ولا يتحداه .

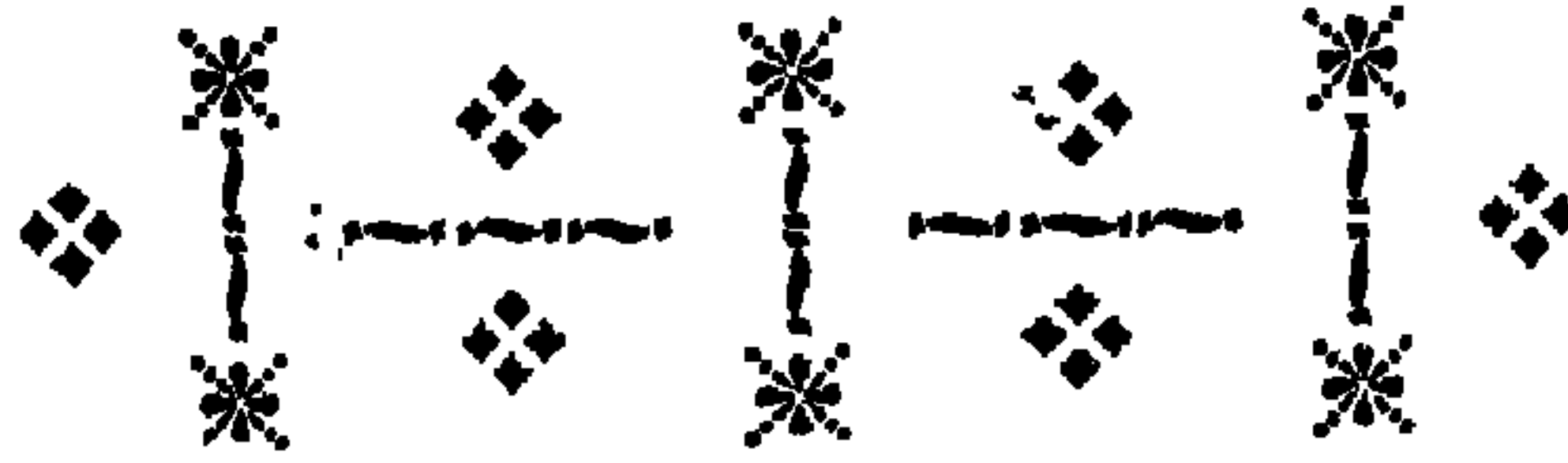
الابحاج -- هي المربيات واحدها ابيجه .
وهي معربة . وأصلها أو ميخته ومعناه الخلط
والمزج .

والحق أن في كتاب الأقرباذين للقلانسي
وشرح كليات القانون لابن النفيس ، وكتاب

بحر الجواهر لليوسفي من القاط الحصاره في
الصيدلة والطب خاصة ما نحتاج كل الاحتياج
إليه في التعبير والتعريب ، وما لا نستغنى عنه
في اختيار ما تمس الحاجة إلى معرفة مقابله
العربي من اللفظ الأجنبي .

حسين علي محفوظ

عضو المجمع المراسل من العراق



المصادر والمراجع

- ١ - اقربا ذين القلانسي .
- ٢ - بحر الجواهر - الطبيب الهروي :
- ٣ - شرح كليات القانون - ابن النفيس هـ
- ٤ - علم الصيدلة في التراث - د. حسين علي محفوظ .
- ٥ - نقول - د. حسين علي محفوظ .
- ٦ - دراسات وأبحاث ومقالات - د. حسين علي محفوظ .
- ٧ - مطالعاتي - د. حسين علي محفوظ .
- ٨ - قاموس التراث - د. حسين علي محفوظ .
- ٩ - الحدود - د. حسين علي محفوظ .



من قضايا السيرة النبوية (تصحيح لمفاهيم خاطئة) للككتور محمد الطيب النجار

مقدمة

كتب السنة الصحيحة ، وتجيء بعد ذلك المراجع الأساسية الأصيلة في التاريخ الإسلامي ويضاف إلى ذلك كله ما كتبه المؤرخون المحدثون ؛ كي يستنير الباحث بأرائهم الصائبة أو يضيف إليها ما يمكن أن يهتدى إليه من آراء جديدة . أو يفند ما جاء في بعضها من الآراء التي لا تستند إلى أساس سليم .

ومن المعروف أن المستشرقين الغربيين قد تناولوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تناولوه من الأبحاث في التاريخ الإسلامي ولكن روح التعصب والتحامل كانت تطفئ على معظم كتاباتهم ومن أبرز هؤلاء الذين ظهرت فيهم روح التعصب في كتاباتهم عن الرسول « ولیم موبر » و « كايتماني » . ومن المعروف - أيضاً - أن كتب السيرة كغيرها من سائر الكتب الإسلامية قد دست إليها في

سيرة النبي محمد
صلى الله عليه وسلم

كانت

هي الأساس الكامل لدعوته الكريمة التي أضاعت المشرق والمغرب وهلات العالم بالهدى والنور . ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاعة العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء . حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلاً بعد جيل . ثم سجلت على مختلف العصور في كتب يضيق بها الحصر والتعداد . وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

وواجب المؤرخ الذي يتصدى لكتابة السيرة النبوية أن يستضيء أول ما يستضيء بكتاب الله عز وجل ، ثم يلي ذلك في الأهمية

(*) ألقى في الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

عصور التدوين الأولى بعض المفتريات وكان أساسها هؤلاء الذين أسلموا ظاهراً ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . أو دخلوا في الإسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه .

لذا أصبح لزماً علينا أن نتبين مثل هذه الروايات الدخيلة وأن ننظر إليها بعين الفاحص المتأمل حتى يمكن أن نضيفها - بقدر ما نستطيع - من الشوائب والرواسب . أو نطرحها جانباً إن كانت خبيثة الجوهر فاسدة العنصر ومهما كانت خادعة المظهر ومهما لبست من ثياب براقة زاهية .

على أن ذلك كله في نطاق محدود ويجب أن يكون بعيداً عن المعجزات الثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه المعجزات كشق الصدر وانشقاق القمر . إلى غير ذلك من سائر المعجزات التي صحت نسبتها ورجحت روايتها

لا ينبغي أن تناقش في ضوء المنطق وعلى أساس من الأسباب والمسببات . وإلا لما كانت معجزات . أما المعجزات التي لم تصح نسبتها ولم ترجح روايتها فإن رسول الله في غنى عنها ولا ينبغي لنا أن نتمسك بها .

وإذا كانت قضايا السيرة هي الأحداث الكبرى التي مرت على الرسول أو مر هو بها فإن الحديث عنها يطول كثيراً ويكاد ينتظم حياة الرسول جميعها ، ومن أجل ذلك آثرنا أن نتحدث عن بعض الأحداث التي اختلفت فيها وجهات النظر . وتعرضت لأفهام خاطئة من بعض الكتاب المسلمين أو لمفتريات كاذبة من غير المسلمين ثم نحاول أن نبين وجه الحق فيها بقدر ما نستطيع ونسأل الله أن يسدد خطانا على الطريق ، وأن يجنبنا شر الزلل ويوفقنا لخسير العمل . وبالله التوفيق .

١ - « قل إنما أنا بشر مثلكم »

مثل قوله سبحانه في سورة الكهف : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي » ، ثم زادها تأكيداً في آية أخرى تشير إلى أن محمداً خلق من نفس الطينة التي خلق منها سائر البشر وذلك حيث يقول في سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

ولقد ذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور في هذه الآية الكريمة هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول إن محمداً مخلوق من نور جهلا منهم بما يفهم من الآية . إذ لاشك أن النور الذي جاء في الآية الكريمة هو النور المعنوي الذي يضيء للناس طريق الحق وليس النور الحسي الذي تراه العين والذي يضيء كما تضيء المصابيح وكما تضيء الكواكب ؛ فالواقع الذي تطمئن له النفوس وتنهض به الحجة أن محمد أنور لأنه أضواء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ولكنه مخلوق من التراب الذي خلق منه سائر البشر وليس يضيئه في قليل أو كثير أن يكون

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الدنيا كحياة المشكاة النيرة يتألق ضوءها ذات اليمين وذات الشمال وفي كل مجال ويهدي الله بها من يشاء من عباده . فلما قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضع جسده الطاهر في باطن الأرض رجع الناس بسيرته نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشاداً ما دامت السماوات والأرض وما بقي الوجود كله .

وإنه لحق علينا - نحن المسلمين - أن ننتفع بهذا النور المبين وأن نحسن استغلاله بدل أن تعشى به أبصارنا فيلتوى علينا القصد ويضيع منا الطريق . بيد أن بعض المسلمين قد عشت أبصارهم بهذا النور إذ فتنوا بحبهم للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - فضلوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعة . ذلك بأنهم قد بالغوا في تقديس النبي مبالغة أنستهم أنه بشر وأنه خلق من طين كما خلق سائر البشر فقالوا عنه إنه خلق من نور وقالوا عنه إنه أول خلق الله ، واستدلوا على ذلك بروايات موضوعة لا تمت إلى الحق بأى سبب وغفلوا عن الآيات الواضحة الصريحة التي ذكرها الله عز وجل في محكم كتبه والتي يتبين منها حقيقة البشرية التي أكدها الله وأمر رسوله أن يعلنها للناس في

مخلوقاً من التراب ما دام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكريمة التي أضاءت المشرق والمغرب وملأت العالم كله بالهدى والرشاد..

والواقع الذي تطمئن إليه النفوس وتنهض به الحمجة أن محمداً أول خلق الله منزلة وأعلامهم قدراً وليس أول خلق الله وجوداً وأقدمهم مولداً ذلك بأنه في التسلسل الزمني كان خاتم الأنبياء والمرسلين . فهو مكمل للبناء العظيم الذي أقامه الأنبياء لإسعاد البشر منذ وجد آدم أبو البشر ، ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد صلوات الله وسلامه عليه من

أبناء آدم ثم يوجد قبل أبيه . ولا يستقيم مع المنطق السليم - كذلك - أن تكون الأفضلية بين الناس بقديم الميلاد وإلا لكان الآباء أبداً أفضل من الأبناء . . وكان الأجداد - على توالي العصور - أفضل من الآباء والأحفاد .

وإذا كان من واجنا - كمسلمين - أن نقدر نبينا العظيم حق قدره فإنه لحق علينا - كذلك - ألا نسيء الفهم وتجاوز الحد فنبعد نبينا عن منزلته وقدره فما ؛ أبعد الفرق بين التقدير والتقديس وبين الحب والعبادة .



٣ - « قصة الفيل والطيور الأبابيل »

يقول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وتشير الآيات الكريمة إلى تلك المحاولة التي قام بها القائد الحبشي أبرهة الأشرم حيث توجه إلى مكة يريد هدم الكعبة . ولسنا الآن بصدد الأسباب التي دفعته إلى هذه المحاولة ولكننا سنقف عند تلك الآية الكبرى التي تجلت في ذلك اليوم فكانت معجزة باقية على الدهر وسجلها الكتاب العزيز في سورة من سوره حيث أرسل الله على الجيش الحبشي . جماعات من الطير أمثال الخطاطيف ومع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعنبر لا تصيب منهم أحداً إلا هلك .

وقد ذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول فخرجوا يبتدون الطريق الذي منه جاءوا وحينئذ رأهم أعرابي في هذه الحيرة فأدرك أنهم قد أحيط بهم وقال :

أين المفر وإله الطالب

والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير ، وما زال هكذا حتى انصدع صدره عن قلبه . وهكذا كان هلاكهم كما أشارت السورة الكريمة حيث يقول سبحانه مشيراً إلى نهايتهم : « فجعلهم كعصف مأكول » .

ومن عجب أن تكون الآيات الكريمة واضحة كل الوضوح في تصوير هذه الحادثة ومع ذلك يوجد من علماء المسلمين من يحاولون تأويلها ويقولون إن الله عز وجل يريد بالطيور الأبابيل الرياح المتجمعة بالحجارة من السجيل ذرات التراب التي حملت ميكروب الجدري . ومن ذهب إلى هذا الرأي الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره بل جزء عم والدكتور محمد حسنين هيكل في كتابه حياة محمد والدكتور طه حسين في كتابه على هامش السيرة :

ومن واجبتنا أن نقول لمن يقرءون هذه الآراء إنه لم يعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أي جماعات من الطيور

ولا ينبغي أن يقال ذلك إلا بطريق مجازي بعيد ، ولا يصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز . مادامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله تعالى . وكذلك لا يقبل في لغة العرب أن يقال عن الذرات من التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ في النار وهو الآجر ، وإذا كانت الريح - كما يزعمون - قد حملت ميكروب الحدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟ . وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم وبعضهم كان من المشركين الذين لم يؤمنوا برسالة محمد . فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية والحجارة حجارة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد . وينتهازها فرصة في الكيد لمحمد والطعن عليه ، . ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لاشك فيها ولا يجرؤ أحد على إنكارها .

وعلى هذا فالطير الأبايل هي الطيور الحقيقية المعروفة لدى الناس جميعاً ، ولعلها

غارات جوية وقعت في هذا العالم قبل الأوان . لم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان . ولقد سجل العرب في شعرهم هذا الحادث العجيب وتغنوا به أمام العصور والأجيال ، ومن ذلك قول نفيل بن حبيب يصور ما وقع للأحباش في ذلك اليوم :

ألا حيث عنا يارديننا
تعمناكم مع الإصباح عينا
حمدت الله إذا أبصرت طيرا
وخفت حجارة تلقى علينا

وقول أمية بن أبي الصلت :
إن آيات ربنا ثاقبات
لا يمارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى
طل يحبو كأنه معفور
وقول عبد الله بن قيس :

كاده الأشرم الذي جاء بالفيل فولى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالخنديل حتى كأنه مرجوم

وهكذا حمى الله بيته المحرم من عدوان الظالمين لأنه البيت العتيق الذي كان مصدر

الهدى والنور منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام . فلما تغيرت الأحوال وعبد
العرب الأصنام وتركوا النور وتخبطوا في
الظلام شاء الله ألا يطول عليهم الأمد في هذه
الظلمات وأراد بهم الخير فحمى هذا البيت
من عدوان الأحباش ليعود إليه مجده التليد ،
ويتلأأ فيه النور من جديد على يدى محمد
ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ولد في
هذا العام . ثم بعثه الله بعد ذلك هداية ورحمة
للعالمين .



٣ - ((الحجر الأسود

يتطلع المسلمون - كلما أذن الإيمان في نفوسهم بالحج أو العمرة أو الطواف إلى ذلك الحجر الأسود الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد الحرام ثم تركه وديعة غالية حفظتها الأجيال والقرون وبالغت في حفظها حتى أن الإسلام الذي غير وبدل وهدم وأقام لم يتعرض لهذا الحجر بنقض أو هدم أو تغيير بل بقي في مكانه وبقي له قدره ومكانه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليه ويقبله وكان المسلمون من وراء نبيهم يفعلون مثل ذلك وهم جميعاً يؤمنون بأنه حجر لا ينفع ولا يضر وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمته المأثورة حينما طاف بالبيت :

« والله إنني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ».

وقد وردت آثار كثيرة في فضل هذا الحجر وفيها ما يدل على أنه من الجنة . ولا بد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة الفاحص المتأمل الذي لا ينخدع بالعاطفة ، والذي يبتغي الحق لوجه الحق وحده - « فقد روى : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : إن الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما . ولولا أن الله طمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص » وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم » ويذكر العلامة تقي الدين الفاسي في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض مع الرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه إذ يقول : « وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وإنه لياقوتة بيضاء » :

وهذه الروايات وأمثالها تحمل في طياتها ما يهدمها لما يظهر فيها من تعارض ، ثم هي في ذاتها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً ؟؟ فأما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس تفيد إحداهما أن الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم اسود من ذنوب بني آدم وخطاياهم ، وأما الثانية فإنها تفيد أنه اسود قبل أن يطوف به أحد

وأنه كان ياقوتة بيضاء ثم غيره الله بالسواد حتى لا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة حينما يرون الحجر وهو ياقوتة بيضاء .

وأما أنها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً فلأن قيمة هذا الحجر لا تزداد إذا كان من أحجار الجنة ولا تنقص إذا كان من أحجار الأرض وذلك بأن قيمة الشيء إنما تكون في الجوهر دون العرض وفي اللباب دون القشور ، فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب ، والحصى بين اللآلئ الغالية هو الحصى بين الرمال السافية .

والكعبة المشرفة التي بنيت من أحجار جبل أبي قبيس هي بيت الله الذي يشع بالهدى والنور ويسمو على مافي الجنة من دور وقصور .

ومن حقنا الآن أن نتساءل : ما الحكمة في أن ينزل الله من الجنة ياقوتتين مضيئتين ثم يطمس نورهما ؟ إنهما إذن يفقدان خاصيتيهما الكريمة وينزلان إلى مستوى الحصى والرخام ؟ ؟ أو ما كان الأجدر أن يظلا ياقوتتين مضيئتين ليكونا من آيات الله الخالدة ؟ . وإذا قيل إن هذا الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم سودته خطايا الناس وذنوبهم فلماذا لم يره أحد من الناس في زمن بياضه ؟ ولماذا لا يزداد اسوداده على توالي الأزمنة والعصور ؟ ؟

كل هذه الخواطر التي تجول في النفس تجعلنا ننظر إلى مثل هذه الروايات في حيطة

وحذر . وتشك كل الشك في نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما أنه لم يذكر شيء منها في الصحيحين . وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر قال إنه حديث غريب ؟ ؟ .

ولا بد لنا إذن أن نتلمس السبيل إلى رواية أخرى لا يتطرق إليها مثل هذا الضعف والوهن وتلكم الرواية هي ما ذكره ابن الأثير في تاريخه حيث قال : إن إبراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام قال لولده إسماعيل : فأطع ربك ، لقد أمرك الله أن تعينني على بنائه ، قال : إذن أفعل . فقام معه فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة . ثم قال إبراهيم لإسماعيل : ائتني بحجر حسن (أى متميز في لونه) أضعه على الركن ليكون للناس علماً فأخذ حجراً من جبل أبي قبيس وهو الحجر الأسود ووضعاه في موضعه فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم يقف على حجر وإسماعيل يناوله وهذا الحجر هو مقام إبراهيم . وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه .

ومن هذه الرواية الواضحة وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة وإنما هو من أحجار جبل أبي قبيس

وقد أراد الله أن يوضع في ركن من أركان
بيته المحرم ليكون علما أى علامة يبدأ منها
الطواف وينتهى إليها . فلما أذن إبراهيم في الناس
بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف
ونهايته وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنما
يسجلون أنفسهم في هذا السجل الخالد ويقرن

ذلك في نفوسهم بأجل الذكريات عن النبي
الكريم إبراهيم فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك
وهم إنما ينظرون من خلاله إلى رب الحجر
ونخالق الحجر . ويوقنون إن إبراهيم الذي
وضع هذا الحجر في هذا المكان هو الذي
حطم الأصنام وقضى على عبادة الأوثان .



٤ - « روايات عن إرهابيات النبوة »

تتحدث كتب السيرة عن الإرهابيات التي وقعت قبل البعثة النبوية والتي كانت من البشائر التي سبقت النبوة ، وقد ذاعت بعض هذه الإرهابيات لدى الكثرة الغالبة من الناس مع أنها لم ترد في كتب السيرة الأصلية ولم يتحدث عنها الرسول فيما صحح من أحاديثه .

ومن ذلك ما يروى أن أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى سقطت ليلة الميلاد . وأن نيران المحوس خمدت في هذه الليلة . وأن بحيرة ساوة قد غاضت وانهدمت الكنائس التي حولها في تلك الليلة « كذلك ، وأثارت هذه الروايات شعور الشعراء وهزت مشاعرهم فأخذوا يتغنون بها على توالى العصور . ومن ذلك ما قاله البوصيري في قصيدته المشهورة (بردة المديح) :

أهان مولده عن طيب عنصره

يا طيب مبتدأ منه ومختتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهم

قد أُنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو متصدع

كشميل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار خامدة الأنفاس من أسف

عليه والنهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها

ورد واردة بالغيط حين ظمى

وقد علق الكتاب القدامى والمحدثون على هذه الروايات وكان منهم من يؤيدها ومنهم من يعارضها وينفيها ، ويعجبني مما جاء في هذا المجال ما ذكره الشيخ محمد الغزالي في كتابه « فقه

السيرة » حيث نفي مثل هذه الروايات نفياً قاطعاً فقال : « إن هذا تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان حقاً إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه ، وقد كانت

رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي ، وكان جند القرآن

أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم في تدوين المستبدين وكسر شوكتهم طاغية

إثر طاغية . فلما أحب الناس بعد انطلاقتهم

من قيود الفسق تصوير هذه الحقيقة تخيلوا

هذه الإرهابيات وأحدثوا لها الروايات

الواهية . ومحمد في غنى عن هذا كله فإن

نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في

هذه الروايات وأشباهاها .. ؟؟

ونحن نؤيد هذا الرأي السديد ونزيد على

ما قاله الشيخ الغزالي أن معظم الكتب الأصلية

في التاريخ والسيرة وكتب السنة الصحيحة لم

تذكر هذه الإرهاصات فيما ذكرته من سائر
الإرهاصات والمعجزات التي رويت عن
الرسول صلى الله عليه وسلم ومثل هذه
الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها لو كانت
قد وقعت ، ولو أن أعداء الإسلام رأوها
لما أنكروها بل كانوا يسجلونها في كتبهم التي
أرخوا فيها لتلك الفترة ويتلمسون لها أسباباً

أخرى ويحاولون أن يرجعوها إلى أسباب
كونية وعوامل طبيعية أو إلى غضب الآلهة
عليهم إلى غير ذلك من التعليلات التي تخرج
بها عن إثبات الفضل لمحمد ولدينه . . ولكن
شيئاً من ذلك لم يحدث ، وبهذا يصبح واضحاً
أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب
القوة ما يجعلنا نطمئن إليها ونرجح وقوعها . .



هـ - ((حادثة شق الصدر))

وتنحصر بالحديث لأنها كانت حدثاً هاماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وجهت الأنظار إليه وهو في هذه السن المبكرة .

وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو في الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع خلف بيوتهم فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أى يقلباناه) . . . تقول السيدة حليلة : فخرجت وأبوه فوجدناه قائماً ممتعاً وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى

رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتسأ فيه شيئاً لم أدرى ماهو .

وقد خشيت السيدة حليلة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمه آمنة وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابنى هذا لشأنا ؟ فلم أكن أحس أثناء حملته بشيء مما تجده الحوامل وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء لى قصور الشام ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليلة . وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج فلقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج .



مناقشة هذه القضية

وبعد بعثته ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره . وأن العناية التي أحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص على يدى السيد المسيح عليه السلام هي العناية التي شقت صدر محمد ثم أرجعته في لحظات إلى حالته الطبيعية وهذا شأن المعجزات التي لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .

ولا ينبغي بأى حال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المحازية لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاعنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فأضجعانى وشقا صدرى » وفرار أخيه من الرضاعة فزعاً مما رأى ، ومجئ السيدة حليلة هي وزوجها ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع لونه وحكايته للقصة بنفس هذه الألفاظ . . كل ذلك يجعل الحقيقة في هذه القصة واضحة لدى عينين ويبعد بها عن الأسلوب المحازى بعد المشرقين .

وإذا كان بعض المستشرقين مثل سيروليم موير ودر منجم ينكرون هذه الحادثة لأنها تعتمد على رواية طفلين لا يصح الأخذ بقولهما فإننا نرى أن رواية الأطفال أقرب إلى الصدق وأبعد عن الكذب من رواية الرجال لأن الأطفال في مثل هذه السن الصغيرة لا يمكن أن يختلقوا الكذب ويتفقوا عليها بمثل هذه الصورة ،

وتختلف رأى العلماء في معنى شق الصدر فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاباً ومقدمة للنبوذة وبشيراً بما ينتظر لمحمد من مركز عظيم ومقام كريم . وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التي كرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، والتي تؤيد صدقه في دعواه .

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما هو من قبيل المحاز ويقصد به ما يفهم من قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » فهى بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول صلى الله عليه من الشوائب التي توجد في نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

ولكننا نقول إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم تدعه العناية الإلهية غرضاً للوساوس التي تناوش غيره من سائر الناس ، وإنه لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبداً غرضاً للوساوس . بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوسوس دون أن تشق صدورهم . وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة في نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد في طفولته

الدقيقة ومع ذلك لقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه وأخبر كذلك . عن المرة الثانية التي وقعت له في ليلة الإسراء والمعراج .

وإذن فالرأي الذي ترتضيه هو أن حادث

شق الصدر قد وقع بطريقة حسية وأنه حقيقة لا ريب فيها . وهو من الإرهاصات التي تبشر بنبوذة محمد وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دمنا نؤمن بالعناية الإلهية التي تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ..



٦ - « قصة الغرانيق »

قصة الغرانيق مشهورة وقد كثر فيها كلام الكتاب والباحثين المعاصرين ومن العجيب أن بعض المراجع الأساسية في التاريخ كالطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته . وابن الأثير في كتابه الكامل ، كل هذه المراجع قد أثبتت هذه القصة دون أن تعلق عليها بما يدل على بطلانها وفسادها مع أنها تحمل في طياتها ما يهدمها من أساسها ..

ومجمل هذه القصة أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما رأى تجنب قريش إياه وإيذاءهم له ولأصحابه تمنى ألا ينزل عليه شيء من القرآن ينفرهم فجلس يوماً في إحدى أنديتهم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » . فقرأ بعد ذلك : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ثم مضى إلى نهاية السورة كلها وسجد في آخرها عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » ، وهناك سجد القوم جميعاً ولم يتخلف منهم أحد ، وأعلنت قريش رضاها عما تلاه النبي . وقالوا له : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيباً فمنع معك وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم وفشا أمر ذلك في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فقال المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إليها عشائراً أحب إلينا ورجعوا إلى مكة ...

وتضيف الرواية أن محمداً قد كبر عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا شفاععة فمنع معك وأنه جلس في بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض عليه النبي سورة النجم فقال له جبريل : أوجئت بك بهاتين الكلمتين ؟ : مشيراً إلى (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) فقال محمد حينئذ : لقد قلت على الله ما لم يقل . ثم أوحى الله إليه .

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تأخذوا بك خفياً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » .

وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر وعادت لمناوئته وإيذاء أصحابه .. « تلكم هي قصة الغرانيق في جملتها وهي قصة واضحة الكذب ولغة الوضع فيها ظاهرة ولذلك لم تنطل على كثير من العلماء الثقات أمثال محمد ابن إسحاق والقسطلاني فقالوا عنها : إنها من وضع الزنادقة ولعل بعض المؤرخين الذين أثبتوها كانوا يؤمنون بفسادها ولكنهم وضعوها في كتبهم على أنها مجرد رواية مطمئنين إلى فطنة القارئ ويقظته . ولعلها دست إلى بعض هذه الكتب بعد موت أصحابها .

وحسبنا في إبطال هذه القصة أن تقرأ الآيات القرآنية في سورة النجم لئلا فيها أبلغ الرد على ما تدل عليه الحملتان الموضوعتان وذلك حيث يقول سبحانه :

« أفرايتم اللات والعزى - ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى - تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

فكيف يعقل أن تحشر في هذه الآيات التي وضحت دلالتها على حقارة الأصنام وسفه من يقدسونها حملتان ترفعان من شأن هذه الأصنام وتجعلان لها شفاعاة مرجوة ؟ وكيف يمكن أن يسجد المشركون بعد أن يسمعوها هذه الآيات وفيها طعن صريح على آلهتهم حيث يقول الله عنها « إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وأما أن محمداً قد كبر عليه قول المشركين إنهم معه مادام قد جعل لآلهتهم نصيباً من الشفاعاة فهذا كلام لا يتفق و جوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها العامة التي تحارب الشرك بكل مظاهره والتي تقوم على التوحيد الخالص البعيد عن كل الوسطاء والشفعاء :

وأما أن الرسول قد أوحى إليه بعد ذلك بتلك الآيات الكريمة : وهي قوله تعالى :

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تتخذوك خليلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » فلا شك أن هذه الآيات لا تؤيد مثل هذا الادعاء ولا تفيد وقوع مثل هذا الافتراء . لأن مفهوم الآيات أن الله قد ثبت رسوله على الحق فلم يركن إليهم لا قليلاً ولا كثيراً وقد حال الله بينه وبين الافتراء على الله والركون إلى أعداء الحق .

وأما ما ساقه هؤلاء الكاذبون الذين وضعوا هذا القصة من الاستشهاد على وقوعها بقول الله تعالى في سورة الحج :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » . وتفسيرهم للتسنى بالقراءة . وتعزيزهم لهذا التفسير بببيت من الشعر يحكى قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل مقتله فيقول تمنى كتاب الله أول ليلة

وآخرها لا في حمام المقادر

فهذه الآية الكريمة لا ينبغي أن يفسر التنى فيها بالقراءة لأن هذا التفسير بعيد كل البعد عن المقصود . وليس له في الأساليب العربية وجود إلا في هذا البيت وحده ، وفي هذا دليل واضح على أن هذا البيت قد وضع لهذا الغرض خاصة ...

هذا ولو أننا فسرنا التنى بمعنى القراءة فإن معنى ذلك أن يلتقى الشيطان فى قراءة كل نبي كلاً ما ليفتن به الناس ثم ينسخه الله بعد ذلك، وهذا ما لم يقع للأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب حتى يغير الشيطان فيها ثم ينسخ الله بعد ذلك ما يفعله الشيطان ، على أن سنة الله فى رسله وأنبيائه أن يؤلف حولهم القلوب فى مبدأ دعواتهم بإجراء المعجزات والحوار على أيديهم بدل أن يمكن الشيطان من إلقاء الفتنة وإشغالها بين أتباعهم بنسخ ما ينزل عليهم بسبب تسلط الشيطان فينفر الناس منهم ويضعف الثقة فيهم .

والآية حينئذ تفسر على النحو الواضح المألوف فى لغة العرب ، ويكون المعنى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي

إلا إذا تمنى هداية قومه ألقى الشيطان فى أمنيته : أى وضع الشيطان فى طريق تحقيق أمنيته العقبات والعراقيل فينسخ الله ما يلتقى الشيطان أى فيذهب الله ما وضعه الشيطان من تلك العقبات بفضل إيمان المؤمنين وجهادهم ثم يحكم الله آياته أى يظهر الحق ويرسئ أسسه ودعائمه والله عليم حكيم » .

وبهذا يتبين لنا أن قصة الغرانيق قصة مختلفة دست إلى بعض الكتب القديمة . وأنها ليست هى السبب فى رجوع المسلمين من الحبشة ولما رجع هؤلاء المهاجرون من الحبشة إلى مكة بسبب ما علسوا من إسلام حمزة وعمر واعتقادهم أن إسلام هذين البطلين سيعتز به المسلمون وتقوى شوكتهم .



٧ - « دور الملائكة في يوم بدر »

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة إلى الأرض لتثبت الذين آمنوا وقلقى في قلوب الذين كفروا الرعب . وفي ذلك يقول الله عز وجل : « لاذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » ويقول لاذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبتوا الذين آمنوا سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وقصة إمداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذى الأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه ، وقد اختلف العلماء في الغرض الذى من أجله أمد الله المسلمين بالملائكة ، فذهب بعضهم إلى أن الملائكة إنما نزلت للقتال . فبنى جيش من السماء وأنزله الله لإضعاف شوكة الشرك والظلمة في الأرض . ويستدلون على ذلك بما روى من أن رجلاً من المسلمين كان يطارد رجلاً من المشركين في يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشق وجهه فلما أخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء . ! ! وما روى

عن أبي داود المازنى حيث قال : تيممت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوق رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفى . وهم يقولون إن الأمر فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » أمر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك أن الله قد قضى بانزال الملائكة لضرب والقتال .. ! !

ويذهب البعض الآخر إلى أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية الروح المعنوية لديهم وأنهم لم يشتركوا في القتال ويذكرون فى الاستدلال على رأيهم حججاً وأدلة كثيرة .

أولهما : أن الملك الواحد يستطيع إهلاك الكفار جميعاً فى لحظة واحدة فلماذا ينزل الله لقتال الكفار ألفاً من الملائكة ؟

وثانيها : أن الله لو قدر للملائكة أن تشترك فعلاً فى القتال لما كان هناك مزية للمسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة . ولما كان هناك داع للأخذ بالأسباب العادية فى هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين بإعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وثالثها : أن المعركة حينئذ ستكون بين
فئتين : فئة قليلة وهم المشركون ، وفئة كثيرة
وهم المسلمون بعد انضمام الملائكة إليهم
لإذ يصبحون ألفاً وثلاثمائة ، بل إذا نظرنا إلى
ما جاء في سورة آل عمران حتى أن الملائكة
قد زادوا فأصبحوا ثلاثة آلاف . ثم زادوا
بعد ذلك حتى وصلوا إلى خمسة آلاف كما جاء
في قوله تعالى : « إذ تقول للمؤمنين ألن
يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من
الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا
ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة
آلاف من الملائكة مسومين » . إذا نظرنا إلى ذلك
وجدنا أن المسلمين مع الملائكة سيزيدون على
خمسة آلاف وحينئذ لا ينبغي أن يقال : إن
الفئة القليلة هي التي غلبت الفئة الكثيرة ..

ورابعها : أن الملائكة لو اشتركت في
القتال بهذا العدد الكبير ثم انجالت المعركة
عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان
هذا موقفاً مخزياً للملائكة الله ولاعتبر ذلك
نصراً للمشركين وهزيمة للملائكة والمسلمين .
وبذلك يتبين لنا أن الملائكة لم تنزل للقتال

وإنما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الإيمان
ومما يزيد هذا المعنى تأكيداً قول الله تعالى :
« وما جعله الله إلا بشرياً ولتطمئن به قلوبكم »
أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة ليساعدوكم
باشترائهم في القتال وإنما جعله الله للبشري
لكم بالنصر ولتسكن وتطمئن بهذا الإمداد
قلوبكم حيث تدركون أن الله معكم فيزداد
إيمانكم وجهادكم ويتحقق النصر بأيديكم ،
ويكون الأمر في قوله تعالى : « فاضربوا
فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » أمراً
موجهاً إلى المؤمنين وليس موجهاً إلى الملائكة .
ويصبح المعنى المراد من الآية : إذ يوحى
ربك إلى الملائكة أني معكم بمعاونتي فثبتوا
أيها الملائكة ثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم
وأخبروهم بأن الله معهم وأنه سيأتي في قلوب
الذين كفروا الرعب . وإذا كان الأمر كذلك
فاضربوا أيها المؤمنون فوق الأعناق واضربوا
منهم كل بنان .

وبهذا يتبين لنا - بما لا يقبل الشك
والجدال - أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت القلوب
ولكنها لم تشترك في القتال .



٨ - ((أزواج النبي))

يشير هذا الموضوع بأهمية بالغة لدى العلماء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين . وذلك لما يبدو فيه من شذوذ يدعو إلى العجب وغرابة تدعو إلى التساؤل : متى كان نبي الإسلام يتميز عن غيره من المسلمين ؟ ويبيع لنفسه ما يحرمه على غيره ؟ ولماذا يكون عدد الزوجات محدوداً بأربع لجميع المسلمين وتقييد الزيادة عن واحدة بشروط خاصة وفي ظروف خاصة بينما الرسول وحده هو الذي يشتم بحرية بمطلقة في هذا المجال ؟

وقد انتهر المفكرون من الأجانب هذه الفرصة وحسبوا أنها نقطة ضعف تشين محمداً صلوات الله وسلامه عليه فأخذوا يوجهون سهامهم المسمومة ويطعنون خالق الرسول ويشوهون من تاريخه الخافل بالنضائل ويتولون : إنه رجل تسيطر عليه الشهوة الخنسية وتملك زمامه ، وإنه حينما وجد أن تقييد عدد الزوجات بأربع لا يطفى غلته ولا يرضى إربته أطلق لنفسه العنان كما يشاء فجسع إلى عصمته هذا العدد الضخم من النساء .

وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحلوا غواشي الشك في مثل هذه النقطة

الغامضة حتى لا تضل فيها الأفهام وتزل بها الأقدام . وقد نشطوا لذلك - والحمد لله - على توالي الأزمنة والعصور وبينوا الدوافع القوية التي كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثيرات ، والتي كانت تجعل هذا الزواج هادفاً إلى المصلحة العامة دون سواها ، وأقاموا حججهم على دعائم قوية من المنطق السليم . فتبعوا تاريخ محمد وما عرف عنه من العفة والزهد في متاع الدنيا وزينتها . والطمهارة الكاملة في كل فترة من فترات حياته بشهادة أعدائه قبل أصدقائه ، وكيف مرت عليه فترة الشباب المخرجة دون أن يتزوج ، ولم يعرف عنه خلال هذه الفترة ما عرف عن الكثير من أترابه ولداته من التزق والطيش والانحراف العابت ، بل كان في كل أحواله وظروفه مضرب المثل في الخلق الكريم والمسلك القويم . وبعد أن تزوج من السيدة خديجة - وكانت قد بلغت الأربعين وهو سن يعف عنه الكثير من الشباب - كان محمد صلوات الله وسلامه عليه راضياً بها ومطمئناً لها وسعيداً بالمعيشة معها لأنه لا يطلب من الزوجة إلا الإخلاص والوفاء وقد وجد في زوجته خديجة الغاية

المرجوة من الإخلاص والوفاء . وهكذا ظل الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة حتى بلغ من العمر خمسين عاماً . ثم توفيت السيدة خديجة فتزوج الرسول سائر نسائه في العقد السادس من حياته .

وفي مثل هذا العمر تضعف الغريزة الجنسية حتى لدى الأشخاص العاديين الذين لا يرهقهم التفكير فما ظنكم بمن حمل الأمانة الكبرى ووسدت له الإمامة الكبرى ومن استغرقت رعيته وأمته كل دقيقة من تفكيره وكل لحظة من لحظات حياته ؟ وماذا يمكن أن يبقى له من الطاقة حتى يصرفها في ملذاته أو يقسمها على سائر زوجاته ؟

ولكن هذا المنطق السليم لم يقنع هؤلاء السادرين في الغي والضلالة فظلوا على موقفهم من نبي الإسلام يطلقون حوله التهم الكاذبة والأراجيف الباطلة ، فإذا يمكن أن يقال لهؤلاء مادام الحق على نبي الإسلام قد أكل قلوبهم ؟

ألا إننا سنقول لهم ويحق ما نقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

ويشكى الفم طعم الماء من سقم

إننا نقول لهم ذلك ماداموا لا يؤمنون بالقضايا المنطقية ، فإذا تجاوزنا ذلك كله فليس يعيبنا أن نقول : إن هذه خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أباح الله له

ذلك تأليفاً لقلوب القبائل التي يتصل بها برابطة النسب وحتى لا ينحصر شرف الاتصال بنسب رسول الله في دائرة محدودة ، وحتى ينتشر الإسلام في أكبر عدد من قبائل العرب ممن يرتبطون بمصاهرة الرسول ..

وحينما نزلت الآية الكريمة التي تقول : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » حينما نزلت هذه الآية كان لابد من تطبيقها على جميع المسلمين عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من يدخل في الإسلام يطلق ما يزيد على أربع من زوجاته إن كان تحت يده عدد أكبر حتى أن غيلان الثقفي أسلم وتحتة عشر نساء فتخلص مما زاد على أربع منهن .

وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت قبل أن يزيد عدد نساء الرسول عن أربع أو نزلت بعد أن زاد عددهن فإن الثابت أن الرسول قد ظل غير مقيد بعدد خاص حتى نزل قول الله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » فلم يتزوج الرسول بعد ذلك وحينما لحق بربه كان في عصمته تسع نساء فإذا عسى أن يكون موقف الرسول من هؤلاء الزوجات ؟

إن أزواج الرسول هن أمهات المؤمنين أنزلهن الله هذه المنزلة السامية وقال سبحانه : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » . وقد جعل الله من كرامة الرسول

عنده ألا تزوج واحدة من نسائه من بعده
فقال سبحانه : « وما كان لكم أن تؤذوا
رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده
أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ». وإذا
كان الله قد حرم على نساء الرسول أن يتزوجن
من بعده فكيف يطلق الرسول النساء
الزائدات عن الأربع ويقضى عليهن بالترمل
أبداً بينما يباح الزواج لأية امرأة إذا طلقها
زوجها ؟

إن من حق زوجة الرسول وهي أم المؤمنين
أن تظل طول حياة الرسول لابسة هذا الثوب
الكريم الذي جعلها الله به تعويضاً لها عما يمكن
أن يصادفها من حرمان لا تتعرض له غيرها
من سائر زوجات المسلمين بعد وفاة أزواجهن
وقد قضى الله بذلك حيث قال لرسوله :
« لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن
من أزواج ولو أعجبك حسنهن » فهذه الآية
تقضى بالأبداً يزيد الرسول عدد زوجاته ولا يبدل
زوجة بأخرى مهما كانت الظروف والأحوال.
ونعود فنقول لهؤلاء المرجفين الذين
يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل
شهواني : رويدكم أيها المضللون وحسبكم « إن
الرجل الشهواني لا يطيق أن يصبر على عدد
معين من النساء لأنه يرى لذته في أن ينتقل
من زوجة إلى زوجة فيقضى مع كل واحدة وقتاً
من الزمن ثم يبحث عن أخرى ليقضى معها

الوقت الذي يليه فترى الرجل منهم إذا أراد
أن يتزوج بامرأة أعجبه حسننها وكان تحت
يده أربع نساء يطلق الرابعة ثم يتزوج من
يشاء وتظل هذه العملية تتكرر كلما صرخ
سعار الشهوة في نفسه وبهذه الطريقة كان
يستطيع أن يتزوج بالعشرات من النساء ،
بينما لا يزيد عدد من يظالمن في عصمته عن أربع
نساء .

وهكذا يسفر الصبح لدى عيينين . وتظهر
لنا ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم مبرأة
من الشوائب والعيوب بعيدة كل البعد عن
الشهوات الدنيا متوجة بالطهر والعفاف
ومكارم الأخلاق .

* * * *

وبعد ، فهذه بعض القضايا من السيرة
النبوية وهي تلك التي تعرضت للأباطيل
والمفتريات وباء بإثمها بعض الناس سفهاً
وبغير علم أو كذباً وبهتاناً وارضاء لقلوبهم
الحاحدة ونفوسهم الحاقدة . ولا يزال الكثير
من قضايا السيرة النبوية في حاجة إلى توضيح
وتصحيح . وأسأل الله أن يوفقنا لأداء هذا
الواجب حتى يعرف الأعداء والأصدقاء مدى
ما تزخر به هذه السيرة العطرة من القيم
الإنسانية والمثل الأخلاقية .

هذا ومن الله العون وبه التوفيق .

محمد الطيب النجار

عضو المجمع

دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب والبحوث في مجال الدراسات الإسلامية للدكتور حسن الفاتح قريب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما
يليق بكماله .

الفاتحة

مفهوم التدريب والبحث في مجال الدراسات
الإسلامية العرفية خاصة والإنسانية عامة
وقد صنفت تبعاً لذلك العلوم الإسلامية
من حيث التدريب إلى قسمين نظري بحث
وعملي . ثم فصلت القول في الدور
الذي ينتظر من مؤسسات التعليم العالي في
التدريب والبحوث من حيث اختيار
الأستاذ وتأهيلة داخلياً وخارجياً ، وتوفير
ما يحتاج إليه من كتب ووسائل اطلاع ونشر
ومناخ علمي وديني ، يمكنه من أداء مهمته .

هذا

بحث تناولت فيه
المفهوم الحقيقي ثم العرفي

للدراسات الإسلامية ، وقد أوضحت
فيه أن الإسلام باعتباره نظاماً شاملاً
لكل شؤون الحياة — كان قد جعل
كل العلوم الإنسانية فرض كفاية ، غير
أن البعض أخيراً جعل للدين علوماً وللدنيا
أخرى ، ثم عاد فجرد ما تبقى من علوم
الدين — مما كان لها من روح وما أريد لها
من عمل فصارت تبعاً لذلك دراسات
أكاديمية نظرية . وتناولت كذلك تحديد

* ألقى في الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

وتحدثت عن المناهج الحالية وبعدها عن
الفكر الإسلامى واقترحت تعديلاتها يناسب
حاجة البلاد ووضعت تصورا يعين الدولة
على سد حاجتها من القوى العاملة فى شتى
مجالات الحياة وأبنت كذلك أهمية الجانب

الروحى والعملى والإنسانى والصحة
والإدارى .

والله ولى التوفيق .

* * *

الباب الأول

مفهوم الدراسات الإسلامية

(١) المفهوم الحقيقي للدراسات الإسلامية :

الإسلام كما هو معلوم ، منهج شامل متكامل للحياة ينظم شؤونها العلمية والعملية والسلوكية ، وهو يتولى الفرد تربيته وتدريبها وسلوكها من حيث كان نقطة إلى أن يلتقى الله في دار البقاء حيث الجزاء المناسب ، لأعلى العمل . بل بالفضل أو العدل ، (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) .

والإسلام الذي حث على التعليم في أول آية أنزلها على رسوله عليه الصلاة والسلام ، هو الإسلام الذي ربط التعليم بالتقوى ، حيث قال (واتقوا الله ويعلمكم الله) . . . ووصل بين الرفاهية التي ينشدها الفرد وبين ذكره تعالى فقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكى ، ونحشره يوم القيامة أعمى) ووعد بتذليل كل عقبة يقابلها الفرد في علم أو تدريب أو غيره إذا ما التزم بمراعاة الخالق وتقواه . وتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم وأطاعه وأحبه وعن كل ذلك يقول المولى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) ويقول (لقد كان لكم في رسول

الله أسوة حسنة) ويقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، يقول (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ويقول (قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)

والإسلام بالإضافة إلى ما تقدم هو دين التربية العملية ، الذي يجعل مهمة الإشراف على كل عمل تدريبي يقوم به الإنسان هو للمولى أولا ، ثم للرسول ثانيا ، ثم للجماعة المؤمنين ثالثا ، حين يقول : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

الإسلام بهذا المفهوم هو البوتقة العامة لا لعمل الأفراد مجتمعين ، وإنما لعمل كل فرد على حدة ، إذ يقول تعالى : (لقد أحصاهم وعدهم عدأ وكلهم آتية يوم القيامة فردا) . . . ومن ثم أجمع العلماء على أن تعلم كل علم نظري أو عملي فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ،

بل لقد رتبوا العلوم جمعاء حسب أهميتها وفق معيار دقيق ، وميزان حساس . يستطيع به الناس في كل عصر أن يميزوا بين ما هم في حاجة ماسة إليه ، وبين ما يمكن استغناؤهم عنه ولو مؤقتا . وقد بلغ من علمهم وإنصافهم ومساواتهم في العلوم ، أن حكموا على أهمية كل علم منها وفق النفع الذي ينتظر منه . . . فما كان أكثر نفعاً ، وأدوم زمناً هو الذي يتولى الصدارة ، ومثال على ذلك قالوا إن كان علم الطب إنما ينتفع به عملياً لا وقائياً ، في فترات الأمراض خاصة فأن علم الفقه إنما ينتفع به عملياً في فترات الصحة والمرض ، وفي الحياة العاجلة والآجلة ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يمنحوه هو وعلم العقيدة الصدارة ، وقد جاء عن الأخير قولهم :

أول واجب على من كلفا

ممكنا من نظر أن يعرفا

الله والرسول - بالصفات

مما عليه نصب الآيات

ذلك هو المفهوم الحقيقي للدراسات الإسلامية ، وقد بنى عليه العلماء فتواهم - بتحريم موقف من يقبح في نظر الناس علماً ولا لشيء إلا لأنه يجهله ، أو يقع خارج دائرة معرفته وإدراكه . وحصر بعضهم المعرفة على اختلاف أنواعها في أمرين ،

حيث قال ، العلم علان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ، وكلاهما علوم إسلامية . على أنه قد مر على الناس حين من الدهر أخرجوا منه ، عن نطاق العلوم الإسلامية ، كثيراً من المواد ، كالطب بأنواعه ، والهندسة ، والزراعة ، والبيطرة ، والعلوم ، والفلك ، والاقتصاد ، والفن ، وغيرها وهما هم أولاء بأنفسهم ، وبعد أن اكتمل وعيهم الإسلامي يشهدون مولد الكليات والشعب الإسلامية لكثير من المواد التي ظنوا أن بينها وبين الإسلام ردماً لا يستطيعون أن يظهروه ولا يستطيعون له نقباً ، ولكنها رحمة الله وقد غشيت الأمة الإسلامية في عهد صحتها ، وجعلت الردم دكا وكشفت عن العلماء غطاءهم فإذا بهم يلحقون بالركب الإسلامي ، ويتصدر بعضهم بتقواه وعلمه ركب من سبقوه فيه تحقيقاً بذلك قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) هذا وأنا إذ أكتب الآن عن مفهوم الدراسات الإسلامية لن أتعدى في بحثي هذا دائرة - الحجر العلمي أو الحبس العرفي الذي كتب على الدراسات الإسلامية أن تنزوى فيه حتى يقيض الله لها من يحزرها منه ، ويفتح لها المجال لتنظم غيرها في الميدان الفسيح للحياة .

(ب) المفهوم العرفي للدراسات الإسلامية :

ينحصر المفهوم العرفي الموثق للدراسات الإسلامية في دائرة مواد بعينها ، يدور معظمها حول ما يحتاج إليه الناس في المفهوم

الضيق لمعرفتهم بالله وعباداتهم له وفيما يعرف بالأحوال الشخصية ، ويبنون على ذلك موقفهم من أمر التدريب وأماكنه فهناك من ينكر صلة التدريب بالعلم الإسلامية ، وهناك من يجعل الزوايا له مكانا ، والسبحة له أداة ، وقد يشترط بعضهم لأكمال مظهر التدريب وربطه بالبيئة لبس الزي القوي له ، من جلابية وعمة وغيرها . لقد أماتوا بهذا المفهوم دين الله ، وأشتركوا مع غيرهم في البكاء عليه ، وانتحوا أخيراً عن الدين ومؤسساته وأعلامه جانبها ، فلم يعودوا يتذكرون الدين إلا حين يستمعون إلى خطبة أو موعظة أو يرون شيخاً تقياً أو رجلاً عالماً .

(ج) التحديد العرفي للمواد الإسلامية :

تكاد المواد المذكورة أدناه - تكون هي الممثل الشرعي للمواد الإسلامية في عصرنا الحاضر أعني :

١ - القرآن وعلاومه .

٢ - التفسير .

٣ - الحديث وعلاومه .

٤ - الفقه ، وما يتصل به من أصول وتاريخ تشريع ، وفقه مقارن وما إلى ذلك .

٥ - العقيدة وما يتصل بها من علم الكلام ، والفرق الإسلامية ، والمثل والنحل .

٦ - التصوف وما يتصل به من علم الأخلاق والفلسفة .

وقد يلحق بالمراد أعلاه أو يحدف منها أحياناً مواد أخرى مثل :

١ - التاريخ الإسلامي ، بما في ذلك السيرة النبوية الطاهرة والآثار .

٢ - الاقتصاد الإسلامي .

٣ - الفن الإسلامي .

٤ - الأدب الإسلامي

(د) مفهوم التدريب :

لا أخال هناك من ينكر أهمية التدريب وفائدته ، غير أن الناس قد يختلفون في مفهوم التدريب فيصف البعض أقسامه بما يتناول التدريب :

١ - الفكري .

٢ - العملي ويشمل الرياضيات بأنواعها .

٣ - الروحي ، ويشمل الخلق والسلوك .

٤ - الفني ويشمل كل ما يكسب المهارة ، والمدرسة ، والدقة ، واكتساب التجارب سواء أكان ذلك عن طريق الموهبة الذاتية ، أو المكتسبة أو المساعدة من الآلات وما شاكلها .

ويصنف آخرون التدريب بجعله قاصراً على الناحية الفنية فقط ، ولكنهم مع ذلك

يعودون فيخرجون منه الدربة الفنية التي يكتسبها المدرس من درسه ، والتاجر من عمله ، بل إنهم ليضيقون نطاق التدريب أحيانا فيبعدون عنه كل تدريب لا تكون الآلة فيه طرفا ، وكأنهم بذلك يقسمون العلوم إلى :

١ - علوم نظرية بحتة .

٢ - علوم عملية غير آلية .

٣ - علوم عملية آلية .

ويحار أصحاب هذا الاتجاه في تصنيف العلوم النظرية التي بدأ أصحابها يستخدمون الآلة لتطوير الأداء فيها مثل علوم الاقتصاد ، والتجارة ، واللغات ، بل والقرآن الكريم أيضا الذي أدخل هو والحديث النبوي في مجال الحاسوب (الكمبيوتر) فجاءت النتائج الأولية فيها مذهلة معجزة .

ويتردد البعض كذلك في تصنيف أصحاب الخبرة الفنية ممن يستخدمون آلات محلية أو غير عصرية ، وغالبا ما يطلق على هؤلاء أصحاب الصناعات القومية .

أخلص من كل ماتقدم بأن مفهوم التدريب ليس موضع اتفاق بين العلماء إذ لا يوجد حد فاصل يميز بين العلوم^(١) . وبناء عليه فستستخدم لفظ التدريب فيما يلي في كل ممارسة عملية وسأصنف المواد الإسلامية العرفية السابقة تحت ما هو نظري بحت ، وما هو عملي سواء أكان خالصا أم مشتركا . مستخدما في ذلك المنهج الإسلامي في المعرفة الذي يخالف في كثير من قضايا المنهج الأرسطي حيث أن الأول يُستَـيـحُ للتجربة مكانا لاتتيحها له الحضارة اليونانية التي أنتجت المنطق الأرسطي^(٢) .

(هـ) مفهوم البحث :

البحث العلمي هو الجزء الخلاق ، والمبدع في العمل الجامعي ، وهو الذي يعمل على تنمية المعرفة ، وإثراء الفنون الإنتاجية ، وزيادة رصيد التراث العلمي الحضاري للإنسانية ، وهو الذي يمهّد الطريق لعملية التقدم والتطور في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية ، والحضارية علما بأنه إذا توقف البحث العلمي أصيبت جميع جوانب الحياة بالجمود ، والتصلب وعجزت المجتمعات عن تحقيق أى تطور أو تقدم . . . وهو جزء مهم وحيوي من

(١) دكتور محمد حمدي النشار : الإدارة الجامعية التطوير والتوفيق ، طبع الجهاز المركزي للكتاب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية بالقاهرة ١٣٩٦ ١٩٧٦ م صفحة ٢٦٢ .

(٢) الدكتور على سامي النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٣٨٠ .

رسالة مؤسسات التعليم . . به تتحسس طريقها نحو العمل الأفضل في المستقبل ، وبه كذلك تتوصل إلى صواب أو خطأ تجربتها في الماضي . . إنه المعيار الذي يعتسده عليه العلماء في تنمية أفكارهم ، وهو الوسيلة التي يقتصدون بها من توزيع جهدهم وتشنت أفكارهم ، والتثبت من فعالية أدائهم ، والبحث كما يحتاج إليه العالم العملي يحتاج إليه العالم النظري أنه النور الذي لا يكاد يخاو منه ميدان ولا يستغنى عنه إنسان . هو الفكر الإنساني مجسداً ، والجهد الخلاق ماثلاً . أمام العيان . . . إنه الحدود الفكري ، والركن الأساسي في قوام كل جامعة أو معهد ، أو مؤسسة أو غيرها . . . ولأن أمكن أن تستغنى الجامعات عن عمالية تدريس الطلاب فإنه لا يمكنها بحال الاستغناء عن البحث . . بل إنه إذا انحرف الفكر ، وفقد ثقته في جدوى البحوث ، احتاج في إثبات دعواه إلى بحث . . ومن ثم كان البحث لازماً لكل مؤسسة علمية ، سواء أحسن القائمون بها إدارتها ، أو أساء الإداريون بها توجيهها .

على أن نجاح بحث - أي بحث - جامعي أو فوق جامعي ، يحتاج إلى تعاون وثيق بين العلماء ذوي التخصص المشترك من ناحية ، وبين الإدارات المسؤولة

عنهم من ناحية أخرى . وهو كذلك يحتاج إلى أعداد الباحث باعتباره إنساناً ، متكامل البناء عقلاً وروحاً ، بحيث يكون مسلحاً بالعلم والمعرفة متحلياً بالخلق والقيم ، مجسداً للمعرفة المثلى في منهجه ، وسلوكه ، ومعاملاته ، مدرباً على الخير وحسن تصريف الأمور . وعلاج القضايا ، والمشاكل . متخذاً له في الحياة أسوة وفي الطريق مناراً ، وللدرب غاية . مدعماً مسيرته الخيرة بمشرد تربوي ، ومأرب إعدادي ، وصحبة تعجب إليه عزائم الأمور ، وتصرفه عن سفاسفها ، مدركاً أن العلم مهما سمت مكانته ليس مقصوداً لذاته بل لما يؤدي إليه من كل ما يدخل في الإطار العام الذي حدده المولى بقوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

البحث في حقيقته تسجيل كتابي لفلسفة تربوية هدى إليها الدارس إما إلهاماً أو إرشاداً ، إذ العلم الإنساني كما يقول الفلاسفة^(١) إنما يحصل عن طريقين أحدهما التعلم الإنساني ، وهو الطريق المعهود ، والسلوك المحسوس الذي يُقرُّ به جميع العقلاء .

الثاني التعلم الرباني أو اللدني الذي أشار إليه المولى بقوله : (وعلمناه من لدنا علماً) ، وهو الطريق العلمي الذي سلكه

(١) راجع رسالة حي بن يقطان واسال وباسال لابن سينا والرسالة اللدنية للغزالي ص ١٦ - ١٧ والأحياء ج ٣ ص ١٩ ومناهج البحث عند مفكري الإسلام للدكتور علي سامي النشار الصفحات ٣١٧ - ٣٥٢ والصراع للفكري حول الفلسفة للدكتور حسن الفاتح طبع دار الجليل بيروت .

الانبياء والرسل والأولياء ، ولهذا الطريق منهجان يتم الوصول إلى المعرفة في أولها عن طريق التعلم الذي يشبه في بعض جوانبه ماسبق أن ذكرناه بينما يركز المنهج الآخر على التفكير . . . والتفكير في الباطن كما يقول الإمام الغزالي في (الرسالة اللدنية^(١)) - بمنزلة التعليم في الظاهر ، فإن التعليم استفادة الشخص من الشخص الحزئي والتفكير استفادة النفس من النفس الكلى ، والنفس الكلى أشد تأثيرا ، وأقوى تعالما من جميع العلماء والعقلاء .

هذا وبما أن الإسلام هو تناسق بين النظر والعمل ، يقيم نظرية فلسفته في الوجود ، ولكنه يرسم أيضا طريقا للحياة العملية - فإنه بهذا الاعتبار يخالف المنهج الأرسطى الذى يقسم المعرفة إلى نظرية وتجريبية . إنه كما يقول الدكتور على سامى النشار - منهج استقرائى يقوم على التجربة ، وتنظيمه قوانين الاستقرار ، ومن ثم فإنه هو لاغيره المعبر عن روح الإسلام مادام يعتمد على التجربة ، والتجربة هى إحدى ركائز الإسلام الأساسية^(٢).

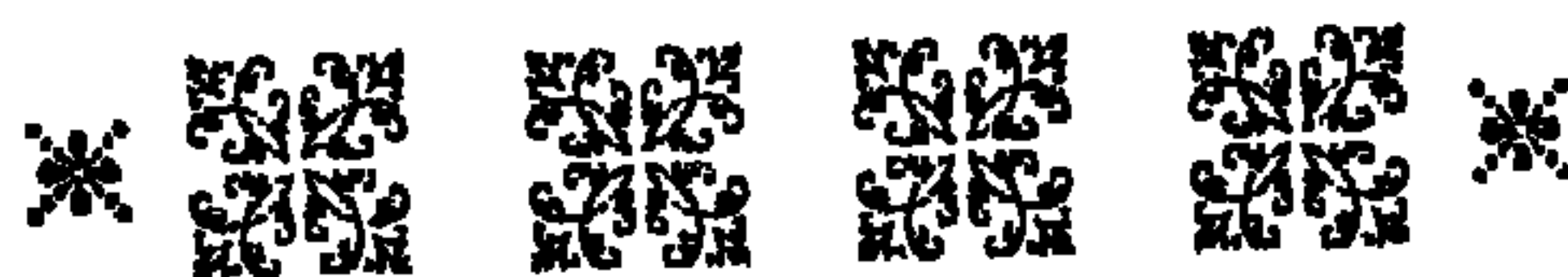
(و) تصنيف العلوم السابقة من حيث التدريب: هذا والعلوم السابقة ولأن صنف تحت ما يصطلح عليه باسم العلوم النظرية فإن بعضها يشتمل على جوانب عملية وعلى الأخص مادتى الفقه والتصوف ، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يصلوا كما رأوه يصل ، ودعاهم إلى ممارسات عملية في الحج ، وفرض عليهم بناء على التوجيه الألهى صيام شهر كامل ، ودعاهم إلى صيام غيره من الأيام ، كما دعاهم إلى معاونة بعضهم البعض في كل عمل يقومون به ، حتى لقد بلغ من عدل الإسلام ومساواته بين الناس أن أمر بمعاونة الخدم أو العمال أيا كان نوع العمل الذى يؤدونه ، فقال إخوانكم خذواكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعمه وليلبسه من لباسه ولا تكلفوه ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فاعينوهم . وقد صنف رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الأعمال في باب العبادة واعتبرها صدقة ، وأسماها المتصوفة فتوة وجعلوا ممارستها واجبا على المريد أداؤه بأقبال وحب وشغف ، وتأسوا بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحضر مع أصحابه الخندق ، ويجهاد معهم الكفار ، ويصعد وينزل من غار

(١) الغزالي : الرسالة اللدنية ص ١٦ - ١٧ .

(٢) الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمى في العالم الإسلامى ، طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

حراء ، ويطوف ويسعى ، ويهرول بين
العمودين الأخضرين لتأكيد قوة المسلم
وصلابته وتدريبه العمل على المشاق ، وسمح
الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين
بالإشارة بالآلة لتقبيل الحجر الأسود ،
واعتبر حجهم متوقفا على الوقوف بعرفات
وحبيب إليهم صعود جبل الرحمة ، وأمرهم

برمي الجمرات وأجاز للمرضى والزمنى
وغيرهم أن يطوفوا ويسعوا وهم على الآلات
محمولون ، وجعل وسيلة التحلل من شعائر
الحج استخدام الآلة للحلق ، وربط ذلك
بالعبادة ، وحذر من لا يعمل بالآلة أو
بغير الآلة من أن يجيء يوم القيامة وفي وجهه
نكتة المسألة وروى عنه أنه قال كل عمل
الخير صدقة ،



الباب الثاني

دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب والبحوث وفق التصور السابق

مدخل :

إن الدولة وقد أنشأت للبحوث مجالس قومية، وللتعليم العالي مؤسسات تربوية ، وللتدريب أقساماً فنية فإنها بهذا المفهوم لا تحصر خدماتها في ميدان خاص ، وإنما تفتح نفسها على المجتمع لتؤدي من خلال كل مؤسساته - بالتنسيق المشترك بينها - ما يناط بها من دور ، وما ينتظر منها من واجب .

ومعلوم أن مجال الدراسات الإسلامية - كغيره - مجال واسع يقوم فيه الكل بأداء دوره سواء أكان أستاذاً بالجامعة أم باحثاً بغيرها ، وسواء أكان طالباً بذات الميدان ، أم راغباً في العلم بخارجه ، وما قيل عن البحث يقال عن التدريب ، إذ هو كغيره ليس قصراً على جهة دون جهة ، ولا على عمل دون آخر ومن ثم فإن ما ينتظر من الدولة أدائه ينحصر بإيجاز في الميادين الآتية . الميدان العلمي ، الميدان الروحي ، الميدان الصحي ، الميدان العملي ، الميدان الترفيهي ، الميدان الإنساني الميدان الإداري .

١ - الميدان العلمي :

(١) اختيار الأستاذ أو الباحث :

يتصدر ركب هذا الميدان الدقة في اختيار

الأستاذ المتخصص المؤمن بربه ، العامل بدينه ذلك أن الأستاذ هو كنز التعليم العالي الحي ، وقلبه النابض الداخر بالمعارف والخبرات ، الذي يستطيع - إن أخلص - أن يبذل من ذات نفسه بما يجعل التعليم العالي ناجحاً ومحققاً للغرض المنشود منه في الداخل والخارج .

والأستاذ بما له من وسع إدراك وفتح ونفاذ بصيرة ، وفكر ثاقب ومعرفة واسعة وخبرة فنية - يستطيع أن يوسع على طلبته وأمتة آفاق المعرفة وينكشف لهم عن الكنوز العلمية مما يلائم حضارتهم وتطلعاتهم خاصة في ظل الشرع الإسلامي ليواكبوا الحضارة العالمية ويسهموا فيها بنصيب تفخر به الأجيال ويعتز به الخلف .

والأستاذ كذلك هو حجر الزاوية في هيكل البناء العلمي لمؤسسات التعليم العالي . . عليه يعتمد نشر المعرفة وتعميم الثقافة العامة وإشاعة السلوك العلمي والتفكير المنطقي ، وبه تنهض مؤسسات التعليم ، ويرتفع البناء الحضاري للأمم . . وهو بالإضافة إلى ماسبق النموذج الحي للسلوك المثالي الحسن ، وهو القدوة الصالحة للمجتمع

في مجال القيم الخلقية ، والتربية السلوكية .
 إن اختيار الأستاذ الصالح يعنى اختيار
 الخليل الصالح ، وبناء الأمة السليمة التي
 أراد لها المولى أن ترث الأرض ومن عليها
 إنه العلم والتربية والخلق والإحساس
 والشعور . . إنه الإنسان الذي يتفاعل مع
 ربه ، مدركا حقيقته كعباد له وخادم ، ومع
 الخلق مدركا دوره معهم كأخ لهم يرحم
 صغيرهم ، ويواسي كبيرهم ، ويعين ذا
 الحاجة منهم . . . إنه الفرد الذي لا يدخر
 في العبادة لله طاقة ، ولا في التعامل مع
 البشر جهدا . . إنه المعلم الذي يدرك أن
 التربية ليست كلمات يلوكها ، أو ألفاظا
 ينمقها ، أو أقاويل يؤلف بينها ، أو أفكاراً
 يرتبها ، ولكنها بالإضافة إلى كل ذلك
 سلوك ومنهج حياة ، وسيرة عملية يراعى
 في كل مرحلة منها خالقه الذي يعلم خائنة
 الأعين وما تخفي الصدور .

إن تأهيل الأستاذ ينبغي أن يراعى
 فيه الكفاءتين العلمية والعملية ، إذ التعليم
 الاستثمار العام هو تعليم يتعدى ذات
 الفرد إلى غيره . . هذا والتأهيل المطلوب
 لاتحده شهادة أو تعوقه ترقية ، فإن احتاج
 إليه الباحث وهو في أول طريقه للإعداد
 والتدريب ، فإن الأستاذ ، والأستاذ
 المشارك وغيرهم يحتاجون إليه لمتابعة التطور
 ومواكبة التقدم - سواء أكان ذلك عن
 طريق الأجازات الدراسية أو الزيارات .

العلمية أو الدراسات الميدانية أو التبادل
 الثقافي ، أو غيره .

(ب) تأهيل الباحث :

لئن كان التعليم الجامعي ، أو ما يقاربه -
 هو القدر المشترك بين كل المؤهلين فإن
 الأعداد المطلوب في مؤسسات التعليم العالي
 هو ما يسمو على ذلك القدر ويفوقه ، سواء
 أكانت نتيجته دبلومات أو إجازات أو
 ماجستير أو دكتوراه أو أستاذه أو متابعة
 للتقدم ومواكبة للتطور ، أو غير ذلك .

والإعداد للأستاذ كما يكون في البيئة
 الأصلية أو الماثلة ، يكون كذلك في البيئات
 العلمية والحضارية والمناخية والدينية المختلفة
 علماً بأن الإعداد أيا كان داخلياً أم خارجياً
 منفعه ومضاره .

(ج) فوائد الأعداد الداخلي :

١ - معايشة الباحث للبيئة المحلية التي
 يتفاعل بها ومعها ، إذ الباحث المبتدئ
 الذي ينفصل عن بيئته ، ولا يتعرف عليها
 إلا عبر الدراسات الميدانية القصيرة
 والزيارات العلمية ، هو باحث ناقص
 الثقافة ، قليل الخبرة ، ضعيف الحصول
 العلمي ، فج المعلومات .

٢ - معالجة الباحث لقضايا الوطن ،
 حيث أن وجوده به يجعله أكثر إحساساً بما
 تعانيه أمتة من مشاكل ، وما يلائم طبيعة
 أهله لها من حلول .

٣- ثبات الباحث على عقيدته ونهجه
الساوكمى المستقيم ، حيث أنه فى وطنه
لا يتعرض لتحذ فكرى أو سلوكى ، يحيد
به عما ألفه مما ينكره دينه وعدم تعرضه
للفتن التى ألفتها المجتمعات غير الإسلامية
مثل الجلوس فى مجالس الخمر ، -ورؤية
الفتيات العاريات ، وتعرضه للمطعومات
المحرمة أو المكروهة .

٤- سهولة ممارسة لأداء الصلوات
التي يجد الباحث مشقة فى أدائها ، - والاستعداد
لها فى المجتمعات غير الإسلامية .

٥- إنصرافه عن المغريات المالية التى
ربما دفعه إلى التفكير الجاد فيها ما يجده بالخارج
من مظاهر الترف والبلذخ التى يستمتع
بها معظم الأوروبيين .

٦- هذا إلى أن التجربة التى يخوضها
الوطن فى سبيل إعداد الباحثين تكسبه
خبرة ودربة وتمكنه من مساهرة التطور
العلمى بإعداد الوسائل التى تسهل على الباحث
أداء مهمته . . أضف إلى ذلك أن وجود
الباحثين بالبلاد ، وتنوع خبراتهم وأبحاثهم
وفهمهم تمكن الوطن من الاستفادة منهم فى
شئى مجالات المعرفة فكرا وأداء .

(د) فوائد الاعداد الخارجى :

١- متابعة التطور العلمى والفكرى
عن كتب :

٢- توثيق العلاقات الشخصية والعلمية
والثقافية مع المؤسسات العلمية .

٣- التعرف على المشاكل التى تعاني
منها المجتمعات غير الإسلامية ومتابعة
وسائل معالجتها توسيعا للمدارك .

٤- إكتساب لغة جديدة أو التعمق فيها
لمن سبق لهم إلمام بها .

٥- الاحتكاك بالأفكار المناوئة للأديان
عموما وللإسلام خاصة .

٦- تبليغ الدعوة الإسلامية لغير المسلمين
عن طريق القدوة الحسنة أو الفكر الثاقب
النير ، أو الاحتكاك الثقافى المثمر .

هذا ولكى يؤدى التدريب الخارجى
الثمرة المرجوة منه للفرد وعقيدته من ناحية ،
وللأمة التى يعايشها من ناحية أخرى ،
أرى أن يسبق الإعداد الخارجى (كورس)
مكثف أو دورة تدريبية قصيرة يلم فيها
الدارس إلماما عاما بموقف الإسلام من
القضايا التى تمس حياته ودينه من مثل :

١- العقيدة الإسلامية واليهودية والنصرانية
عامة .

٢- طعام أهل الكتاب .

٣- الاختلاط ومضارة وحدوده .

٤- الزى المناسب للرجل والمرأة .

قد يتعرض له الباحث أثناء غربته — لتكون مرجعا له ولغيره .

(هـ) الجمع بين المميزات السابقة :

هذا وحتى يمكن الجمع بين فوائد الإعداد الداخلى والخارجى ، نرى أن تعمل الدولة على إيفاد الباحثين أساتذة كانوا أم طلاب دراسات عليا — إلى الخارج ، فى بعثات ومهمات وزيارات عن طريق اللقاءات ، والمؤتمرات العلمية ، والاتفاقيات الثقافية ، وغير ذلك من الوسائل التى تخلق لهم بها قاعدة متينة يمكن الارتكاز عليها فى تبادل المصالح مع العالم الخارجى ، وتسهيل مهمة نشر الفكر الإسلامى ، والدعوة له ، بعد التعرف على احتياجات بيئات المطلوب هدايتهم للإسلام أما الذين ارتبطت مصالحهم الدينية أو الدنيوية ببقائهم خارج المجتمعات الإسلامية فأرى أن تعمل مؤسسات التعليم العالى على خلق صلات قوية بهم للاستفادة من خبرتهم ، وعلاقاتهم ، فى تهيئة المناخ المناسب ، لتحقيق مصالح الوطن الدينية والدنيوية .

(و) المكتبة :

المكتبة هى المصدر الرئيسى للبحث العلمى ، والمنبع الثرى الذى لا يستغنى عنه أستاذ أو طالب دراسات عليا . بنمو المكتبة وتزويدها تنمو وتزداد المعارف — والثقافات ،

٥ — لحم الخنزير .

٦ — الخمر ومجالسها .

٧ — المراهنات والقمار .

٨ — أداء العبادات من صلاة بأنواعها ، وصوم بأنواعه ، وحج ، وزكاة بأنواعها وصدقة ، وخلق ، ومعاملة .

٩ — الزواج بالكتابية أو الكتابى (للمرأة) والمشرقة أو المشرى (للمرأة) مع توضيح رأى الإسلام فى تعدد الزوجات .

١٠ — الفن وحدوده .

١١ — السلم والحرب والجهاد .

١٢ — الأقليات غير المسلمة فى بلاد الإسلام والأقليات المسلمة فى البلاد غير الإسلامية .

١٣ — الرفقة المأمونة للمرأة فى السفر وأثناء فترة البعثة .

١٤ — التوارث بين مختلفى العقائد .

١٥ — الشبهات التى تثار حول الإسلام مثل الرق والطلاق وغير ذلك .

١٦ — الحضارة الإسلامية فى الطب

والهندسة والزراعة والفلك وغيرها

١٧ — التربية الوطنية .

هذا وأقترح أن تتولى مؤسسات التعليم طبع مذكرة مفهومة بما تقدم وغيره مما

وتتنوع وتتوسع المدارك والخبرات ، بيد أن المكتبة لكي تقوم بدورها لأبد لها من

١ - الدعم المادى المستمر لميزانياتها ، والزيادة المطردة لعدد الكتب الموجودة بها . إما عن طريق الشراء أو التبادل ، أو الحصول على الهدايا العلمية - من المهتمين بنمو المعرفة وازديادها .

٢ - التنوع فى وسائل المعرفة التى تهيأ للباحث بحيث تضم المكتبة ما يقرأ أو يسمع ، أو يرى ، أو يلمس .

٣ - الإعداد الفنى للعاملين بالمكتبة ، حتى يؤدوا دورهم أداءاً يتناسب وطموح الباحث مع مراعاة الزيادة المطردة فى عددهم ، فى حدود إمكانيات البلد الاقتصادية من ناحية ، والنسبة المطلوبة للعمل من ناحية أخرى .

٤ - أن ينظم العمل فيها تنظيمياً يناسب وقت الباحث وظروفه .

٥ - أن تهيأ تهيئة تناسب عدد الباحثين ، وقدراتهم الصحية والفنية فى الاستفادة من المكتبة على أن يخصص مأمكن جناح خاص لكل باحث ، يودع فيه كتبه وأدواته وأوراق أبحاثه وغيرها .

٦ - الصلات العلمية بينها وبين باقى مكتبات العالم ، بحيث يتمكن الباحث بواسطة المكتبة من الاستفادة من التراث

العلمى الموجود بالمكتبات العالمية الأخرى ، دون أن يضطر للسفر إلى البلاد المختلفة على أن يكون للمكتبة سجل خاص بمحتويات المكتبات المهمة فى العالم إن لم يكن بكل المكتبات الخاصة والعامة بالداخل والخارج . وقد يساعد فى إعداد مثل هذا السجل الشامل إلزام الحكومات للمواطنين بإثداع قائمة بأسماء كتبهم لدى المكتبة الوطنية أو دار الوثائق المركزية لتؤى هذه بدورها مهمتها فى تغذية الكمبيوتر بكل ما تحصلت عليه من قوائم بعد مراجعة تصنيفها .

(ز) وسائل النشر والاطلاع :

إن البحث الذى يبذل العالم فيه وقته وجهده وتبذل الدولة فيه طاقتها - حرى به أن يرى النور ويستفيد به الغير وتعم به الفائدة ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكمل - المسئولون دورهم فهيئوا للكاتب وسائل النشر للبحث إن كان مقروءاً أو مسموعاً أو مبصراً . وذلك عن طريق :

١ - توفير آلات الكتابة وأدواتها .

٢ - توفير وسائل الطبع والتصوير الآلى وأدواته .

٣ - الأعلام الفنى المستمر عن البحوث بعرض المؤلفات والحوار حولها ، وتسليط الأعضاء على محتوياتها ، وتنظيم لقاءات مفتوحة مع الكاتب ، وتخصيص محاضرات وندوات حول بحثه .

٤ - النشر الواسع للبحوث بالبيع والهدايا والتبادل وغير ذلك .

(ح) المنهج :

إن أبرز أهداف البحث الإسلامى هو أن يكون دعامة أكاديمية ، وتخطيطاً عملياً ينمو به فكر الأمة وعقيدتها ، ويرتقى به أداؤها ، فيه تلتقى الأفكار ، وتتصارع الآراء وتتفاعل التجارب ، فيثمر هذا وينتج ذاك أنموذجاً متكاملًا حياً لما يتطلع إليه العلماء ، وينشده الباحثون والمفكرون والخبراء ، وذلك عبر منهج علمى وعملى مدروس يراعى فيه :

١ - إمكانية التطبيق مع المرونة .

٢ - القدرات الفعلية والعلمية والفنية للمستفيدين من البحث .

٣ - الالتزام التام بمنهج القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٤ - مراعاة ظروف البيئة كلما أمكن ذلك .

٥ - المعاصرة والابتكار مع عدم الخروج عن الخط الإسلامى .

٦ - تحديد الأولويات وترتيب الموضوعات وفق الأهمية والحاجة .

٧ - تسليط الضوء على المساهمة الإسلامية فى الفكر الإنسانى ، ورفى المخلوقات

٨ - الربط الوثيق بين المناهج الدراسية

ومتطلبات التنمية الفكرية ، والروحية والعملية .

٩ - تنويع البرامج الدراسية بحيث تستطيع

مواجهة القدرات والاستعدادات المتباينة .

١٠ - دعم البرامج الدراسية بالمقومات

التي تتيح للباحث مواجهة الحياة العملية فى الحاضر ، والتكيف مع احتياجات المستقبل والمساهمة فى قيادة حركة التقدم والتنمية والتطور ، ومن أبرز هذه المقومات إثارة خيال الطالب الدارس وتحريك بواعث الخلق والابتكار فيه .

١١ - تنظيم برامج لتدريب الباحثين

كل فى مجال تخصصه وذلك بمواقع العمل المشابهة خلال مدة الدراسة ، وفى العطلات الصيفية لتمكينهم من اكتساب المهارات وتوسيع المدارك والقدرات .

(ط) مثالب المناهج الحالية :

هذا ومناهج مؤسسات التعليم العالى الحالية أبعد ما تكون عن تحقيق رسالتها إن لم تكن فى بعض الأحيان معولا لهدم الفكر الإسلامى وتقويضه لشأنه ونسفا لأركانه فهى فى مجال الأدب النثرى والشعرى وتربى فى الطلاب النزاع الحيوانية وتثر الغرائز الجنسية وتبدع فى تجسيد مفاتن المرأة وتجيبب الخمر للناشئين ، وهى فى مجالى المدح تمدح كل عظماء الرجال لا تستثنى أحداً غير

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعطى
نماذج لكل أثر فني ونص أدبي لا
تستثنى غير نصوص القرآن الكريم وأحاديث
الرسول عليه السلام ، وتفتخر بكل شيء
لا تستثنى شيئا غير الإسلام .

كما أنها في مجال اللغة تقلل عمدا من
مكانة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
وتنادى أسوة ببعض المدارس بالاعتماد على
الشعر الجاهلي بدلا عنه .

وينادى بعض أساتذة التاريخ فيها بما
ينادى به الكفار ، ودعاة تفتيت الوحدة
الإسلامية حين يصورون للشباب الدولة
التركية مركز الخلافة الإسلامية ورمز الوحدة
الدينية آنذاك ، بأنها دولة مستعمرة ، ناسين
بأن وقوع الظلم من بعض أفرادها لا يبرر
تفتيت وحدة الأمة الإسلامية الممثلة في
سلطانها ، ويفيض البعض في الشناء على
الحضارة الأوربية قاصرين دور الحضارة
الإسلامية على مسائل حدثت في القرون
السابقة ، وكأنهم بذلك يبترون حاضر الأمة
الإسلامية وحضارتها من ماضيها وتراثها .

ويغض المشولون بمؤسسات التعليم
العالي الطرف عن الجرائم النكراء التي يرتكبها

علماء الآثار حين يكسرون عمدا الآثار
الإسلامية بالسودان وغيره ، ويهملون فرحا
وطربا للآثار النصرانية وغيرها ، مع علمهم
بأن الصمت على مثل ذلك ، والاعراض
عن رعاية الآثار الإسلامية سيمكن أعداء
الإسلام من طمس كل أثر إسلامي للبلاد
ويضفي عمدا الطابع النصراني على بعض
أجزاء الوطن الإسلامي .

وفي مجال التاريخ كذلك لا تعنى مؤسسات
التعليم العالي بما تعرض له القرآن الكريم
من حوادث تاريخية ، بل أن بعض أساتذتها
ليصرف النظر عن القرآن الكريم ، بدعوى
أن التواريخ الدينية لا تصلح أساسا للتواريخ
العلمية ، وهي فرية (علمانية) ركلها العلماء
المحدثون ، كما يؤكد ذلك العقاد في كتابه
أبو الأنبياء الخليل (١) :

وفي الجغرافيا لا يعنى المنهج بالآيات القرآنية
ذات الطابع الجغرافي ، كما لا يعنى بعمل
دراسة علمية يحدد فيها بالتعاون مع قسم
التاريخ أماكن البلاد التي أشار إليها القرآن
الكريم .

وقسم الفلك يزاور عن الدين ذات المي
وذات الشمال ، متناسيا دوره في تحديد

(١) العقاد : أبو الأنبياء الخليل صفحة ١٣٥ طبع سنة ١٩٥٣ م وراجع الحياة العقلية في ضوء
لفلسفة الإسلامية للدكتور حسن الفاتح طبع مطبعة الأمانة بمصر سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م والنظم والمظاهر
الحضارية عند العرب للدكتور حسن الفاتح طبع دار الجليل ببيروت عام ١٩٩٠ م .

الشهور العربية ومنها (رمضان) وتحديد مواعيت الصلوات العادية وصلوات الخسوف والكسوف والاستسقاء، ودوره كذلك في إحياء التراث الإسلامي في الفلك وجمعه، وتصنيفه ودراسته دراسة علمية معاصرة، ودوره في متابعة ورصد التقدم العلمي في مجال دراسات الفضاء والاسهام فيه، ويتصم المسؤولون بمؤسسات التعليم العالي آذانهم عما يجري من عبث وتخطيط للمثل والقيم في دور السينما والمسارح، مكتفين بمشاركة الناس استنكارهم بالقلب واللسان، محجيين عن الإقدام على عمل إيجابي، يقدم للناس البديل ويدرب من يعملون في مثل هذه الميادين ويشققهم، بما يربطهم بدينهم وتراثهم وحضارتهم من ناحية، وبتقاليد مجتمعهم وأعرافه من ناحية أخرى، علما بأن (فيلما) واحدا غير هادف، أو تمثيلية ضالة قد تحطم أخلاقيا ما بنته مؤسسات التعليم العالي في أعوام؛ واكتفى واضعوا مناهج اللغات بتنزيل مكانة الجامعات بما يجعلها أشبه بمدرسة إبتدائية أو ثانوية لتعليم اللغة بل وأسوأ من ذلك أن عمل هؤلاء على التركيز على حضارة الأوربيين متناسين بأن من الأغراض الأساسية لإنشاء مثل هذه الشعب هو أن تكون أداة لتبليغ رسالة الإسلام شفويا وكتابيا للأمم الناطقة بمثل تلك اللغات بعد أن يتمثل طلاب شعبها ثقافة الإسلام وعقيدته وحضارته بنفس اللغة.

وظن بعض واضعي مناهج الدراسات الإسلامية أنهم بمقارنتهم بين الحق والباطل يرفعون من قدر الإسلام، علما بأنه لا مجال للمقارنة إلا بين الأشياء المتماثلة، وما دام القرآن من عند الله الذي وعد بحفظه والكتب السماوية الأخرى قد حرف أصحابها الكلم عن مواضعها فإن مجرد المقارنة بينهما تسيء إلى الدين الإسلامي وتخرج بحامل لواء المقارنة فردا أو هيئة، عن جادة الطريق وصدق الشاعر إذ يقول:

ألم تر أن السيف ينقص قدره

إذا قيل هذا السيف خير من العصا

وينحرف واضعوا منهج التربية حين يحيدون عن الصراط المستقيم، ويتخذون مثلهم الأعلى في التربية أقواما تختلف عقيدتهم عن عقيدتنا، وفلسفتهم في الحياة والمنهج السلوكي والأخلاقي والتربوي، عن مناهجنا، ومن ثم يهملون أمر التربية التي وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب... التربية التي لا تختصر على إعداد المعلم إعدادا فنيا، وإنما إعدادا إنسانيا، وخلقيا، بحيث تخرج دراسته مع سلوكه فيعيش التربية داخل الفصل وخارجه، يراعيها في علاقته بالله وبالدين، وفي علاقته بوالديه وأسرته، وفي علاقته بالمجتمع، بل وفي رعايته لممتلكات الدولة، وممتلكات الآخرين

وأعراض الناس ، ودمائهم ، وأموالهم
يراعونها حتى في تعامله مع الحيوانات التي
أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم .

التربية التي ننشدها هي تلك التي تخلق
من الفرد مسلماً يكون الرسول صلى الله
عليه وسلم أسوته في الحياة المادية والروحية
إذ لم يحدث أن فصح الرسول صلى الله عليه
وسلم بينهما وكان حتى في المعركة الحاسمة
يوم بدر والأعداء يحفون به من كل جانب
كان يطيل السجود والدعاء ، مدركاً أن
النصر من الله لا من السلاح . . .

التربية الحققة هي التي يكون شعارها
(واتقوا الله ويعلمكم الله) . . . « ومن
يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث
لا يحتسب . . . » (ومن أعرض عن ذكرى
فأن له معيشة ضنكى) .

تلك هي فلسفة التربية التي من أجلها تضع
الملائكة أجنحتها لطلاب العلم ، وهي ذاتها
فلسفة التربية التي يساوى مداد العلماء فيها
دم الشهداء . . .

والتربية بهذا المفهوم كما يكون التدريب
العملي فيها بالتدريس في الفصل أو المشاركة
في الحصة أو المحاضرة ، يكون كذلك
بالمشاركة في الصلوات ، والأذكار والأوراد ،
وأنواع التكريم التي تربى الشباب على حب
الرسول صلى الله عليه وسلم ومقتنى أثره .

لقد آن لنا أن نبرز شخصيتنا كأمة ذات
حضارة وثقافة وعلم وتراث ، آن لنا أن
نتحرر من الأسر الفكرى النصراني واليهودى
الذى كتب علينا أن نسير فيه وكأننا بذلك
نصنف أنفسنا تحت من عناهم الله تعالى
بقوله (الذين استحبوا العمى على الهدى)
وقوله : (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وقوله :
(اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون
أنهم مهتدون . . .) .

ومناهج الفلسفة كمثيالاتها تحتاج إلى ثورة
تماثل ما قام به الغزالي وهو يردّها إلى
الحادة ويصفيها من شوائب الكفر ويسبغ
عليها الشخصية الإسلامية فمناهج الفلسفة
ما تزال تتعسر في الهاوية التي ادرغت فيها
حين قسم النصارى واليهود مراحلها إلى
يونانية ، ووسطى ، وحديثة ، ومعاصرة
وزجوا عمداً بفلسفة المسلمين في تيار القرون
الوسطى في حين فتحوا لأنفسهم الباب حتى
العصر الحاضر ، فظللنا نسمع بفلسفة
مسيحيين ما زالوا أحياء ، بينما أحكموا قفل
باب الفلسفة على المسلمين ، فكان الكتاب
إذا ما أشاروا إلى الفلسفة الإسلامية لا يشيرون
إلا إلى ابن سينا والفارابى وأضرابهم
من عاشوا حوالى القرن الخامس الهجرى .

وأقام الغربيون للفلسفة اليرنانية شأنًا
عظيماً حين أشادوا بالفكر الأوربى ممثلاً
فيها ، بل بالغ بعضهم فاعتبر الفلسفة الإسلامية
جسراً عبّّر به الفكر اليونانى الأوربى إلى

أهله ، وفرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا فكريا لدحض ما ألصق بهم من تهمة ، بل لقد ألفت آذانهم سماع تلك الافتراءات فصصدقها بعضهم ، وصاروا ينادون كغيرهم بأن الفكر الانساني كان قبل اليونانيين طفلا متجاهلين أن الفكر الانساني بدأ ببداية سيدنا آدم ، وسيدنا آدم رسول بلغ من الفكر الذروة وكذلك كان ابناؤه من الأنبياء الذين سبقوا اليونانيين^(١) .

لقد أصبح دعوى المعجزة اليونانية ستارا يخفى وراءه دعاء تحطيم ما أسموه بالفكر الحامى ليتسنى للأوربيين وصل ما يزعمونه من حاضر حضارى بماض تليد يمثاله فى الحضارة النسبية^(٢) .

وكان علم الاجتماع كالفلسفة بعيدا عن الواقع الحضارى للأمة الإسلامية عامة والوطنية خاصة فقد ارتبط فى بعض نواحيه بالفكرة الأوربية بدلا من الفكرة الإسلامية وأغفل احتياجات الإنسان الروحية مع اتفاق المختصين من علماء الاجتماع بأنها أعظم الحقائق بالنسبة له ، وأبعد نفسه عمدا عن نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى ، مع أنها الأساس الذى

ينبنى عليه الكيان الاجتماعى فى الإسلام وأهمل وصل العلاقة بين السلوك الإنسانى والشرعية الإسلامية وتبنى بعض المقلدين فيه دون وعى فكرة (دور كاي) (الأحادية) التى تقول بأن الدين ظاهرة إجتماعية . ونصبوا من أسس غير إسلامية معايير يحكمون بها على سلوك الإنسان ، ناسين أن هدفهم الأساسى هو دراسة ووصف وتفهم معنى الحياة والسلوك واكتشاف أسباب ذلك إنطلاقا من عقيدة الأمة وتراثها ومفهومها عن الحياة والعمل والعلاقات الإنسانية إذ العقيدة عامة والإسلامية خاصة باعتراف علماء الاجتماع هى أقوى النواحي الثقافية التى تسيطر على الناس فى البلاد الإسلامية ومن ثم فإنه لا يمكن تجاهلها عند تخطيط أى برنامج للعمل بينهم .

وما قيل عن الناحية النظرية يقال عن التدريب الذى قد يختلط فيه الرجال بالنساء كما تختلط فيه فلسفات التربية ببعضها لنتج ما هو وبال على الفكر والتقاليد والمثل والقيم ومن ثم يكون المدخل للتدريب فى حد ذاته مناهضا لفلسفة الأمة التى يراد تدريب مصلحيها . فتبدأ بذلك ومنذ أول وهلة

(١) لدحض هذه الفرية علمنا ألفت كتابا كاملا أسميته نشأة التفكير فراجعه .

(٢) للعقاد : ابليس طبع للقاهرة ، والحياة العقلية فى ضوء الفلسفة الإسلامية للدكتور حسن الفاتح

طبع للقاهرة سنة ١٩٧٨ وطبع بيروت سنة ١٩٩٠ م .

مظاهر الفرقة بين المجتمع وبين من نصبوا أنفسهم لأصلاحه هذا إلى أن التدريب حين يمارس لاتعطى الأولوية فيه لما يمس حاجة الأمة وتحقيق رسالة التعليم ، الأمر الذى يجعل التقليد فى موضوعات التدريب مظهرا من مظاهر العمل الاجتماعى عندنا .

أضف إلى ما تقدم أن المسئولين يفصحون أنفسهم عن مجتمعهم وأسرته حين يتجاهلون دور التصوف فى حياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية والتاريخية والعلمية فلا ينشئون لدراسته مركزا أو يخصصون له معهدا ؛ علما بأن أقدم مرجع بأيدينا حين يؤرخ لا يؤرخ إلا للمتصوفين وأبرز من حملوا لواء الدعوة إلى الله باعتراف جميع الناس هم رجال التصوف ، وأشهر قادة ارتباطهم بآبائهم بمجد السودان وسياستهم بتراث الأمة وعقيدتها ودينها هم من نتاج وتربية المتصوفة .

بل إنك لا تكاد تجد أسرة بالسودان إلا ومعظم أفرادها ينتمون إلى المتصوفة اما تطرقا ، أو ولاء حتى أنك لتستطيع أن تميز من أسماء الأسرة نوع (الطريقة) التى ينتمون إليها ، واسم الشيخ الذى ينتسبون إليه . . . هذا إلى أن تراث المتصوفة ومؤلفاتهم هو الثروة الدينية الوحيدة التى

يتأخر بها السودان . . ولا أحد يمارى فى أن أثر تربيتهم لمريديهم هو الأثر الوحيد الذى نعتز به حين نتحدث عن أخلاق السودانيين وكرههم ؛ فبيوت المتصوفة هى الفنادق المجانية التى يستطيع أن يؤمها الفرد وأسرته فى أى لحظة ، بل ويتزود بالإضافة إلى الضيافة ب زاد مالى قد يصل حد إنشاء المنازل السكنية ، والمتاجر ، وتمليك العربات ولم يحدث سابقا أو حاضرا أن بنى مسجد غير حكومى بالبلاد إلا وكان منشئه شيخ طريقة صوفية أو مريدا من مريديه وما قيل عن المساجد يقال عن (الخلاوى) القرآنية ، والزوايا ، وبيوت الضيافة والسبائل (جمع سبيل) بل أن المتصوفة وجهوا مريديهم بإنشاء المعاهد والمدارس والمستشفيات والمصحات وقد افتتحت الدولة عددا منها .

إن من ينكر أثر التصوف إنما ينكر ضوء الشمس ، وصدق الشاعر إذ قال :
عالج عيونك كى تحظى برؤيتهم
فليس تدركهم عين بها رمد^(١)
والآخر الذى يقول :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

(١) راجع ديوان الشيخ محمد على يوسف (مخطوط) .

وتمثل شعبة الاقتصاد الحالى بالجامعات حاميا لفكر الغرب المتمرد على نصرانيته ويهوديته . . فاذن أقام الغير لفكرهم الاقتصادى ناطحات التحدى للأمم التى أسموها نامية فقد أعرض عن التحدى علماء الاقتصاد عندنا واكتفوا بفتح نافذات فى بناء الغرب الاقتصادى يطلون بها على نظمهم الاقتصادية ، ويكاد الفرد منهم لا يتحدث عن نظرية فى الاقتصاد الإسلامى إلا عبر ما درسه من نظريات غربية . أما من لا يؤمن بجداوى الفكر الإسلامى فى الاقتصاد فى آذانهم منه وقر ، وهو عليهم عمى .

وجاءت تسمية وحدة الدراسات الإضافية ببعض الجامعات ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية التى نقلت عنها ، كما جاءت تقليدا لما هو عند الآخرين وإلا فكيف يتسنى لنا مثلا أن نزع أن البناء الفكرى للفرد فى مجالات الدراسات الإسلامية والفقهية والعربية وغيرها - عمل إضافى بالمفهوم العربى لكلمة إضافى . . إن ما تقوم به هذه الوحدات هو فى الواقع عمل تأهيل أو تكميلي ومن ثم كان الأولى أن تسمى بكلية أو معهد الدراسات التأهيلية أو التكميلية .

وللجامعات دور أكاديمى فى الافتاء حيث أنها مؤسسات علمية تضم أكبر عدد من المتخصصين ممن يلجأ إليهم الناس فى الفتوى فى الأحياء والشوارع وغيرها . .

ومن ثم كان على مؤسسات التعليم المختصة أن تحيى ما أرم من عظام لجانها التى كونتها ليشهد المحتفون بميلادها إسدال الستار على دورها إن لم يكن وأدها .

هذا ويكاد فريق من العلماء حين يتحدث أو يكتب فى المواد الإسلامية يعتمد اعتماداً كاملاً على المفهوم المعاصر للنصارى واليهود لها ، بل ويجعل كتبهم له مراجع لا يأنف من ذكرها ، إن لم يفتخر أمام الغير بأنه باستعماله لها يصير بحثه ، بحثاً علمياً ، به يتوخى الحياد الموضوعى ، ويستخدم فيه الأسلوب المنطقى . . ومن المؤسف أن مثل هذا الأسلوب قد جاز على الكثيرين فى غير عهد الصحوة الإسلامية ، فأنكروا معجزات الأنبياء ولم يتسع فكرهم لقبول إحياء الموتى ، وإبراء الأكف والأعمى وشفاء العاقر ، وإحداث الخلق غير المألوف للحوادث وتسبيح الحصى وحنين الجذع وسلام الحجر والمدر ، ومعرفة الطيور بالله تعالى ، والتحدث مع الحيوانات ، ووجود خلق لا يرى حتى (بالميكروسكوب) ولا يكتشف حتى (بالرادار) يشاركونهم أحيانا فى الأكل والشرب ، والتناسل والتكاثر ، والحركة ، والكلام ، والصلاح والتقوى ، والفسق ، والفجور ، والعصيان وقد يفوق آخرون منهم الإنسان قوة وعددا وحركة ، وطاعة ، وعلو مكان ، وسعة إدراك من غير أن يتناسل ذكر عن أنثى ، أو

أننى عن ذكر ، ودون أن يتمف العوائق
الطبيعية ، أو مرحلة (إنعدام الوزن) عقبة
فى طريق أداء مهامهم فى الحياة . إن هؤلاء
أقد مرقوا بانكارهم للغيبيات مروق السهم
من الرمية ، ذلك أن إنكارهم للغيبيات يعد
إنكارا لما عرف من الدين بالضرورة ، يقول
تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون
الصلاة . . . الخ) أضف إلى ذلك أن
إنكارهم لمثل ما تقدم فيه تكذيب لبعض
ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومن كذب ببعض ما جاء به عليه السلام
كان كمن كذب به كله (١) . كما يقول
ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث ، هذا
ونسب بعضهم الشفاء للعقاقير ولما يمتاز به
بعض الأطباء من مهارة ودربة وخبرة وعلم
رافضين قبول غيرها كوسيلة مجربة ناجحة
للعلاج ، وكأنهم بذلك يحجرون واسعا
ويضيقون فسيحا ، ناسين أن الشافى الحقيقى
هو الله وحده ، وأن من لم يشفه القرآن فلا
شفاء له كما يقول رسول الله صلى الله عليه
وسلم (٢) وأن :

من يقل بالطبع أو بالعادة
فذلك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة
فذلك بدعى فلا تانتفت
واختلط على شبابنا تبعا لذلك الحابل بالنايل
فتارة يؤمنون بالغيب وأخرى به يكفرون
وتارة يتخذون الرسول صلى الله عليه وسلم
لهم أسوة ، وأخرى ينكرون قبول أقواله
وأفعاله وتقريراته ، ووجد من ينادى من
هؤلاء تجملا للكفار بجواز ما حرمه الشرع
فقال بعضهم إن الأمر بالاجتناب فى موضوع
الخمر لا يعنى الحرمة ، وأجاز البعض
الآخر زواج الكتابى من المسلمة مع
وجود النص الشرعى المانع واعتلى حزب
منهم منصة الثورة على كل التراث الإسلامى
فأنكروا قبول الحديث النبوى ، ونادى
آخرون بأن الإسلام لا يصلح للقرن العشرين
وجاء من ظن منهم أنه يحسن صنعها فقصر
الصلوات المكتوبة على أقل من خمس فى
اليوم والليلة . وعزف فريق على قيثاره
الحب الماجن بدعوى أن الله جميل يحب
الجمال مستدلين على زعمهم بقوله تعالى :
(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده)
وفتح البعض لنفسه باب النبوة ليخاطب
الناس باعتباره دابة للارض تكلمهم إذا

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٨٨ .

(٢) رواه ابن نافع عن رجاء الغنوى .

وقع عليهم القول . . . واستخدم فريق من هؤلاء أسلوب الشتم ، والسب ، القذف والطعن . والسخرية ، وسيلة لإثبات الباطل وتقويض دعائم الحق . .

كل ذلك وأمثاله كثير ، صب في القالب الإسلامي عمداً أو جهلاً فتراكم بذلك الخطأ ، وعظمت المسؤولية ، وجل الخطب ، ومن ثم كان على مؤسسات التعليم دور مزدوج تبدأ التحلية فيه بعد التخلية أو البناء بعد الهدم ،

(ى) عام التدريب الإلزامى أو علاج هجرة العقول :

تشكل ظاهرة هجرة العقول خطراً يهدد مستقبل البلاد العلمى والعملى ويؤدى عاجلاً أو آجلاً بحياة الأمة ، ويحد من رقيها وتطورها . . ومن ثم كان على الدولة أن ترسم سياسة مزدوجة تعمل فيها من جانب على الحد من هجرة العقول ، وتعمل من جانب آخر على توفير العدد الكافى من المؤهلين ، وذلك عبر وسائل مختلفة أهمها أن تتدخل المرحلة الدراسية لطالب الدراسات الجامعية سنة إلزامية يقضيها فى التدريس ، وفى الدعوة إلى الله ، وفى العمل فى الميادين التى تتفق وتخصصه على أن يقيم إنتاجه فيها ويرصد مع نتائج العام النهائى له ، فترفع بذلك درجاته فى (البكالوريوس) أو تقل وبها كذلك يتحدد قبوله طالباً بالدراسات العليا أو موظفاً بالدولة على

أن لا يسمح له إطلاقاً بالاستمرار فى إكمال دراسته الجامعية أو ما يعادلها ما لم يؤد واجبه بأتقان خلال عام التدريب الإلزامى له ، ويحصل على وثيقة بذلك من جهات الاختصاص التى قضى معها عام تدريب . . ويفضل أن يبدأ تطبيق هذا النظام الإلزامى بعد أن يعمم نظام الساعات الدراسية (المقررات) بمؤسسات التعليم العالى حتى يتمكن الطالب من إكمال دراسته فى نفس المدة التى كان عليه أن يكملها فيها لو ظل يدرس وفق نظام العام الجامعى المألوف ، أو نظام السنة الكاملة .

هذا ومن البديهي أن مثل هذا النظام من التدريب يكسب الطالب مهارات فنية ويوسع مداركه ، ويربطه ربطاً حقيقياً بواقع العمل ، ويخاق له عند عودته للدراسة حيوية ونشاط وإقبالاً ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يقضى قضاء تاماً على الأثر السلبي لهجرة العقول . فالمدارس مثلاً تجدد على الدوام من يقوم فيها بأداء العمل وفق التخصص العلمى المرغوب فيه دون أن تتحمل الدولة نفقات باهظة ، وكذلك الحال فى دور العبادة ، وساحات التثقيف العام ، ومكاتب الدولة ، والمزارع ، والمصانع ، والشركات ، وغير ذلك من الوظائف التى لا يؤثر على سير الأداء فيها غياب ذات الفرد منها بعد انتهاء العام المحدد له بها .

أضف إلى ما تقدم أن دائرة التدريب الإلزامي يجب أن تتسع بحيث تمتد إلى كل عمل داخلي أو خارجي يقع تحت إشراف الدولة ومسئوليتها ورعايتها ، فالدعوة إلى الله مثلا كما تكون لتثبيت العقيدة بين المؤمنين في الداخل ، تكون لتأصيلها وتأسيسها بين غير المؤمنين بالخارج ، ومثل الدعوة في ذلك عمل السفارات والشركات والوزارات التي لها مدارس أو مكاتب بالخارج .

هذا ولئن اشترطت بعض الدول على الطلاب ممارسة أنواع معينة من الرياضة بصفة إجبارية كالسباحة وغيرها^(١) فإن حاجتنا لتوفير العقول تجعلنا نشترط مثل ذلك النوع من التدريب الإلزامي الذي يسد حاجة البلاد في مختلف التخصصات .

٢ - الميدان الروحي :

كادت العلوم الإسلامية بمفهومها العرفي تشابه نظيراتها ، بعد أن تجردت عن الروح وابتعدت عن ميدان التطبيق ، واقتصرت على الناحية الأكاديمية علما بأن بعضها لم يفهم سابقا إلا مصحوبا بالعمل ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ألا أنبئكم بالفقيرة كل الفقيرة ؟ قالوا بلى . قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤيّرهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى سواه . وسأل فرقد السنجي الحسن رضي الله عنه عن الشيء فأجابه . قال : إن الفقهاء يخالفونك فقال رحمه الله ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه ، الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم . ولم يقل في كل ذلك الحافظ لفروع الفتاوى^(٢) .

وما قيل عن الفقه يقال عن التصوف فقد كاد يحيله بعض الكتاب إلى علم للجدل إذ أضاعوا وقتهم وأفرغوا جهدهم في مسائل هي بمثابة (اللافتة) للمحتوى فتنازع الباحثون حول أصل التصوف ومنشئه وأكثروا من الكتابة حول تأريخه ، واصطلاحاته ، وأطلق بعضهم لنفسه العنان ليتصور حالة أهل الذوق والكشف مع قصر أفهام الخلق عن ذلك كما يقول الإمام الغزالي في الإحياء^(٣) .

(١) الإدارة الجامعية للدكتور النشار صفحة ٢٧٢ .

(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين .

(٣) الغزالي : الإحياء ج ١ ص ١٢ .

لقد تعرضت العلوم الإسلامية عبر تاريخها لتحريف في أسماؤها ، وتبديل ونقل خرج بها عن دائرة المفهوم الأصلي لها إلى معان أخرى ، غير أن أسوأ ما تعرضت له كل تلك العلوم هو إفراغها من الروح وإبعادها عن دائرة العمل ، وإلباسها ثوبا ضيقا ما تزال تبجهد نفسها في التخلص منه والأنعتاق من دائرته .

فالتوحيد الذي كان مفهومه سابقا رؤية الأمور كلها من الله رؤية تقطع التفات الباحث عن الأسباب والوسائط صار صناعة أكاديمية مهمتها الأمام بمناقضات الخصوص والقدرة على الحدل ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الالتزامات^(١) .. ولف التيار علماءه فغفلوا عن لب التوحيد ، وتمسكوا بالقشور فلم يعد لهم هم سوى إثبات مفهوم التوحيد المناقض للتثليث ، ذلك أن الشرط عندهم هو أن يقول الفرد بلسانه لا إله إلا الله فإذا قالها — ولو نفاقا — ارتفعوا به إلى مصاف المؤمنين العارف بالله .. علما بأن مفهوم التوحيد الحق لا يتأتى لمن التفت ولو لحظة لغير الله .. إنه الاستغراق في الله عبر ما أعد لهذا الاستغراق من طريق

أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم برياض الحنة أو مجالس الذكر التي شعارها (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) .

إنه الذكر الدائم لله والتذكير المتواصل للآخرين به ، إذ ليس سوى الذكر غير النسيان أو الأعراض .. وقد حذر المولى من ذلك فقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى) .

والذكر كما يكون بالفكر يكون بالحركات الرياضية التي تنشط الجسم ، وتطرد الملل وتذهب الرتابة وتطيل فترة العبادة ، على أنها في الحالين تطمئن القلب ، وترضى الرب ، وتكون عاملا جاذبا لحضور الملائكة فقد ورد في الحديث النبوى عنه عليه الصلاة والسلام : إن لله ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضا ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتونهم فيحفون بهم ويستمعون .. ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم^(٢) .

أما الفقه فقد خرج به العلماء عن دائرة معناه الأصلي فجعلوه قاصرا على معرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف

(١) للغزالي الإحياء ج ١ ص ٥٠ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

على دقائق علمها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها ، وأكثر اشتغالا بها يقال له الأفقه .

ولقد كان اسم الفقيه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة . واستيلاء الخوف على القلب وبذلك عليه قوله تعالى : (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) . وما يحصل به الإنذار والتخويف ، هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق ، والعتاق ، واللعان والسلم ، والأجارة . فذلك لا يحصل به إنذار ، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الحشية منه (١) .

ويتصل بأمر الفقه الصلوات والصيام والحج والزكوات وكلها عبادات ممزوجة بأعمال غير أنها إن كانت عند البعض تؤدي بروح وإخلاص فهي عند الآخرين قد أفرغت من الروح وصارت تؤدي كواجب .

أخلص مما تقدم بأن مفهوم العلم أيا كان موضوعه قد مر بمرحلتين :

١ - حرف في أولها وبديل ونقل ، حتى أصبح للدين علوم ، وللدنيا علوم . .
علما بأنه كان قد أريد منه سابقا العلم بالله تعالى ، وبآياته ، وبأفعاله في عباده وخلقه . وهو مفهوم عام كان ينتظم جميع العلوم ما عرف منها وما لم يعرف .

أما في الثانية فقد أفرغ من محتواه الروحي وجرد من مراعاة الله فيه ، بحيث صار مفهوم العلم أخيرا مغايرا لمفهوم العبادة ، علما بأن كل علم أو عمل إذا صاحبه النية الخالصة في العبادة كان عبادة حقيقية . فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

إن على المسئولين وقد آلوا على أنفسهم النهوض بشأن التدريب والبحوث ، أن يردوا طلاب العلم إلى جادة الصواب ، ويغيروا من مفهوم العلم والعمل عندهم ، ويحثوهم على مراعاة الله وتقواه في كل عمل أو علم يقومون به على أن يوفروا لهم كذلك دور العبادة في المؤسسات العلمية ويدربوهم على الحج وعلى آلات الرصد الفلكي وعلى استعمال أجهزة (الكمبيوتر) المختلفة ومعمل اللغات التي يستعان بها في دراسة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف وينوعوا لهم مناهج الأداء في أسلوب التربية إذ من العجيب أن تبدل

(١) الغزالي : الأحياء ج ١ ص ٤٨ .

الدولة أقصى إمكاناتها المادية والبشرية والفنية ، لترقية الأداء الرياضى للطلاب إذا كان بعيدا عن العبادة وذكر الله ، وتحجيم بل وتستنكر أن يقام للذكر الحركى أو الرياضى مكان بمؤسسات التعليم .

روحيا وخلقيا ورياضيا ، فلإننا نصنع منه إنسانا قادرا على الوفاء برسالته نحو الله . ونحو الإنسانية ، ونحو الوطن ، ونمكنه من التعامل مع المجتمع بحكمة وكفاءة^(١) .

٣ - الرعاية الشاملة للباحثين والمدرسين :

تعد الرعاية الشاملة للباحثين بكافة أنواعها وأبعادها الاجتماعية والصحية والرياضية والثقافية والترفيهية ، عاملا أساسيا ومهما في إعداد المتعلم ، وفى بناء جسمه ، وتكوين شخصيته ، وتهذيب سلوكه وصقل مواهبه ولتوفير ذلك بصورة أفضل تشترط بعض المؤسسات العلمية أن يقيم طلابها فى مدن جامعية خاصة ، لتنشئهم التنشئة المتكاملة التى ترغب فيها .

هذا إلى أن إعداد العناصر الخيرة من الباحثين يتطلب بالضرورة توفير أسباب الرعاية باختلاف أنواعها لهم . فالباحثون مهما بلغت مقدرتهم فى حاجة ماسة إلى توفير أسباب الاستقرار السكنى ، والمعيشى وغيره لهم ليتمكنوا بذلك من الانصراف للمهام العلمية الملقاة على عاتقهم ، إذ العقل السليم فى الجسم السليم ، وسلامة الجسم تتطلب توفير الصحة الوقائية^(٢) والعلاجية^(٣)

على مؤسسات التعليم أن تقوم بتربية الشباب تربية روحية وخلقية وترفع بين وجدانهم فاعلية الضمير ، وتدريبهم على إدارة وتصريف الأمور كلها على أن يعلموا أن المولى معهم حيثما كانوا إذ (ما يكون من نجوى صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يعلمها) وهو (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

إن مؤسسات التعليم - كما هو معلوم - هى المكان الذى يجرى فيه إعداد الفرد بشكل علمى ومنظم ، ليصبح إنسانا متكاملا عقلا وجسما ، وضميرا وسلوكا فينهض برسالته التى حملاه الله بها ، بأن يكون خائفته على الأرض يعمل على عمارة الكون . وتنمية المال الذى استخلفه عليه الله ، وينشر الحضارة ويرفع ألوية الحق والرشاد ، ويقيم الموازين بالقسط ، عذما بأن تنمية قدرات الفرد على التحليل والبحث العلمى فحسب ، تحيل الفرد إلى آلة غير أنا إذا أضفنا إلى ذلك تنمية ضميره ، وتربيته

(١) دكتور / محمد حمدى النشار : الإدارة الجامعية - التطوير والتوقعات ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) راجع : الصحة الوقائية فى الإسلام للدكتور حسن الفاتح .

(٣) راجع الراهين الشرعية والعقلية فى إثبات الطب القرآنى للدكتور حسن الفاتح .

بمختلف أنواعها ، كما تتطلب الأبحاث والتنوع في النشاطات الرياضية ، مثل السباحة والرمية وركوب الخيل وألعاب القوى ونوادي الفتوة التي ابتدعها المتصوفة ، وأكلوا لها خدمة المجتمع ، وتنمية المواهب الفكرية والخلقية والعضلية والروحية .

أضف إلى ذلك الاهتمام بالنشاط الترويحى فإن العقول إذا كلت ملت على أن لا يتضمن هذا النشاط وسابقه شيئا مما حرمه الله ، أو كرهته الشريعة الإسلامية أو تعارض مع مصالح الأمة .

هذا وبما أن الباحث أو المدرب لإنسان فيجب أن توفر الدولة له كل مقومات الإنسانية فتربى شخصيته وتحفظ عليه كرامته وتساعد في حل مشاكله وتعينه على أداء عباداته ورياضاته الروحية التي يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تعينه كذلك على اختيار العمل المناسب ، وتعاون معه في توفير المناخ الملائم لتربية أفراد أسرته وذويه ، وتولى عناية خاصة للثابة المالية التي تمنحها له .

واقترح في هذا المجال أن يستبدل النظام الحالى المعمول به في تحديد المرتبات لبعض البلاد بالنظام المثالى الذى تطبقه بلاد أخرى .

ويقوم النظام المقترح على تحرير البحوث من الأسر المادى الذى وضعت فيه ،

فالباحث الأكاديمى والتدريب الفنى . ، أسمى وأرفع من أن يدفع إليه الباحث دون رغبة أو أهلية ليصبح بذلك بحثا تجاريا يبغي صاحبه من ورائه الترقية أو المرتب العالى .

على الدولة أن تعمل على فك الارتباط بين النظامين العلمى والمالى ؛ فيترقى جميع العاملين أساندة وإداريين وغيرهم في سلم المرتبات ، حتى يصلوا نهاية مرتب الأستاذ ، على أن من أراد اللقب الأكاديمى فعليه أن يعد نفسه له علميا .

وفى ظل هذا النظام المقترح يمكن لمن حصل ماليا حاليا على درجة أستاذ (بروفسور) أن يقدم للترقية العلمية لدرجة أستاذ مشارك على أنه لا بأس أن يفرق بينه وبين غيره بالتزام الدولة له بطبع بحثه ومكافأته عليه .

٤ - الميدان الإدارى :

العمل فى مؤسسات التعليم العالى يتشعب إلى ثلاث شعب :

أولها : أكاديمى ويتولى مسئوليته الجهاز الأكاديمى وحده . حيث يمارس بعض الأعمال الإدارية بجانب الأعمال العلمية .

ثانيها : إدارى ويقوم به الأكاديميون والإداريون على السواء .

ثالثها : فنى ويقوم به الفنيون تحت إشراف الأجهزة الأكاديمية .

هذا ويتميز الجهاز الأكاديمي بأن خطوط السلطة فيه تسير في اتجاهين مختلفين : أولهما أفقي ، وثانيهما رأسي على أن الخطوط الأفقية بارزة وتغطي بألوانها الداكنة على غيرها من الخطوط في لوحة الخريطة التنظيمية للعمل بالجامعة ، وذلك انطلاقاً من مبدأ القيادة الجماعية الذي تدين به كل الجامعات .

فعميد الكلية أو رئيس القسم أو الشعبة أو الوحدة أو رئيس المركز العلمي ، يقف على نفس خط السلطة مع باقي الرؤساء الآخرين ، علماً بأن كلا منهم لا يتدخل في الشؤون العلمية الخاصة بغيره إلا في حدود التنسيق ، أو لإبداء الرأي عبر المجالس العلمية التي تضمه مع غيره من المسؤولين مثل مجلس الكلية أو مجلس الأساتذة أو مجلس الجامعة .

أضف إلى ما تقدم أن لرئيس القسم أو الشعبة أو المركز ولايتان :

إحدهما : إدارية ومجال عمله فيها قاصر على العاملين معه من أعضاء هيئة التدريس ومساعدتهم والموظفين والإداريين والعمال .

ثانيهما : علمي ففي إذا هو بحكم وضعه العلمي صاحب مدرسة أكاديمية يتولى بها الإشراف على الأساتذة المشاركين والمحاضرين ومساعدى التدريس ، والمعيدين فهو بالنسبة

لهم جميعاً يقف على قمة الهرم المعنوي للسلطة في الهيكل التنظيمي للعمل .

ومن المعلوم أن العمل الإداري بمؤسسات التعليم يغطي رقعة واسعة من العمليات والإنجازات تذخر بألوان النشاط المختلفة وتمتد هذه العمليات والإنجازات على أفق واسع ورحب ، يبدأ من أعمال الإدارة العليا وينتهي بالعمليات التنفيذية الصغيرة بمواقع العمل بالجامعة . علماً بأن هذه الأعمال تشمل فيما تشمل الوظائف الإدارية كلها من تخطيط وتنظيم وتوجيه وإرشاد، ومتابعة ومراقبة وتقييم ، وشئون مالية وحسابية وقانونية وكتابية واجتماعية ورياضية وثقافية إلى جانب تنظيم المكتبات والشراء والبيع والتخزين وغيرها مما هو معروف .

والعمل الإداري المذكور أغلبه عقلى وذهنى ولا يحتاج إلى تخصصات دقيقة عالية كما هو الحال بالنسبة للعمل الأكاديمي على أنه بالرغم من ذلك يشكل أهمية كبيرة فهو يهيئ البيئة الصالحة والمناخ الملائم للأعمال الأكاديمية والفنية .

ويتوقف نجاح العمل في مؤسسات التعليم على التعاون الوثيق بين مختلف الأجهزة الأكاديمية والإدارية والفنية وعلى قوة العلاقات الإنسانية السليمة بين العاملين والحفاظة المستمرة عليها ، وتنميتها وذلك عبر :

١ - نفهم كل مجموعة لطبيعة عمل الأخرى ، ومساعدتها في إنجازها بالصورة المثلى التى ينشدها كل فريق .

٢ - العدالة فى المرتبات والإمتيازات وفق التصور الذى ذكرته سابقا .

٣ - الشورى التى يحترم فيها رأى كل فريق ويستأنس به ، عند إتخاذ القرار إذ الفردية أو التكتل الهنى هو من أسوأ مظاهر فساد العلاقات الإنسانية .

٤ - المعاملة الحسنة الخالية من مظاهر التحكم والتسلط والأنانية ، والتميز بين المجموعات العاملة فى ذات الحقل .

٥ - الاحترام المتبادل بين أفراد كل مجموعة على حدة ، وبينها وبين أفراد المجموعة الأخرى كذلك بحيث لا يتعالى أحد منهم على الآخر .

ومن مهام الإدارى الناجح التخطيط السليم ، ورسم البرامج التى تكفل تحقيق رسالة مؤسسات التعليم بكفاءة تمكن المسؤولين من تجسيد معنى الخلافة الإلهية التى أرادها الله تعالى للإنسان ، هذا وبالتخطيط يتم ترشيد استخدام الموارد المتاحة بفعالية أكبر يكون من نتائجها تنفيذ الأهداف المنشودة بخطى سريعة ومحكمة .

ويهدف التخطيط فيما يهدف إليه إلى تحديد حجم التعليم العالى ، ونوعياته ومستوياته ، وتوزيعه الجغرافى ، وهياكله التنظيمية ، ووسائل تطوير البحوث العلمية والتدريب العملى ، والعمل الخلاق لبناء الأجيال الصاعدة .

ويتميز التخطيط العام للتعليم العالى بأنه يرتبط بالمستوى الحضارى للمجتمع ويحدد الأولويات ويعالج النتاج الفكرى للطلائع المثقفة ، ويوازن بين هجرة العقول وتوفير البديل ، بل إنه ليتعلق أحيانا بعوامل يصعب التنبؤ بها .

وأياً كان الأمر فإن أسلوب التخطيط ومناهجه ووسائله وأبعاده - لتختلف من دولة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر .
أنخلص من كل ما تقدم بأن على مؤسسات التعليم العالى أن تخلق من التعاون الأكاديمى الفنى الإدارى قاعدة تنطلق بها إلى رحاب أوسع فى ضوء تعاليم القرآن الكريم وهدى السنة النبوية المطهرة والسيرة العملية للسلف الصالح من الأمة الإسلامية أولئك الذين فهموا الدين منهجا للحياة وأسلوبا للعمل ، فكيفوا عليه تصوره للعلم ، والمعرفة والبحث والتدريب .



الفهرست أو محتويات البحث

الموضوع	الصفحات
المقدمة	١١٩

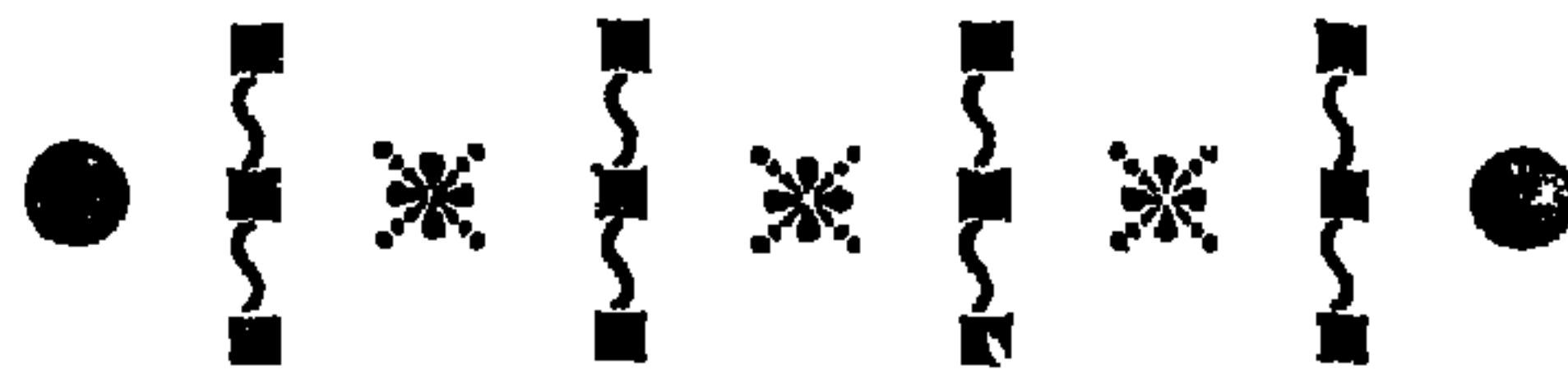
الباب الأول

مفهوم الدراسات الإسلامية	١٢١
(أ) المفهوم الحقيقي للدراسات الإسلامية	١٢١
(ب) المفهوم العرفي للدراسات الإسلامية	١٢٢
(ج) التحديد العرفي للمواد الإسلامية	١٢٣
(د) مفهوم التدريب	١٢٣
(هـ) مفهوم البحث	١٢٤
(و) تصنيف العلوم السابقة من حيث التدريب	١٢٦

الباب الثاني

دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب والبحوث وفق التصور السابق	١٢٨
مدخل	١٢٨
١ - الميدان العلمي	١٢٨
(أ) اختيار الأستاذ أو الباحث	١٢٨
(ب) تأهيل الباحث	١٢٩
(ج) فوائد الإعداد الداخلي	١٢٩
(د) فوائد الإعداد الخارجي	١٣٠
(هـ) الجمع بين المميزات السابقة	١٣١
(و) المكتبة	١٣١
(ز) وسائل النشر والاطلاع	١٣٢
(ح) المنهج	١٣٣

١٣٣	(ط) مثالب المناهج الحالية
١٤١	(ى) عام التدريب الإلزامى (أو علاج همجرة العقول)
١٤٢	٢- الميدان الروحي
١٤٥	٣- الرعاية الشاملة للباحثين والمدرسين
١٤٦	٤- الميدان الإدارى
١٤٩	٥- الفهرست أو المحتوى



المؤلف :

- ١ - الأستاذ الدكتور حسن الشيخ محمد الفاتح الشيخ قريب الله .
- ٢ - عباسي الأب حسيني الأم .
- ٣ - حفظ القرآن الكريم بروايتي حفص وأبي عمرو .
- ٤ - أحرز شهادتي بكالوريوس من جامعتي القاهرة وأم درمان .
- ٥ - أحرز درجة الشرف من جامعة الخرطوم ودرجة الماجستير في الآداب من نفس الجامعة .
- ٦ - أحرز درجة الدكتوراه من جامعة أدنبره ببريطانيا في الفلسفة .
- ٧ - عمل عميداً لكلية الآداب وعميداً للطلاب وعميداً لكلية الشريعة والعلوم الاجتماعية ورئيساً لقسم الفلسفة .
- ٨ - عمل رئيساً للجامعة أم درمان الإسلامية .
- ٩ - عمل رئيساً لمعهد أم درمان العلمي العالي .
- ١٠ - عمل رئيساً وعضواً لكثير من مؤسسات التعليم العالي .
- ١١ - اشترك في عدد من المؤتمرات العلمية .
- ١٢ - أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه .
- ١٣ - ألف أكثر من خمسين مؤلفاً .
- ١٤ - اختير عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية .
- ١٥ - منحته مصر وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

حسن الفاتح قريب الله
عضو المجمع المراسل من السودان

ألفاظ حضارية بطل استعمالها

للدكتور أحمد السيد سليمان

سيدي الرئيس

أيها السادة

المعاني التي لم يحتاجوا إليها ، ثم جاء أدباء
العصور الوسطى فأخذوا هذه الكلمات
بصيغها المعربة قديماً ، وأضافوا إلى معانيها
في العربية كل المعاني التي تركها الأولون .

وربما اشتق أصحاب دواوين الإنشاء ،
وهم أكتب كتاب زمانهم صيغاً فعلية
من بعض الأسماء المعربة على نحو ما أعرض
على حضراتكم إن شاء الله ؛ وقد استخرجت
هذه الكلمات القليلة من ركام ضخيم
جمعته في زهاء عشرين عاماً ، وكنت
أتمنى أن أنشره في كتاب أسماه « المتأمارك »
أو « فوات المعجمات من المعرب والدخيل »
ولكن حالت دون ذلك أمور ، والحمد لله
على كل حال .

مفردات حضارية ،
من أصول أعجمية ،

هذه

دخلت في اللغة العربية في العصور
الوسطى الإسلامية ، وجرت على ألسنة
الناس ، واستعملها الشعراء وأصحاب
النثر الفني .

ومن هذه الألفاظ الحضارية ألفاظ
عربت قديماً على قواعد خاصة في التعريب
ثم أعيد تعريبها في العصور الوسطى على
قواعد جديدة ، ولم تدرج هذه الصيغ
المحدثة ، على شيوعها في زمانها ، في
معجمات العربية .

وقد كان لبعض هذه المفردات في
لغاتها الأعجمية معان كثيرة أخذ العرب
الأولون بعضها لحاجتهم إليه ، وتركوا
وأبادر فأقرر أنني لا أريد بدراسة هذا
الكلام المات أن أبعثه ليستعمل ، فنحن
في هذا الزمان بحاجة إلى تعريب آخر

(*) ألقى في الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م

ننتقل به من حال إلى حال ؛ ولكني أرجو أن أعين القارئ العربي على استيعاب قرائنا من كتب العصور الوسطى ، وأوائل العصر الحديث فإن فيها من هذا المعرب الدارس ما لا يحصى ، وإن مستدركات التماذج ومعجم دوزي ومستدرك فانيان لا تسعف في كل المواقف .

وأيكم هذه المفردات .

— البرددار (من الفارسية برده : الستارة و (دار) صاحب ومعناها الحاجب وصاحب الستارة .

وقد أحدثت وظيفة البرددارية في دولة الأشرف قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦) وكان صاحبها يفتح الستارة أو يغلقها على باب الأمير أو الوزير .

وردت في قول ابن النبیه (٦١٩) :

قلت ليل إذ حبسني حبيبا
وغنساء يسبي النهى وعسارا

أنت يا ليل حاجتي فامنع الصبـ
يح وكن أنت يا دجى برددارا

ورحم الله ابن النبیه ، أخذ قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأثنى وبياض الصبح يغري بي
فشوّه مرتين : شوّهه بأن فرقّه في
بيتين .

وشوّهه باستعمال كلمه البرددار .

— البوقال (في الهندية بكهال ، وفي
الفارسية بوقال وفي الفرنسية Bocal) .

وعاء واسع الفوهة قصير العنق أو هو
كوز بلا عروة ورد في شعر لابن أبي الزوائد
يهجو امرأته :

قال : لما هزرت مهندي وقذفته

فيها وقد أرهفته بصقال
رجع المهند ماله من حيلة
ومناك تصعب حيلة المحتال

وكأنمسا أوبلته في قلعة
قد بردت للصوم أو بوقال
الأغاني ١٢٣، ١٤

ج : بواقيل

قال أبو نواس :

فن رأى النيل رأى العين من كذب
فما أرى النيل إلا في البواقيل
ديوانه ص ٥٦١

وقد ذكر البوقال في اللسان وفي
القاموس بلا شاهد ودون ذكر للجمع .

— البيكار في الفارسية بيكار بالباء المشربة
والكاف الفارسية ، وفي التركية العثمانية
بيكار بالباء المشربة والكاف العربية ومعناها
في اللغتين القتال والحرب والمعركة .

وفي الفتح القسى في الفتح القدسى
عبد الدين الأصفهاني « وقد نهك العسكر
طول البيكار ، وأنضاه قتال الكفار ،
بالليل والنهار » ص ٣٩٢ .

وفي المحاسن اليوسفية لابن شداد :
وأسر (أى صلاح الدين الأيوبي) إلى
ثقة عنده أن يمضى إلى الملك العادل ويقول
له : إن نزلوا (يعنى الصليبيين) عن
عسقلان فصالحهم فان العسكر قد
يأضجروا من ملازمة البيكار ، والنفقات
قد نفدت » ص ٢٣٣ .

وفي صبح الأعشى : « مهمات الغائبين
في البيكار المنصور تلحظ » ، وكأنه أراد
بالبيكار ها هنا الجيش إذ وصفه بالمنصور
١١٣٢٤ .

ج بياكر

وفي صبح الأعشى : « فليباشر ناظر
الجيش هذا المنصب السعيد بأمانة تحفظ
أوراق العساكر ، وتجلو الظلام العاكر
ولتكن أوراق البياكر نصب عينيه حتى
إذا طلبت منه أحضرها محررة الخ ١١٣٢٤

— البيكارية : حلقة ذهبية كانت تعلق في
أحزمة الأمراء في العصر المملوكى وهى
منسوبة إلى البيكار والبيكار إحدى الصيغ
التي عربت بها الكلمة الفارسية بركار أى
الفرجاء أو الرجل فالبيكارية كاملة

الاستدارة مضبوطة كائما قيست بالفرجار .

وقد وردت كلمة البيكار بمعنى الرجل
في شعر لآين النبیه يتغزل ، قال رحمه الله .

وبى هندسى الشكل يسبيك لحظه

ونخال ونخد بالعدار مطرز

ومذ خط بيكار الجمال بنحده

عدارا علمنا أنما الخال مركز (الديوان ٤٧٢) .

وقد نقل دوزى فعلا اشتقته العرب
من البيكار وهو بيكر أى استعمل البيكار
في رسم دائرة ، ونقل أيضا عبارة (مشى
على البيكار) أى استقام على الطريقة
(بمنتهى الدقة) كما يقال في لغتنا المعاصرة .

وفي النجوم الزاهرة في الحديث عن
الأفضل ناصر الدين محمد ابن الملك المؤيد
إسماعيل « وفي وسطه ، حياصة ذهب بثلاث
بيكاريات » أى بثلاث حلقات ذهبية . النجوم
الزاهرة ٩١٠١ .

— التخت : في الفارسية تخت ومعناها
العرش والسرير وكل ما ارتفع عن الأرض
للجلوس أو النوم : والعاصمة للقطر من
الأقطار ، واقتصر اللسان والقاموس
على معنى واحد هو « وعاء تصان فيه
الثياب » .

وفي صبح الأعشى : « فجلس مولانا
السلطان (أى الظاهر بيبرس في مرتبة

الملك في أسعد وقت ونال التخت بحلولة
أسعد البخت ثم أورد قصيدة فيها هذا
البيت :

وما كان هذا التخت من حين نصبه :

لغير المليك الظاهر النذب يصلح

١٤,١٥٥

وفي التبر المسبوك للسخاوى « وركب
المنصور أبو السعادات من الدهيشة إلى
القصر السلطاني بأهية السلطنة وشيعة الخليفة
راكباً ، ومشى الأمراء والقضاة فمن دونهم
بين يديه إلى أن جلس على تخت الملكة »
ص ٤٢٣ .

وفي النجوم الزاهرة ورد لصالح الدين
الصفدى هذا البيت الركيك :

لا تخت لي يشرف قدرى به .

إلا إذا ما كنت بي تختلى .

وفي منظومة تعليمية لطيفة في التاريخ
مخطوطة في المكتبة الأهلية ببائيس تحت
رقم ١٦١٥ :

وجلس العادل فوق التخت

وكان سلطانا عظيم البخت

١٩ ب

وورد في منظومة أخرى ملحقة بها :

بل خلعه في جلوس التخت

وكان خلعه نهار السبت

٣٤ ب

وفي الخبرى قال السيد جعفر بن محمد
البيتى السقاف :

وتدرعت بالسمور وجلست على تخت

السمور ١٣٣,١

ووردت بمعنى العاصمة في قول الخبرى

« فتلاقوا مع بونابرتة بعد استيلائه

على تخت النيمسا فهزمهم أيضا ٤,٣٢ .

وقد اشتق أصحاب دواوين الإنشاء

من كلمة التخت فعلا كما اشتقت العرب

فعلا من كلمة تاج وفي صبح الأعشى

وردت هذه العبارة :

« وإن أحق ما اتخذته الملوك ذريعة

لدواعى الابتهاج وأهم ما اهتم به متخت

بتخت أو متوج بتاج إحياء مذاهب الملوك

السالفة » الخ ٧,٣٠٠ .

وفي نموذج لما يكتب به لكبير الكرج

وردت هذه العبارة « الضرعام السميذع ،

الكرار الغضنفر ، المتخت » . الخ ٨,٢٨

أى الذى أجلس على العرش .

وأما التخت بمعنى حقيبة الثياب فقد

ورد في يتيمة الدهر في قول محمد بن

عبد العزيز السوسى :

الحمد لله ليس لي بخت

ولا ثياب يضمها تحت

٣,٤٢٦

وربما كان التخت بالمعنى الموسيقى هو
المراد في هذه الأبيات لأبي بكر محمد
بن المكرم الأنصارى الخزرجى :

أهنيك بالملك يا خير من
أجار البرايا ومن مارها

ومن ليس للأرض ملك سواه
تميل له الخلق أبصارها

وتملك سيب تكفورها

وتركب بالخيـش أوعارها

وتحكم في المرء حكم الملوـك
وتنشد في التخت أشعارها

— التركاش : من الفارسية تيركش الكنانة
أوجعية السهام .

كتب أبو سعيد برقوق في جواب الأمير
نمرلنك : « وأما إرسالك السيف والتركاش
لنا فقد عجبنا منه إلى الغاية ثم قال « وما سمعنا
في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيز خان
ولا ممن تقدمه أو تأخره من ملوك مملكته
في زمن من الأزمان أنه أهدى إلى
خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً
٧٣٠٩ صبح الأعشى .

وفي النجوم الزاهرة « وألا يركب أحد
من الأمراء بسلاح ولا تركاش ٩١٤١

ووردت بصيغتها الفارسية تيركش بغير
ألف في قول الشاعر :

جعلت فدى الظبي الذى جاء لحظه
إلى سائر العشاق يحمل تركشا
ج تراكيش قال الشاعر .

ظبي من الترك أغنته لوحظه
عما حوته من النبل التراكيش
انظر ترجمة الشاهنامه بقلم البندارى
وتحقيق المغفور له عبد الوهاب عزام
١٣١١

— الجنك : من الفارسية جنك بالجم المشربة
وقد عربت هذه الكلمة الفارسية قدماً
بصيغة (صنج) وتصرف فيها العرب حتى
قالوا في الأعشى : إنه صناجة العرب ،
ولكنهم أخذوا اللفظ ولم يأخذوا الآلة
فالصنج عند العرب قطعتان من صفر
تضرب إحداهما بالأخرى وهو في الفارسية
آلة ذات أوتار ، قال المرحوم الشيخ
أحمد النجفى : آلة من المعازف كانت
في القديم تستعمل في الموسيقى ذات ستة
وأربعين سلكا « وقال شتا ينجاس أنها
العود .

ثم عربت هذه الكلمة مرة أخرى على
قاعدة جديدة وذلك أن العرب جروا في
التعريب الأول على قاعدتهم في قلب الجيم
المشربة صاداً فقالوا صنج كما قالوا في (چين)
الصين وفي (جك) الصك .

ولكنهم في التعريب الثاني اكتفوا
بقلب الجيم المشربة الفارسية جما عربية
والكاف الفارسية كافاً عربية وأخذوا في
المرّة الأخيرة اللفظ والآله جميعاً ، فالجنك
عند المتأخرين آلة ذات أوتار كالجنك
الفارسي قال الشاعر :

لا جنك لي تضرب أوتاره

إلا ثناءً يملئ على جنكلي
(اسم مملوك) النجوم الزاهرة ١٠١٤٤

وفي مخطوطة المغرب والدخيل لمصطفى
المدني .

بعثت لهم بجنكي بعد هذا
لأقتلهم بأطراف الأنامـل
ج جنوك : نقل صاحب كتاب الروضتين .
« ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانه
من كثرة الحمور والبرابط والعيدان والجنوك
١٠١٥٥ .

— الدزدار (في الفارسية دز بضم الدال
أو دز بكسرهما القلعة ودار بمعنى صاحب
والدزدار هو حاكم القلعة .

وفي كتاب الروضتين « فلما علم الشهيد
ذلك سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور
فلاكمها عنوة وترك بها نجم الدين أيوب
والد صلاح الدين دز دارا ١٠٣٤ .

وفي الجزء الثاني من الكتاب نفسه :
فلما شكى أحضر بالقلعة وضرب على رأسه
فستطت عمامته فلما أطلق لينزل أرادوا

تغطيته بعمامة فلم يفعل وقال والله لا أغطيه
حتى ينتقم الله فلم يمض غير قليل حتى
توفي الدزدار المباشر لأذاه .

٢١٨

والدزدارية اسم وظيفة الدزدار وفي
الكتاب نفسه « وأمر له بدزدارية قلعة
كواشي » ١٠٤٣ وتتصل بكلمة دز كلمة
قهنذر فهي فارسية من كهن بمعنى قديم
لغة في الكلمة العامية المعربة كهنة فالقهنذر
إذاً القلعة القديمة يقول ياقوت ولا يقال
قهنذر في القلعة إذا كانت مفردة في غير
مدينة مشهورة .

ويضبط ياقوت اللفظ المغرب على هذا
النحو قهنذر بفتح أوله وثانيه وسكون
النون وفتح الدال وزاء .

وفي الجزء الرابع من اليتيمة بتحقيق
المرحوم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .
قال أبو الحسن علي بن الحسن اللحام
الحرائي .

كان حرا فصار نيز كل أنيز
عذب الله نفسه في حبوس القمندر
(بالميم) قال المغفور له الشيخ محيي الدين
ولا يستقيم له عندنا وجه اهـ .

وواضح أن النص الذي اعتمد عليه
الشيخ محرف رسمت هاؤه ميها وصوابه :

عذب الله نفسه في حبوس القهقهة
اتباعاً لضبط ياقوت

والمعنى رماه الله بالسجن في القلعة
القديمة وكانت القلاع القديمة تحول محابس
وسجوناً.

الرنك : من الفارسية رنك براء مفتوحة
ونون ساكنة وكاف فارسية بمعنى اللون
والصبغ وهي في الاصطلاح التاريخي شعار
و(الأرما) والبنديرة.

وفي النجوم الزاهرة «وضار المتحدث
فيهم فطلقتهم العلائي الطويل ، وضرب
رنكه على اصطبل شيخون بالرميلة تجاه
باب السلسلة ١١، ١٥٨.

وفي شعر للشيخ شهاب الدين بن أبي
حجلة التلمساني :

لآل رسول الله جاء ورفعة
بها رفعت عنا جميع الزائب
وقد أصبحوا مثل الملوكة برنكهم

إذا ما بدوا للناس تحت العصائب
وفي ديوان ابن النبية :

بتنا وقله لف العناق جسومنا
في بردتن تكرم وتعصف
حتى بدا فلق الصباح كججفل
راياته رنك المليك الأشرف
ص ٤

وقال أيضا :

يا شبيه الغصون رفقا بصب
نائج في الهوى مع الورقاء
يا لها دمة على الخد حمرا

بدت من سوداء في صفراء
فكأنى حملت رنك ابن أيو
ب على وجنتي لفرط ولاء

ويفهم من هذا أن شعار الأيوبيين كان
علامة سوداء على أرض صفراء.

— الدست : في الفارسية دست : كرسي
الحكم وصدر المجلس ومجلس الوزير ،
والمجلس بعامية .

وفي ينتمه الدهر قال أبو بكر الخوارزمي .

وأبيض وضاح الجبين كأنما
محياه قد درت عليه شمائله

يقبّل رجليه رجال أقلهم
تقيل في الدست الرفيع أنامله

وقال أيضا :

وفي الدست شخص ودت الأنجم إلى
تقابله لو أنهن مجالس

فلا تعجبوا أن يحمل الدست عسكرا
فما كل أمر تقتضيه المقاييس

وفي ديوان ابن النبية بمدح :
ما بين سدرته وسدة دشته
نبأ يقتر له الكفور الملتحد

وفي الروضتين قال الشاعر :

كأن في الدست منه حين تنظره

شمس النهار و صوب العارض الهمتن

وفي صبح الأعشى :

وما خلا منهم هذا الدست الكريم إلا

وهم بالأولوية في صدره جالوس ، ولا

تصدى غيرهم لتعاطيه إلا وأقبلت عاياه

في أيامه الجسوم وعليه النفوس ١١٢٧٦ .

وفي شفاء الغليل نقل الشهاب الخفاجي

هذا البيت في هجاء وزير :

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته في حال إيماء

(٩٧)

وأما الدست بمعنى القدر الوارد في

في قول العامة بمصر (يكفى من الدست

مغرفة) فربما كان هو الوارد في قول ابن

نباهة (٧٦٨ هـ) .

قلبي بكانون على ناره

وسيدى يلعب في دسته

(ديوان ٧٨)

- الشربوش : تعريب الكلمة الفارسية

شربوش أى غطاء الرأس وفي النجوم

الزاهرة : فركب وعليه خلعة أطلس ،

بطرز زركش أو شربوش مكلل مزين

(٩٩٩) ووردت كلمة شربوش في

شعر ابن النبيه بمدح الأشرف موسى

الأيوبي ، قال :

أشكو إلى الله ملولاً إذا

قلت انتهى من هجره يبتدى

البدر في مكبر شربوشه

حُفَّ أبليل الشعر الأسود

وقال أيضا :

تري قندس الشربوش فوق جبينه

كأهداب أحداق بهتن من البدر

ثم عربت الكلمة الفارسية شربوش

مرة أخرى بكلمة طربوش .

والرأى أن هذه الكلمة الأخيرة منحوتة

من كلمتي طرطور وشربوش بإحلال

المقطع العربي (طر) محل المقطع الفارسي

(سر-) وقد نحت العرب المحدثون كلمات

جديدة على نحو ما نحتوا كلمة طربوش ،

ومن ذلك الكلمة الشائعة في مصر (تشميل)

فهي فيما يقول جان دني نقلا عن بعض

علماء العربية بالقاهرة في عشر العشرين

من هذا القرن منحوتة من كلمتي تشميل

بالسين المهملة وتشغيل بالشن والغين

المعجمتين .

وكلمة طرطور التي يظهر مقطعها الأول

في كلمة طربوش عربية فصيحة وفي

التاج قال الشاعر :

قد علمت أيشكر من غلامها

إذا الطراير اقشعرت هامها

والمراد بها في البيت الرجل الطويل
الضعيف لا غناء فيه ووردت أيضا بمعنى
الغطاء الطويل للرأس في شعر أبي القاسم
ابن الفضل المعروف بابن القطان المتوفى
سنة ٥٨٨ هـ يهجو أبا الفوارس شهاب
الدين سعد بن محمد الصفي المعروف
بـحيص بيص المتوفى ٥٧٤ هـ قال :

كم تنادى وكم تطوّل طرطو

رك ما فيك شعرة من تميم

فكل الضب واقرض الخنظل اليا

بس واشرب ما شئت بول الظليم

النجوم زاهرة ٦٨٣

ولم تكن كلمة الطرطور بمعنى غطاء
الرأس ضحكة في ذلك الزمان فقد كانت
الطراير تزركش بالذهب والفضة وفي
كتاب السلوك : « يحمل الطراير المذهبة
عليها عمام القطن » (٧٧) .

١٠ ... القلّقى « الحلقة » من التركية قولاق بمعنى
الأذن وعروة الزنبيل ونحوه .

استعملها المولدون بمعنى معقد الحزام
الذى يدخل فيه أى ما يعرف في العامية
المصرية بالطوق وقد نقل محبى (١١١١ هـ
١٦٩٩ م) هذين البيتين :

وشاح من أحبيته قال لى

وهو الذى فى قوله قد صدق

قد ضاع منى الخصر لما انثنى
أما ترانى دائراً فى القلّقى
- الكزلك :

في الفارسية كزلك بكسر الكاف واللام
مدية قصيرة السلاح ، طويلة المقبض ؛
كانت تستعمل للبراية ، وينقل شتا يجاس
في معجمه أنها كانت تستورد من مصر .

وفي التركية كزلك بفتح الكاف وكسر
اللام : حد السيف المقوس .

وفي صبح الأعشى ، فى لبس أرباب
المناصب السلطانية فى الدولة الأشرافية خليل
بن قلاوون « وأما ثياب أبدانهم فيلبسون
الأقبية الثرية والتكلاوات فوقها ثم القباء
الإسلامى فوق ذلك يشد عليه السيف
من جهة اليسار والصولق (أى المخلاة)
والكزلك من جهة اليمين .

وقد شاع استعمال الكزلك فى مصر
لسكين المطبخ حتى زمن قريب .

- الكماج : نوع من الخبز الأبيض ، كان
ينضج بأن يدفن فى الرماد وأقدم نص
رأيت فيه الكلمة هو ديوان لغات الترك
لمحمود بن حسين الكشغرى (ت ٤٦٦)
وورد بصيغة كمج ثم رسمها بسيم
آتالاى فى ترجمته لهذا المعجم التركى العربى .
Komec

والكلمة من المصادر التركي كوثمك
بمعنى أن يدفن ، وقد دخلت الفارسية
وذكرها صاحب « برهان قاطع » بثلاث
صيغ كماج وكماج بالجمع المشربة وكوماج
براو بعد الكاف ، ولم يذكر أنها دخيلة .
وفي خطط المقریزی : وكانت الدولة
قد توقفت أحوالها فوفر من المصروف
في كل يوم أربعة آلاف رطل من اللحم
وسمائة كماج سميد ٣٨٠ .

وفي النجوم الزاهرة : وجهزت
الأفران وصناع الكماج والخبز المقل ٩٥٨ .

ونقل دوزي عن حكاية الحداد وهي
مخطوطة في ليدن هذه العبارة : كم
جامكيتك يا أحمد ؟ قال عشرة دنابر كل
شهر وكماجة وثلاثة أرطال لحم في كل
يوم وجوخة في كل سنة .

الكنبوش : في الفارسية كن بمعنى الكفل
ويوش أى الغطاء .

والكنبوش ما يُستر به مؤخر ظهر الفرس
وكفاه وهوتارة من الذهب الزركش ، وتارة
من المخايش وهي الفضة الملبسة بالذهب ،
وتارة يكون من الصوف المرقوم ، وبه
يركب القضاة وأهل العلم (صبح الأعشى
١٣٥٠) .

ونقل أبو شامة في الروضتين قول
العماد الأصفهاني يستهدى نور الدين زنكي
كنبوشا :

أصبحت بغلتي تشكى من العر
ي وأسراجها بلا كنبوش
ج كنبوش .

وفي خطط المقریزی : فلبس الجميع
التشريف والخلع والأقبية وأركبوا الخيول
المحضرة إليهم من الاصطبل السلطاني بسروج
وكنابيش ما بين ذهب وفضة حسب مراتبهم
(خطط ١٧٤٢) .

ويستعمل الكنبوش بمعنى الخمار ، وقد
نقل دوزي هذا النص : وتتخذ النساء بها
(أى بمدينة تلمسان) من الصوف أنواعاً
من الكنبوش لا توجد في غيرها .

الوجاق : من التركية أوجاق بضم
الهمزة ضمة مبسوطة مضخمة ، ومعناه
الأول في التركية الموقد ، وقد عربت
الكلمة في صيغة وجاق ، وذكرت في
كتاب (بسط مدد التوفيق) في الفتوة ،
معناها هذا الأول أى الموقد ففي ذلك
الكتاب الذي ترجمه Thorning إلى
الألمانية سنة ١٨٦٨ يلحن المرشح عهد
الفتوة بطريقة : إن قيل لك كذا فالحواب
كذا ، وقد ورد به هذا النص .

إن قيل لك أين انطبخت لقمتك ومن
سبكها ومن أكلها ومن كان حاضرها ؟
فالحواب : في وجاق الرحمن انطبخت
وحضرها ملائكة المنان وسبكت بالفاتحة
أم القرآن . الخ ص ٤ .

ثم توسع في معناها في التركية فبعد أن كانت تطلق على الموقد أطلقت على كل ما تنفخ فيه نار ، فأطلقت على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ، ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد ، ثم أطلقت على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند ، وفي الروضتين نقلا عن ابن شداد (٦٣٢) حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وهي هنا بمعنى الخيمة أو المعسكر .

وكانت العساكر العثمانية التي تركت في مصر بعد عودة السلطان سليم أربعة وجاقات ثم زادها ابنه السلطان سليمان سنة ١٥٢٤ وجاقين فصارت ستة وجاقات ثم صارت في سنة ١٥٥٤ سبعة وجاقات هي : وجاق الانكشارية ووجاق العزب ووجاق الحملة ووجاق التفكجية ووجاق الجراكسة ووجاق الحاويشية ووجاق المتفرقة . وقد كان الجبرتي يذكر هذه الوجاقات أحيانا باسم البلكات ١٣٥ .

arthisans et Commerants au Caire
au XVIII e Siecle 1973

طبع دمشق

الرئيسي :

ومما درس من ألفاظ الحضارة في ذلك العصر طائفة من الألقاب ألحقت

بها ياء النسب للمبالغة مثل العالمي والناسكي والكبيرى والسفيرى . يقول القلقشندي في اللقب الأخير « ولم يستعمله الكتاب مجردا عن الياء لأن رتبته عالية لا يليق بها حذف الياء ١٤٣ .

ويقول في لقب الظهيرى : لم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب لاختصاص المظاهرة بأكابر أرباب السيوف وهو بغير الياء لا يقع إلا على الأدوان منهم » .

وكانت ياء النسب تلحق بأفعل التفضيل المقرون بأل لزيادة المبالغة . فكان يقال في ديباجات بعض الرسائل : الأجلى الأكملى ، الأوحدى .

وكلمة الرئيسى التي نستعملها الآن بقية باقية من العصر المملوكى ، يقول القلقشندي بعد حديثه عن الرئيس بالهمز والرئيس على قيم « والرئيسى نسبة إليسه للمبالغة وغالب ما يستعمله الكتاب كذلك أ هـ .

وما زال بعض علماء العربية ينكرون الرئيسى بالياء ويستعملون في مكانه (الرئيس) فيقولون مثلاً : التوتر هو السبب الرئيس لضغط الدم أو سبب رئيس لضغط الدم ولكن كلمة الرئيسى

ويستعملها المعرضون عنها ، فهي بمعنى
الرئيس بل هي رئيس و زيادة .

قديمه عاشت من أوائل العصر المملوكي
إلى الآن وقد اصطلحنا جميعا على أنها
الترجمة العربية المثلى لكلمة Principal

وشكراً لكم أيها السادة والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

فلعل الرئيسى بنسب المبالغة تصحح

احمد السعيد سليمان
مضو المجمع



المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية للأوربيين في الجزائر

1914 - 1830

للدكتور أبو القاسم سعد الله

عندما

يذكر الاستعمار الفرنسي
للجزائر يتبادر إلى

اختصارا قبل الدخول في الموضوع وهي :
أولا : أن الحملة الفرنسية على الجزائر
قد وقعت بعد ثلاثين سنة من الحملة الفرنسية
على مصر ، وهي الحملة التي تركت بصماتها
على الشرق وجعلت الاستشراق الفرنسي
ينشط في تحقيق ما عجز عليه الجيش . وسرى
أن الفرنسيين استفادوا في الجزائر من تجربتهم
في مصر من عدة نواح وخصوصا فيما يتعلق
باللغة العربية .

ثانيا : أن بقايا المترجمين في حملة نابليون
الفاشلة على مصر هم الذين تولوا الترجمة
لجيش بورمون (1) في الجزائر . وكان
من هؤلاء الترجمة رجال « مشاركة » من
مصر وسورية (2) ، ورجال « أوربيون »
من فرنسيين وغيرهم .

الأذهان موقفه من اللغة العربية والمشهور
عنه أنه حارب هذه اللغة بمختلف
الوسائل حتى عجم لسان أهل الجزائر أو كاد
وفرض عليهم لغته الفرنسية . وبحسنا هذا ليس
تأكيذا أو نفيا لهذا الموقف ، وإنما هو يتناول
جانبا آخر ، وهو توظيف الفرنسيين للغة
العربية لمصالحهم الاستعمارية في الجزائر ومدى
نجاحهم أو فشلهم في ذلك ، والطرق التي
استعملوها للوصول إلى ذلك الهدف ،
والأشخاص الذين جندوهم لتحقيقه ،
والمراحل التي مرت بها التجربة التي قد تكون
فريدة من نوعها .

وهناك تطورات ارتبطت بهذه التجربة نذكرها

(٠) أتى في الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

(1) الكونت دي بورمون كان وزيرا للحربية في عهد شارل العاشر ، وتولى قيادة الحملة للفرنسية ،
وقد عزل بعد أقل من شهر من احتلال مدينة الجزائر لأن انقلابا حدث في فرنسا أطاح بعرش شارل العاشر
وجاء بالملك لويس فيليب يوليو 1830 .

(2) يقول شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر 1876 ، أن معظم المترجمين الأوائل في
الجيش الفرنسي كانوا من مواليد بلدان عديدة : سورية ، مصر ، تونس ، الجزائر ، طنجة ، مالطة ،
إلخ . انظر المقدمة .

ثالثا : إن نجاح الحملة الفرنسية وعمليات التوسع في الاحتلال وما رافق ذلك من نشأة الإدارة الفرنسية ومن استيطان آلاف الأوروبيين في الجزائر ، كل ذلك جعل معرفة الفرنسيين للغة العربية أمرا ضروريا لكي يسهل عليهم الاتصال بالجزائريين (أو الأهالي كما كانوا يسمونهم) . فواضح إذن أننا نكلم هنا عن معرفة الفرنسيين وليس الجزائريين للغة العربية .

فكيف بدأت وتطورت هذه المعرفة الفرنسية للغة العربية في الجزائر ؟

إننا لقد بدأت بتجنيد فرقة من المترجمين لمرافقة الحملة ، أطلق عليها « فرقة المترجمين العسكريين » رغم أن منهم القسيس والمدرس والتاجر وهلم جرا ، وقد كان بعض هؤلاء

من مواليد مصر وسورية وبعضهم من تلاميذ سليفستردى ساسي (1) عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس حينئذ ، ومن المترجمين الشرقيين نذكر زكار الذي تعاون مع دي ساسي على ترجمة البيان الفرنسي للجزائريين قبل نزول الحملة ، وهو من مواليد دمشق (2) . وأثناء وجوده بالجزائر قام زكار بتدريس اللغة العربية للاوروبيين مدة ثلاث سنوات . ومنهم جورج غروي السوري الأصل أيضا والذي وزع البيان المذكور على الجزائريين ثم غامر بحياته وذهب إلى الداي (الباشا) طالبا منه التفاوض والخضوع لمطالب الفرنسيين فقتله ، ومنهم أيضا إبراهيم دنينوس الذي كان من مواليد الجزائر (3) . وقد كتب عدة أعمال عن اللغة

(1) دي ساسي de Sacy (1758—1838) لم يزر الجزائر ، ولكنه شجع على إنشاء كرسي العربية فيها وهو الكرسي الذي تولاه عدد من تلاميذه ، وعلى رأسهم برينييه Bosnier ويعتبرونه منشئ علم الاستشراق بأوروبا ومن مؤلفاته قاموس عربي - فرنسي انظر عنه (حوليات معهد الدراسات الشرقية) ، الجزائر م 3 1937 ، ص 1—5 وكذلك عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين) ، بيروت ، 1984 ، ص 226—232 .

(2) جان شارل زكار ، ولد بدمشق سنة 1789 ثم أصبح قسيسا في إحدى كنائس مرسيليا ، وعند الإعداد لحملة الجزائر سمى مترجما فيها مع بقائه على وظيفته الدينية حتى أنه هو الذي ألقى أول قداس في مدينة الجزائر على أثر الاحتلال وبحضور زعماء الحملة ، ثم أصبح ملاحقا بمكاتب الولاية للفرنسيين الذين تداولوا على الجزائر إلى عهد بوجو (1845) وفي هذه السنة وضع تحت تصرف أسقفية الجزائر الناشئة .

(3) دنينوس Daminos ولد بالجزائر سنة 1797 ، وقد تعلم العربية وأصبح مترجما بها في إحدى المحاكم بفرنسا وعند توجه الحملة إلى الجزائر (1830) عين المترجم - الدليل لها انظر شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر 1876 ، ص 19 انظر عنه أيضا هنري ماسيه (الدراسات للعربية في الجزائر 1830—1930) منشورات (الحملة الأفريقية) ، رقم 356—357 ، 1933 ، ص 2 .

العربية منها معجم عربى فرنسى ، وزع على ضباط الحملة . إضافة إلى جوفى فرعون الذى كان من مواليد القاهرة ، والذى سيرد ذكره .

وبعد الحملة بدأت عمليات الاحتلال وإقامة المنشآت الإدارية والاستيطان ، واحتاج النظام الاستعماري إلى معرفة البلاد وأهلها ، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة . وكانت العربية في الجزائر تعتمد ، مثلها في ذلك مثل العربية في مختلف أقطارها ، على الفصحى كلغة ثقافية مكتوبة ، وعلى العامية كأداة اتصال بين السكان متعلمين وأمية ، بل إن المدن الساحلية ، وخصوصا مدينة الجزائر ، كانت تتوفر على لهجة تكاد تكون دولية ، وتسمى باللغة الافرنجية (Langua Franca)

وهي عبارة عن مفردات خليط يتداولها التجار والبحارة لتضام آرائهم في موانئ البحر الأبيض . وتتألف من كلمات عربية وتركية وإيطالية وأسبانية وبروفانسالية الخ وليست هذه اللغة الخليط هي الوسيلة التي سيفهم بها الفرنسيون الجزائريين ولا هي اللغة الإدارية أو العلمية التي سيعتمدونها في مصالحهم ، فلا بد إذن من البحث عن وسيلة أخرى .

يقول أحد المستشرقين الفرنسيين : لقد كان على « السادة الجدد » (يعنى الفرنسيين) أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة وفيهم السكان ولا يمكن مطالبة المهزمين (يعنى الجزائريين) تعلم لغة الغزاه فورا . بالإضافة إل أن نشر اللغة العربية بين الضباط والموظفين كان يعتبر وسيلة قوية للتقارب بين الأعراق (racas) التي يبعدها عن بعضها الأصل والدين والعادات . لقد كان كل واحد مقتنعا بذلك وكان الرأي العام كله مع هذه الفكرة (1) .

فاللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث منذ قرون ، ودراستها بطريقة جادة يمكن أن تقدم للفرنسيين فوائد جمة ، وذلك بإقامة علاقات عابدة مع الأهالي والتعرف أكثر على الشعب « الذي دعينا ليس فقط لحكمه ولكن لإدخاله بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا » وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين ورغباتهم وآلامهم لكي « نجعلهم يتأدقون تحسیننا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لمصالحهم وممدنين لبلادهم وليس كغزاة تساندتهم الأسلحة » ويضيف هذا المستشرق الخبير في شؤون الاستعمار : أن دراسة أدب الجزائريين سيؤدي إلى معرفة

(1) نقل ذلك كور A. ccour (ملاحظات على كراسي اللغة العربية في الجزائر) ، في المجلة الأفريقية ، رقم 318 ، 1924 ، ص 20 ، نقلا عن فورميسترو Fourmestsaux في كتابه (التعليم العدوى في الجزائر من 1830-1880) ، باريس ، 1880 .

عبريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر ،
ومعرفة كتبهم في العلوم والتاريخ والفقه
والدين ، ومن ثمة معرفة أصول أفكارهم
وأحكامهم وتقاليدهم » (1) وقد عبر أكثر
من واحد على حاجة الفرنسيين إلى تعلم العربية
للأغراض المذكورة (2) . ولكن ذلك لم
يكن محل اتفاق مطلق ، كما ادعى البعض
بل إن هناك من الفرنسيين من ذهب إلى أن
على الأهالي أن يدرسوا اللغة الفرنسية بصفتهم
مغلوبين ، وليس على الفرنسيين أن يدرسوا
اللغة العربية لأنهم هم الغالبون (3) .

وأول من عهد إليه الفرنسيون بتدريس
اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر هو جوني
فرعون الذي كان من مواليد القاهرة (4) ،
وكان أول أستاذ للغة العربية في الجزائر في
العهد الفرنسي وقد ألف عدة كتب لتلاميذه
وكون منهم معربين بارزين في صف الجيش

(1) كور ، ص 31—32 .

(2) انظر مثلاً فيرو ، ص 19 .

(3) كتب ذلك ماشويل L. Machuel ، أستاذ اللغة العربية في لىسية الجزائر ، سنة 1875 انظر كتابه (طريقة
لدراسة العربية للعامة Méthode pour l'Etude de l'Arabe Parlé) ، مقدمة ط . 2 وقد أعيد
طبع للكتاب عدة مرات .

(4) ولد جوني فرعون في القاهرة سنة 1803 وأبوه هو الياس فرعون السوري الأصل ، وقد عمل الياس
مترجماً في الجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر . وبعد خروج الحماية من مصر رافق جوني والده إلى فرنسا ،
والتحق بمدرسة اللغات للشرقية بباريس وأصبح سنة 1821 أستاذ اللاتينية في كوايج سان بار ثم في سنة 1825 أستاذاً
للفرنسية في الكوايج المصري بباريس ، ثم بعد سنتين أصبح مشرفاً على التلاميذ المصريين الضباط بمدينة
طوان . وعند انطلاق الحملة على الجزائر من طولون انضم جوني إليها . وفي سنة 1831 أصبح مترجماً وكاتباً
خاصاً في الإدارة الفرنسية الجديدة بالجزائر وفي سنة 1833 عمل كاتباً (سكرتيراً) ومترجماً للجنة الأفريقية
التي أرسلتها حكومة باريس إلى الجزائر لتحقيق في الأوضاع وتوصي إما بالاحتفاظ بالجزائر وإما بالخلاء
عنها . ولازم جوني اللجنة ثلاثة أشهر مما جعله يتوقف عن دروسه . ويقول عنه فيرر أنه قد أدى خدمات
عديدة ومتنوعة بفرنسا وقد ظل يؤدي هذه الخدمات إلى وفاته بفرنسا (saumur) سنة 1846 انظر عنه
فيرو ، ص 229—232 ، وكور ، ص 21 ، وماسيه ، ص 3—4 .

الفرنسي مثل لاموريسير (1) ، وبيليسيبي دي رينو (2) ، ودوماس (3) ، الخ .

أما قصة اسناد دروس اللغة العربية إلى جوني فرعون فندسوقها باختصار . فقد جاء إلى الجزائر متصرف مدني ، اسمه جنتي دي بوسي de Bussy كان يحمل أفكارا حضارية يريد غرسها في الجزائر تتلاءم مع سياسة السيد الدوق دو رفيقو (قائد جيش الاحتلال) التي قال عنها « إن الجزائر لن تكون فرنسية فعلا إلا إذا أصبحت فيها لغتنا (الفرنسية) هي السيدة وانتشرت فيها الفنون والعلوم التي شرفت بلادنا » وبناء على هذه التوصية قام دي بوسي بإنشاء مكتبة عامة جعل نواتها من المخطوطات العربية التي جمعت من المساجد وغيرها ، ومطبعة عربية — فرنسية لطبع المنشورات الرسمية ، وجريدة باسم Le Moniteur Algérien

بالفرنسية لنشر أخبار الحكومة ، ومن ذلك انشاؤه لدروس فرنسية موجهة لحضر الجزائر ويهودها ، ودروس بالعربية للأوروبيين . والملاحظ هو أن دي بوسي جعل دروس الحضرة واليهود إبتدائية ولم يولها الاهتمام الذي أولاه لدروس العربية الموجهة إلى الأوروبيين فلم يشترط هناك في الاستاذ ولا في المستوى ما اشترطه هنا ، ولكنه جعل كل الدروس عامة ومجانية . واشترط في أستاذ العربية مؤهلات عالية . فأرسلت إليه الوزارة من باريس أنها وضعت تحت تصرفه أستاذ اللغة العربية في كولييج لويس لوقران Louis le Grand واسمه أعقوب (يعقوب) المصري ولكن هذا توفي قبل التحاقه (4) . عندئذ أسند دي بوسي تلك الوظيفة إلى جوني فرعون ووضع تحت تصرفه بناية تابعة للإدارة ، وهكذا أخذ جوني يعطي دروسا مجانية

(1) لاموريسير ، كان من أتباع حركة سن سيمون ، وتزوج من جزائرية ، وتولى الشؤون العربية فترة في الإدارة الاستعمارية ، وإليه سلم الأمير عبد القادر سيفه وجواده عند هزيمته سنة 1847 وقد ترقى في الجيش حتى وصل إلى رتبة جنرال .

(2) اشتهر بكتابه (الحوليات الجزائرية) في جزئين وبعد أن تولى عدة وظائف في الجزائر . عين قنصلا لبلاده ، في طرابلس وفي هايبى وغيرهما توفي سنة 1853 أنظر عنه الحملة الأفريقية رقم 11 (1858) ، ص 419—421 .

(3) يوجين دوماس ، تولى قنصلية فرنسا في معسكر ، عاصمة الأمير عبد القادر ، 1837—1839 كتب عدة كتب عن (المرأة العربية) و (الحيول العربية) ، والكتاب الأخير مترجم إلى الإنكليزية وترقى إلى رتبة جنرال .

(4) كنا مكنوبيا في المصادر الفرنسية (Agcub) ، وكان يعقوب في خدمة الحملة الفرنسية على مصر ، ثم خرج معها إلى فرنسا حيث بقي مترجما ومدرسا للغة العربية إلى أن وقع تعيينه في الجزائر الذي لم ينفذ إذ توفي قبل التحاقه وكان يعقوب من أقباط مصر ، وقد ألف مجموعة من القصص الحياتية العربية باللهجة العامية تحت عنوان (المزهر Lyre) انظر كور ، ص 24 .

ورسمية للأوروبيين أيام الثلاثاء والخميس
والسبت من الثالثة إلى الرابعة ، ابتداء من
1832 / 12 / 6

وتذكر المصادر الفرنسية أن دروس
جونى فرعون العربية كانت ناجحة للغاية ،
فكان جمهورها الأوربي قد ضاقت به البناية
مما اضطر جونى إلى تبديل المكان عدة مرات
لضيقه . وفى هذه السنة أيضاً أصدر جونى
فرعون أول كتاب فى النحو العربى ، وهو كتاب
مدرسى موجه لتلاميذه (1) . وخلال
السنة الموالية أصبح لجونى فرعون درسان
فى العربية — وكلاهما بالعامية — درس عام
يبدأ من منتصف أكتوبر على الساعة الحادية
عشر والنصف ، ودرس خاص بالأشخاص
الذين لا يستطيعون حضور الأول ، ولم تكن
الدروس مجانية بل أنه جعل رسماً بـ 45 فرنكا
على الدرس الخاص للفرد ، ومدته ثلاثة
أشهر ، ثلاث مرات أسبوعياً بمعدل ساعة
لكل مرة . وبالإضافة إلى تدريس العربية

(العامية) للأوروبيين ، وتأليف الكتب المدرسية
لتلاميذه ، كلفته الحكومة الفرنسية بوضع
تقرير عن المصطلحات العربية فى القضاء
الاسلامى وفى التوثيق بالمحاكم ، كما أنه ساهم
فى انشاء فرقة خاصة بالترجمين المحليين
القضاة (سنة 1835) ، إلى جانب فرقة
الترجمين العسكريين (2) .

ورغم الدور الذى لعبه جونى فرعون فى
تدريس العربية للأوروبيين ونجاحه المتوهم
به فى المجالات الأخرى ، فإنه كان ينظر إليه
على أنه ليس من أصل فرنسى ، وأنه لم يكن
مستشرقاً بالمعنى الدقيق للكلمة وعندما
استحدث الفرنسيون كرسي اللغة العربية

Chaire de langue arabe

فى الجزائر سنة 1832 ، استشاروا عميد
المستشرقين فى باريس فى الشخص الذى
يقترحه له ، فأشار عليهم بتلميذه لويس
برينيه (3) Breasnier ، ومنذ ذلك الحين

- (1) يذكر كور ، ص 24 ، أنه أول كتاب صدر عن المطبعة الحكومية بالجزائر وهو فى اللهجة العامية التى
لا ندرى من أين تعلمها جونى فرعون ، ويذكر ماسيه أن عنوان الكتاب هو (النحو الإبتدائى للعربية
الدارجة أو الجزائرية لاستعمال الفرنسيين) وأنه صدر سنة 1832 كما يذكر نفس المصدر أن جونى فرعون قد حاول
تبسيط الكتاب باصداره فى السنة الموالية بعنوان (موجز النحو العربى المبسط والمنقح) انظر أيضاً ماسيه ، ص 4 .
- (2) كان المترجمون العسكريون هم صلة الوصل بين الجزائريين وسلطات الاحتلال ويذكر شارل
فرو ، ص 86 ، أن سمعة هؤلاء المترجمين كانت سيئة وغير مشرفة إلا ما ندر فقد كانوا خليطاً من مختلف
الأجناس ، وأضيف لإيهم بعض الأهالى الذين يعرفون شيئاً من الفرنسية ، كما انضم إليهم عدد من اليهود
الجزائريين لأنهم كانوا أكثر صلة بأوروبا من المسلمين بحكم المعاملات التجارية مع أهلها .
- (3) انظر ماسيه ، ص 5—9 وقد خصص له عبد الرحمن بدوى فى (موسوعة المستشرقين) بضعة أسطر
فقط ، ص 56—57 ، ولم يذكر أن للعربية التى كان يعلمها برينيه إنما هى العامية ، كما أنه لم يذكر أهداف
التعليم الذى كان يقدمه ، وقد اعتمد بدوى فى ذلك على مرجعين . انظر عنه كور ، ص 27—39 وما بعدها .

تحول درس Cours العربية إلى كرسى Chairc العربية وتولى برينيه مكان فرعون .

وتذكر المصادر الفرنسية أن برينيه خير مؤهل لهذه المهمة. فهو مستشرق بالاختصاص وفرنسى بالأصالة، ومن تلاميذ مدرسة اللغات الشرقية وعلى رأسها دى ساسى ، ومن شيوخه أقطاب الاستشراق الفرنسى عندئذ : كاترمير ، وجوبير ، وغارسان دى طاسى ودى بيرسوفال ، وجان مارسيل . وكان برينيه من مواليد مونتغري Montegris سنة 1814 ، اشتغل فى الطباعة أول الأمر ثم شغف باللغات الشرقية وجاء إلى باريس لدراسها على أهل الاختصاص فى مدرسة اللغات الشرقية . وقد استمر برينيه فى تولى كرسى العربية فى مدينة الجزائر من 1836 ، إلى وفاته سنة 1869 .

وأثناء ذلك ألف عدة كتب لتلاميذه سند ذكر بعضها وشارك فى عدة مشاريع علمية مثل مشروع (اكتشاف الجزائر العلمى) الذى أشرفت عليه الحكومة الفرنسية (1849) ، وتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) والحلة الأفريقية المحسدة لنشاط هذه الجمعية . كما أنه أخرج أفواجا من المترجمين (العسكريين والقضائيين) والمدرسين للغة العربية فى الجزائر .

افتتح برينيه أول درس له فى العربية العامة خلال يناير 1837 . وتنويعها بالدرس وصاحبه نشرته الجريدة الرسمية عندئذ (لومونيتور) بخلافه . وجاء فيه أن الهدف من هذا الدرس العام هو تعريف الأوربيين بمبادئ اللهجة العامة فى « ممتلكاتنا الأفريقية » (الجزائر) ومبادئ اللغة المكتوبة . وأشار إلى أن معرفة العربية قد أحس بها جميع الفرنسيين فى الجزائر فهى التى يتكلم بها الأهالى وهى المستعملة فى جميع العلاقات العائلية والتجارية وقال إن كل فرد من الفرنسيين يشعر بضرورة توصيل حاجته إلى الأهالى دون واسطة . ونوه كذلك باللغة العربية فقال إنها غنية جدا فى تعابيرها ، وغنية جدا فى أشكالها ، ورشيقة جدا فى أساليبها ، والفرق بين المكتوبة والمنطوقة يشكل ما سماه الآخرون قبله : العربية الأدبية والعربية الدارجة . وعدد برينيه الفروق بين الفصحى والعامة قائلا إن أصنى اللهجات هى لهجة اليمن حيث تأصلت العربية وحيث ولد (كذا) محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) الذى يعتبر كتابه نموذجا رائعا إذا لم يكن فى وضوح الأفكار فعلى الأقل فى رشاقة الأسلوب واعتبر برينيه أن اللهجات العربية أخذت تفرق عن بعضها وتبتعد عن الأصل ، وادعى بأن لهجات شمال أفريقية أكثرها ابتعادا (1) .

(1) الدرس (أو المحاضرة) منشور فى (المونيتور) ، يناير 1837 وأورد خلاصته هنرى ماسيه ، ص 5 وكانت عبارة (ممتلكاتنا) هى التى يطلقها الفرنسيون على الجزائر عندئذ، كما أن تعبير أفريقيا، والأفريقية كان يطلق على الجزائر وما يتصل بها فى باىء الاحتلال .

وقال برينيه عن طريقته في التدريس إنه سيجعل دروسه على قسمين : الأول خاص باللهجة الجزائرية وذلك بتوضيح تعابيرها الشائعة واستعمالاتها وتدريب السامعين عليها . واشترط ضرورة تعلم الحروف العربية سواء تلك التي قال عنها لأنها معروفة في الشرق أو الخاصة بالمغرب العربي والتي قال إنها تختلف في الخط الكوفي أو العربية القديمة . ولاحظ أن الكتب التي تعين على هذا المستوى من الدرس غير متوفرة في وقته إلا قليلا وغير مختصة . أما القسم الثاني من دروسه فقد وجهه إلى الأشخاص الذين لهم معرفة بالعربية والراغبين في معرفة الكتابة ، ول هؤلاء قدم برينيه النظرية النحوية وتطبيقاتها على ترجمة النصوص المختلفة . وقد اختار لهم من هذه النصوص مجموعة من ألف ليلة وليلة لأنها في نظره تعطي لتلاميذه نموذجا بسيطا وسهلا وتعابير سعيدة ومتنوعة . كما عين لهم كتاب النحو للمستشرق دي ساسي وكتاب نحو العربية العامية لبر سوفي . وبعد سنة من تجربته في التدريس بالجزائر

(1) من مؤلفاته :

1— ترجمة الأجرومية للصنهاجي والتعليق عليها .

2— المجموعة العربية الإبتدائية المختارة (Anthologie) .

3— مختارات عربية Christonathie وهي التي ضمت عددا كبيرا من الرسائل والنصوص الرسمية وغيرها من الوثائق المعاصرة .

4— الدروس العملية والنظرية في اللغة العربية الذي طبع عدة طبعات .

5— عناصر الخط العربي ، سنة 1855 .

6— مبادئ اللغة العربية ، سنة 1867 وكان برينيه يحسن التركية (العثمانية) والفارسية أيضا ومما يذكر أنه قبل تأليفه للكتب لتلاميذه ، وزع عليهم (1837) معجم المستشرق جان جوزيف مارسيل في اللهجات العامية في الجزائر وتونس ومصر وهو معجم (Vocabulaire) فرنسي - عربي مطبوع في باريس .

كتب برينيه مقالة في (المجلة الآسيوية) أوضح فيها أفضل الطرق لتدريسها . وقدر أي ضرورة أن يقضي الدارس سنة كامئة في تعلم العربية المكتوبة (الفصحى ؟) قبل دراسة العامية .

وكانت حصصه الأسبوعية مقسمة كالتالي : ثلاث حصص للتدريب على العربية الدارجة ، وحصص للنحو والاملاء والأسلوب ، وحصص لشرح نصوص عربية أدبية وعلمية ، وحصص لترجمة الرسائل والنصوص الرسمية ، والكتابات المتداولة . وكان برينيه يلج على أن يخدم تعليم اللغة البحث اللغوي والمواد التاريخية والأدبية ، وتوفير الوسائل للفهم والاتصال التلقائي عن طريق التعبير الشفوي الكتابي . كما كان يلج على ضرورة الجمع بين المعرفة النظرية والعملية لكي يخدم أحدهما الآخر . وفي هذا النطاق ألف برينيه مجموعة من الكتب معظمها موجه لطلابه ، ولكن بعضها بقي مرجعا للمدرسي العربية من المستشرقين حتى بعد وفاته (1) .

وفي مؤلفاته أعطى برينيه لطلابه نماذج من روح الشرق في العناوين التي اختارها بالعربية وفي الألوان والتزاويق للغلاف. مثلاً في كتابه (المختارات) المطبوع سنة 1845 زخرفت صفحة الغلاف الداخلي بزخارف عربية - اسلامية ولونت بألوان متناسقة ، وفي وسطها عنوان الكتاب بالعربية هكذا (جامع المكاتيب في العربية والمائى الغرايب للشيخ النحوى المدرس أبرينى ، لطفه الله به) (1) كما أن كتابه (الدروس العملية والنظرية للغة العربية) قد وضعت له لوحة فنية أمامية ملونة على الطراز العربى - الإسلامى وكتب فيها العنوان بالعربية هكذا (مفتاح كنوز النحو والأدب لفتح علوم العرب) (2) .

وقبل أن نطوى صفحة الحديث عن برينيه نذكر ملاحظتين قاهما عن اللغة العربية بعد تجربته معها . الملاحظة الأولى ما جاء في مقدمة كتابه (المجموعة العربية) من أن العربية غنية فقط بأشكال الكلمات وتنوعها والمترادفات ، وأنها بعيدة عن أن تقدم ، في حالتها الحاضرة وربما في المستقبل ، الطاقات والسهولة التي تقدمها اللغات الأوروبية

الرئيسية ولا سيما الفرنسية (3) . وفي نفس الكتاب انتقد برينيه طريقة الكتابة العربية في الجزائر قائلاً لأنها غير فنية وغير متناسبة الأجزاء بخلاف الشرق حيث الخط وفن الكتابة يمتازان بالدق والتناسب . ولكنه لاحظ أن في فن الكتابة الجزائرية خصائص أساسية لا يدركها المرء إلا بعد الممارسة .

أما الملاحظة الثانية فهي حثه الفرنسيين على تعلم اللغة العربية لكي تكون وسيلة لهم إلى معرفة الشعوب الأخرى . فقد قال في مقدمة كتابه (الدروس العملية) إن اللغة العربية ليست وسيلة فرنسا للاتصال بعالم الأهالي (الجزائريين) فقط بل بالعالم العربى الإسلامى أجمع . وقال إن معرفة اللغة العربية ستجعل العالم الأوروبى يربط علاقات بالشعوب الإسلامية وهي علاقات لا تكفى فيها الكتب بل لابد فيها من التعبير الشفوى أيضاً (4) .

إن دور برينيه في ترويج العربية بين الأروبيين لم يختره لنفسه فقط بل اختير إليه . وكان عليه هو أن ينفذه بدقة ونشاط

(1) اطعنا على ط. 2 من الكتاب ، باريس - الجزائر 1857 .

(2) طبع عدة طبعات ، 1846 ، 1855 ، 1915 .

(3) المقدمة ، ص 5 ، ط . باريس 1852 .

(4) مقدمة ط . 3 ، 1915 .

لأنه بذلك يحقق أهداف الإدارة الاستعمارية .
وهذه رسالة المتصرف المدني بريسون Bresson
تشهد بذلك . وكان بريسون قد خلف جنتي
دى بوسى فى الإدارة المدنية بالجزائر ، 1836
وقد سارع بكتابة رسالة إلى المفتش العام
للتعليم جاء فيها أن مهمة فرنسا فى الجزائر
تتوقف على دراسة العربية والتوسع فيها ،
وذلك لمعرفة الأهالى والاتصال بهم ، وأنه
لا يكفى فى ذلك الاعتماد على بعض المترجمين
وقال أن إنجار الاستعمار Colonisation
يتوقف على نجاح برينيه فى مهمته ، وأن
الحكومة لم تختره لذلك إلا لثقافتها فيه وتقديرها
له . وعليه أن يثبت ذلك ، كما عليه أن لا
ينسى أن الدرس الذى يلقيه فى اللغة العربية
ليس درسا عاديا ، لأنه درس جاء بعد
احتلال الجزائر فاكسب بذلك أهمية سياسية
ومنفعة عظيمة . وعلى برينيه أيضا أن يعمل
على توسيع المعرفة فى العربية الدارجة ،
وأن لا يقتصر فى ذلك على لهجة مدينة الجزائر
بل عليه أن يفعل نفس الشيء مع لهجات التل
وقبائل زواوة وقبائل السهول والجبال عندما

تستطيع فرنسا الوصول إلى هذه المناطق (1) .
وكان لبريسون مخطط آخر أيضا كشف
عنه فى هذه الرسالة التى تعكس اهتمام
الفرنسيين المبكر بدراسة العربية كوسيلة
للاحتلال والتوسع : فقد جاء فى نفس
الرسالة أنه (بريسون) يتطلع بكل رضى
مزوج بالأمل أن يرى الشباب الأوروبى فى
الجزائر ، وقد درس العربية واستفاد منها
فى الفلاحة والتجارة وفى الوظائف العمومية
لأن الإدارة ، كما قال ، تخطط أن لا تقبل
فى المستقبل فى هذه الوظائف إلا الأوربيين
الذين يعرفون العربية والفرنسية معا ، بل
أن المترجمين أنفسهم سيقع تفضيل الذين
درسوا منهم فى الجزائر على الذين درسوا
خارجها . ومن أجل ذلك طلب بريسون
من مفتش التعليم أن يكشف للآباء عن هذه
النية ، وأن يطبع الكتب الابتدائية ، وأن
يشترى الكتب الضرورية ، وأن يفتح أقساما
تجديدة للعربية فى المدارس الفرنسية ، وأن
يحدث مسابقات وجوائز لهذا الغرض (2) .

(1) كان الإحتلال الفرنسى عندئذ (1837) ما يزال مقصورا على بعض المدن للساحلية .

(2) رسالة بريسون إلى المفتش العام للتعليم نشرتها (لومونيتور) فى 10 فبراير 1837 انظر كور ،

والغريب أنه فى الوقت الذى يعلن فيه بريسون عن مخططاته لنشر العربية بين الأوربيين فى الجزائر كان
يحرم الجزائريين من تعلم لغتهم وقد استولى الفرنسيون على المؤسسات الدينية والتعليمية ، وحولوا أعدادا
منها إلى كنائس وملاجئ ومخازن ودكاكين كما استولوا على الأوقاف الإسلامية التى كانت تغذى للتعليم
ورجال الدين والعلم وترعى المكتبات .

ولكن تطلعات بريسون لم تتحقق كلها وبسهولة ، بل أن الطريق كان مليئا بالعثرات والنتائج المخيبة ، كما سنرى . فلم تكن عشرية الأربعين حتى كان نظام معرفة العربية للأوربيين في حاجة إلى اصلاح ومراجعة . وقد بدىء في إصلاح فرقة المترجمين العسكريين سنة 1842 . وذلك باجراء امتحان لهم يتسابقون فيه على تصنيفات ورتب محددة وكان مقرر اللجنة هو برينيه نفسه . وقد ترشح للامتحان عدد من تلاميذه وتقدم خريجو كرسى (حلقة) العربية في الجزائر على من عداهم من المترجمين . وأصبح المترجمون العسكريون هم اليداليمنى للإدارة الاستعمارية في الجزائر إذ كانت البلاد كلها محكومة بنظام عسكري دقيق (تابع لوزارة الحربية) ، وكانت « المكاتب العربية » التي تتولى شئون الجزائريين منتشرة عبر الأجزاء المحتلة من الجزائر وكان على رأس كل مكتب عربي (1) ضابط فرنسي يعرف العربية بالطريقة

التي كان يعلم بها برينيه . وبذلك النوع من الامتحان أخرج من المترجمين العسكريين من لا هدف له إلا المصلحة الشخصية ، أو المرتزق . ويستعمل فيرو كلمة « التطهير » في هذا المجال .

وأمام حاجة الإدارة الاستعمارية إلى موظفين يعرفون العربية وأمام انخفاض عدد الحضور (2) لدروس برينيه ، فإن الحاكم العام المارشال بوجو ، استصدر مرسوما ملكيا سنة 1845 ينص على أنه ابتداء من 1847 سيكون من المحتم على كل طالب وظيفة من المدنيين أن يكون عارفا بالعربية ولكن هذا المشروع الطموح لم يتفد في النهاية ، لأن بوجو صاحب الفكرة غادر الجزائر في منتصف 1847 ، ولكن ثورة 1848 بفرنسا قد غيرت نظام الحكم بها كما غيرت من سياسة فرنسا نحو التعليم في الجزائر على العموم (3) .

(1) « المكتب العربي » مصطلح يعنى مركز السلطة الفرنسية لإدارة شئون الأهالي في الأمن والقضاء ونحو ذلك ، وقد بقي إلى سنة 1870 ، ثم انحصر في المناطق الجنوبية فقط .

(2) يذكر كور ، ص 39 ، أن عدد الحضور لدروس العربية قد انخفض تدريجيا حتى وصل إلى 12 شخصا فقط في درس العربية العامة وعشرة فقط في العربية الفصحى . ويعال كور لذلك بقوله إن هجرة الأوربيين إلى الجزائر كانت إلى ذلك الحين (1844) محصورة في المدنيين الأميين بصفة عامة ، وابتداء من 1845 حل بالجزائر شباب متعلم للاستيطان والعيش فيها ، حالما بمستقبل مليء بالوعود .

(3) من ذلك أن قرار 16 أوت 1848 نص على إلحاق المدارس الفرنسية والإسرائيلية في الجزائر بوزارة التعليم مباشرة أما المدارس الإسلامية فقد تركت تحت وزارة الحربية والغريب في الأمر أن مسئول مهامة التعليم في الجزائر كان يتراسل بطريقتين مختلفتين : فهو يتراسل مباشرة مع الوزير في باريس بالنسبة =

ولكن سنة 1846 شهدت عمليتين تتعلقان باللغة العربية . الأولى أحداث كرسى جديد (أو حلقه) للغة العامية في كوليج الجزائر . ولما هذا الكرسى أجريت مسابقة فاز فيها المستشرق قرقوس Gorguos ومن الطريف أن نعرف أن مواد المسابقة التي جرت تحت إشراف برينبيه كانت تتألف من :

- 1- معرفة نحو العربية العامية .
- 2- عناصر العربية الأدبية (الفصحى) .
- 3- إنشاء بالعربية العامية حول موضوع معين .
- 4- قراءة وترجمة نص من كتاب مفتوح من مخطوط سهل .
- 5- درس حول نقطة في النحو العربي تتعلق بمسألة في كتاب عربي .

أما العملية الثانية فهي أحداث كرسى للعربية الدارجة في كل من وهران وقسنطينة وقد جرت مسابقة أيضا على نفس النسق لاختيار من يقوم بالوظيفتين . وكانت النتيجة فوز فينيار Vignard الذي تعين لقسنطينة أما كرسى وهران فقد كان من نصيب هادمار Hadamard ، المترجم السابق في مصلحة أملاك الدولة . ومن جهة أخرى لم يطل أمد فينيار في قسنطينة إلا بضعة أشهر ثم حل محله المستشرق شيربونو خريج مدرسة اللغات الشرقية بباريس (1) . وتجدر الملاحظة أن كلا من أستاذ كرسى العربية في وهران

للمدارس الأولى ، أما بشأن مدارس المسلمين فعليه أن يراسل فقط مع والى العام بالجزائر ومن التغيرات أيضا إنشاء أكاديمية التعليم بالجزائر ، سبتمبر 1848 ، وتعين ديلاكروا على رأسها وتسميته عضوا في مجلس والى العام ومن الملفت، للنظر أيضا أن للقرار المذكور لم يشر إلى كراسى العربية الأربعة . وقد يفهم من ذلك أنها تابعة للتعليم الإسلامى ، ولكنها من الناحية المالية كانت تابعة للتعليم العالى بفرنسا نفسها انظر كور ، ص 42-41 .

(1) جاك شيربونو Cherbonneau ولد سنة 1813 وتابع دراسته في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وقد نشر عدة مقالات في المجلة الآسيوية ، وكانت تسميته لكرسى العربية في قسنطينة قد جعلته يكرس جهاده لحياة الجزائر العربية وفي سنة 1861 أصبح مدرسا في المدرسة العربية الفرنسية بنفس المدينة ، وبعد سنتين أصبح مديرا للكوليج العربى للفرنسى في الجزائر ، وفي سنة 1871 أصبح مديرا لجريدة (المبعث) وهي جريدة رسمية كانت تصدرها إدارة الجزائر باللغتين العربية والفرنسية . ومن وظائفه في الجزائر أنه أصبح مفتش المدارس العربية - الفرنسية الثلاث وبعد أن فرغ كرسى العربية المغربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس بوفاة البارون دى سلان ، رجع شيربونو إلى هذه المدرسة كأستاذ للعربية المغربية (العامية) وقد نشر عدة أعمال تدخل في مهنته مثل الكتب المدرسية ومعجم عربى - فرنسى ، وتصريف الأفعال في العامية وغيرها مما يدخل في دراسة اللهجات ، كما نشر بعض الأعمال التاريخية مثل وثائق حول عبيد الله المهدي ، وتحقيق تاريخي حول الدولة الأغلبية ، وآخر حول عائلة بنى جلاب ، ومقالة عن الأدب العربى بالسودان وقد علق أحدهم على دور شيربونو فقال إنه كرس جهده في الجزائر لصهر العنصر الفرنسى والعنصر العربى عن طريق التعليم انظر ماسيه ، ص 11-13 ولا نجد لشيربونو ذكرا في (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوى .

وقسنطينة كان يلتقى ثلاثة دروس فى الأسبوع بمعدل ساعة للدرس . وقد أعطيت الحرية لكل منهما فى التصرف بما يراه مناسبا بعين المكان. ||

ورغم هذا التوزيع الجغرافى لحلقات تدريس العربية للأوربيين وإجراء المسابقات لاختيار أحسن الأساتذة ، فإن النتائج لم تكن فى مستوى الاهتمام . وقد انتقد بيليسيه دى رينو حالة التعليم فى الكراسى الثلاثة فقال عن الحضور إنهم لا يتجاوزون الستين شخصا وأن حالة الاقبال لا تختلف عن حالة الاقبال على دروس الكوليج دى فرانس . ولاحظ تقرير فى نفس الفترة (1848) أنه رغم حماس الأساتذة فإن نتائج الدروس كانت مخيبة للآمال . وقال إن أعداد الحاضرين حلقة وهران كان قليلا . وعلا ذلك بصعوبة العربية فى بدايتها ، وقيل إن الحاضرين يكثرون فى أول السنة ثم يتناقص عددهم بعد برودة الحماس الأول ولا يبقى منهم إلا عدد ضئيل (1) .

ولم يسع وزارة التعليم لإلتكوين لجنة سنة 1849 مهمتها اقتراح الوسائل لنشر العربية بين الأوربيين والفرنسية بين المسلمين فى الجزائر فورا . والواقع أنه لا معنى لكلمة « فورا » هنا لأن توصيات اللجنة لم يؤخذ

بها فى حينها ، كما سرى . وكانت اللجنة برئاسة الجنرال بيدو الذى طالما قاد المعارك ضد الأمير عبد القادر ، وعضوية المستشرق الشهير بيرسوفال من الكوليج دوفرانس ، والدكتور بيرون Perron مدير مدرسة الطب بالقاهرة ، وفرديناند بارو Barrot مقرر اللجنة . وفى تقريرها لاحظت اللجنة أن نشر الفرنسية بين الجزائريين سيسهل مهمة الاستعمار ، وأما الوسائل لذلك فهى تهدئة الأوضاع (أى القضاء على المقاومة) والاندماج .

وأكدت اللجنة اضطراب عدد الحضور فى دورس العربية التى يتولاها المستشرقون الأربعة ، إذ يبلغ عدد المسجلين فى بداية السنة حوالى مائة ثم ينخفضون إلى حوالى 15 فى نهاية الفصل ، وأن هذا الحضور يختلف من مدينة إلى أخرى فعدد تلاميذ شيربونو بلغ 15 بينما بلغ تلاميذ هادمار بوهران ستة فقط ، منهم بعض الموظفين الجزائريين وكانت اللجنة على العموم راضية بدروس برينييه ، وقالت إن دروسه مقسمة على النحو التالى :

1- ثلاث حصص أسبوعيا للتدريب الشفوى وتعلم طريقة النطق والقراءة .

2- حصّة لقواعد النحو والإملاء
والأسلوب .

3- حصّة للأدب مع شرح قطع
من المؤلفات الأدبية أو العلمية .

4- حصّة لترجمة الرسائل والعقود
والكتابات العادية .

وحكمت اللجنة أن نتيجة الدروس
العربية تكاد تكون صفرا رغم حماس
الأساتذة وأهليتهم ، وقد طالبت بضرورة
منح تشجيعات للأساتذة وفتح المجال أمام
التلاميذ الدارسين كجعل الوظائف المدنية
مشروطة بإتقان اللغة العربية .

ولاحظت أن المعلمين الفرنسيين في
المدارس الابتدائية لا يعرفون العربية .

وتساءلت ما إذا كان من الحكمة الاستعانة
بالمعلمين الجزائريين الذين يعرفون شيئا من
الفرنسية في تعليم العربية لأبناء الفرنسيين
ورأت أنه من الخطأ ترك المعلمين الجزائريين

غير موظفين لأن الفراغ يجعلهم يفكرون
في العمل ضد النفوذ الفرنسي . بالنسبة للتعليم
الثانوي لاحظت اللجنة أن تعليم العربية
في الليسيه الوحيد عندئذ هو ساعتان في
الأسبوع فقط ، وأوصت أن تدرس
العربية يوميا في الليسيه، وتقسيم دروسها على
مدار السنة ، وشمول دراستها النحو وترجمة
كتابات عربية إلى الفرنسية ، وكتابات
فرنسية إلى العربية : أما بالنسبة للتعليم العالي
(أى مستوى التعليم في كراسى اللغة العربية)
فقد رأت اللجنة أنه يحتاج فقط إلى التنظيم
والتوسيع والتدعيم لما هو موجود : وأوصت
بأن تفتح حلقات أخرى للعربية في عدة
مدن أخرى بالجزائر (1) :

ولكن تقرير اللجنة المذكورة لم تكن له
نتيجة عاجلة : فقد بقيت كراسى اللغة
العربية على ما هى عليه : غير أن خطوات
ثلاث تحققت وهى تهدف كلها إلى تشجيع
دراسة اللغة العربية : الأولى إنشاء المدارس

(1) نقل ذلك كور ، 45-46 . أما ما يتعلق بتعليم الفرنسية للأهالى ، فاللجنة رأت ضرورته لأن
للفرنسية « لغة سيادة » إذ أن الأهالى يستمعون إلى قرارات المحاكم بها وكل الاتصالات الرسمية ستكون بها
عاجلا أو آجلا ، كما ستحور بها كل الوثائق للعامة كما أن الفرنسيين قادرون على دمج الجزائريين وعلى
« فرنستهم » في حدود عاداتهم ودينهم انظر أيضا كور ، ص 51 .

الثلاث (1) (1850) : والثانية

إنشاء جوائز سنوية لعارفي اللغة العربية من الفرنسيين طبعا (1851) . والثالثة إعلان وزارة الحربية عن تفضيلها لعارفي العربية في الوظائف المدنية (1853) .

وبعد أربع سنوات انشئ في الجزائر كوليج عربي - فرنسي موجه لنشر التأثير الفرنسي بين الجزائريين . وكان يضم تلاميذ فرنسيين أيضا . ومن ثمة فإن هدفه ليس كهدف الحلقات الدراسية المذكورة أو

كراسي اللغة العربية : وكان مديرة هو الدكتور بيرون Perron (2) الذي استدعى من مصر لهذه المهمة . وإذا كان البرنامج العام للكوليج في حد ذاته لا يهملنا هنا ، فإنه يهملنا منه كرسى اللغة العربية الذي ألحق به سنة 1863 والذي أسند الى مستشرق مختص هو هوداس . وبعد سنة أنشأت وزارة التعليم كرسيا للهِجة الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وأسندته إلى مستشرق مختص آخر هو البارون دي سلان (3) .

(1) هي ثلاث مؤسسات عربية - فرنسية بالعاصمة وقسنطينة وهران وكان للغرض منها تخريج كوادر جزائرية تحتاجها الإدارة الفرنسية في ميدان القضاء والترجمة والتدريس لذلك كان برنامجها يشمل المواد الفقهية والعربية بالإضافة إلى اللغة الفرنسية وكانت إدارتها تحت عناصر جزائرية إلى حوالي 1895 ثم تولى إدارتها مستشرقون فرنسيون وكان تعايضها يعتبر عاليا وليس هنا محل الحديث عن هذه المدارس . للتوسع انظر بحثنا (مدارس الثقافة العربية في الجزائر 1830-1954) ، وفي كتابنا (أفكار جامحة) ، الجزائر 1988 :

(2) نيقولا بيرون ولد سنة 1798 ، تابع الدراسة الإنسانية ثم تخصص في الطب ومال إلى اتباع سان سيمون وأثناء ممارسته الطب تعلم العربية في مدرسة اللغات الشرقية ، كما درس الفارسية والتركية ولغة جاوة وكان كلوت باي قد أسس مدرسة الطب في مصر وجاء إلى باريس يبحث لها عن الأساتذة وكان منهم بيرون الذي سافر إلى مصر وهناك واصل دراسة العربية ، وأتى دروسا في الكيمياء وفي الفيزياء وغيرهما ، وبشر أبحاثا في هذه العلوم وترجم رحلة ابن عمر التونسي ، كما ترجم كتاب خليل ابن إسماعيل في الفقه المالكي وفي سنة 1857 ولته حكومته إدارة الكوليج الأمبريالي (العربي - الفرنسي) في الجزائر ، وبعد سبع سنوات سمته مفتشا عاما للمدارس العربية - الفرنسية في الجزائر ، وقد توفي الدكتور بيرون سنة 1876 قريبا من باريس . ومن أعماله أيضا كتاب المرأة العربية قبل الإسلام ، والحياة الطبية الجزائرية انظر ماسيه ، ص 20-22 .

(3) وائد البارون دي سلان de Slane في بيلفاست (إيرلندا) سنة 1801 وجاء باريس سنة 1830 (سنة احتلال الجزائر) ، وانضم إلى تلاميذ المستشرق دي ساسي وقد أخذ الجنسية الفرنسية ، ونشر ديوان أمرى القيس ومئة مخبات من كتاب الأغاني ونشر قسما من ابن خلكان ، وأعمالا تتعلق بالمغرب العربي مثل النويرى وابن حوقل وابن بطوطة ، وترجمة مقدمة ابن خلدون وتاريخه وبين 1843-1845 كلفته الحكومة الفرنسية ب مهمة في الجزائر فأرسل إليها تقريره عن أهم المكتبات وعدد المخطوطات في قسنطينية وقد طبع التقرير ثم

كان تدريس اللهجة العامية باللغة الفرنسية هو الطريقة التي اتبعها أساتذة الكراسي المذكورة أو الحلقات . وكان الهدف كما أشرنا هو جعل الأوربيين في الجزائر يختلطون بالأهالي ويعرفون أفكارهم وحاجتهم . وقد أجاب أحد هؤلاء الأساتذة وهو ماشويل الذي تولى تدريس العامية الجزائرية في ليسيه العاصمة ثم في حلقة وهران قبل أن يتولى شؤون التعليم في تونس بعد احتلالها ، قائلا : لو لم تكن في الجزائر ولو لم تكن لدينا حاجة ملحة للاتصال بالأهالي عن طريق اللسان لكنا من الذين يؤيدون البدء بدراسة الفصحى التي هي واحدة ، وهي هي نفسها بالضبط في كل البلدان التي فيها القرآن هو القانون الديني . وقال ماشويل بأن هدفه هو جعل الأوربي يعرف الدارجة العربية كما يعرفها الإنسان

الأهلي الذي لم يدخل المدرسة أبدا ، مضيفا بأن الأوربي سيتفوق بعد ذلك على الأهلي في معرفة الكتابة بالدارجة (والكتابة عموما) كما يتفوق عليه بالذكاء . واستخلص التجربة من تونس حيث الحالية الإيطالية هناك تتحدث مع التونسيين بالعامية ولا تعرف من الفصحى إلا قليلا ، مما جعل لها في نظره تأثيرا قويا على السكان . وقد استفاد ماشويل في طريقة تدريس العامية بآخر التطورات الحديثة في أوربا لتدريس اللغات للشباب ، خصوصا بالنسبة لنظريات تدريس الانكليزية والألمانية وأعمال روبرتسون . واتو ، وولندورف ، مصرحا بأنه استفاد من هؤلاء أكثر مما استفاد من طرق تدريس زملائه الفرنسيين أمثال برينييه وشيربونو (1)

والواقع ان تعليم العربية للأوربيين كان عملية شخصية يقوم بها الأستاذ المستشرق في كل مركز من المراكز المذكورة

سمى مترجما في الجيش الفرنسي بالجزائر ، وكان هو الذي يشرف على لغة البلاغات الرسمية والمراسلات العربية للحكومة مع الجزائريين وهو الذي يعطيها الأسلوب الملائم حتى أصبحت طريقته تقليدا ان جاء بعده وفي 1863 رخص له بتولي كرسى العربية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية ، وهو الكرسى الذي تحول منذ 1871 إلى العربية العامية بعد أن كان يشغاه بيرسوفال . ولدى سلان أعمال أخرى حول الحروب الصليبية وغيرها ، وقد أخرج كاتلوع المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس وتوفي سنة 1878 (انظر عنه ماسيه ، ص 13-19 وايس له ترجمة في (الموسوعة) الدكتور بدوي .

(1) ذكر ماشويل ذلك في مقدمة كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية) ، الطبعة الثانية سنة 1875 ونحن نجد صدى ذلك أيضا في مقدمة كتاب : أيدنشاناك وكوهين سولال (الكلمات المستعملة في العربية الدارجة) ، الجزائر 1897 فقد قال بأنهما اتبعوا في تدريس العربية نفس الطريقة المتبعة بنجاح منذ عشرين سنة بالنسبة للغات الأمازيغية والإنكليزية واللاتينية والألمانية .

فكانت شخصيته وعلمه وغيرته هي التي تجلب اليه الجمهور . ولم يكن لوزارة التعليم ولا للسلطات المحلية مخطط محدد تتابعه في هذا المجال ، كما كان الحال في بداية الأمر خصوصاً في عهد بريسون وبوجو مثلاً . ورغم أن هذا التعليم كان مصنفاً في المستوى العالي ، فإن الأساتذة وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أحداث ثلاثة مستويات : ابتدائي في العمومية لمن ليس لهم المام بها ، ومتوسط لمن يرغب في معرفة شيء من النحو وحتى قراءة نصوص من القرآن الكريم ، وعال وفيه تعلم تراجم المؤلفين ومختلف أنواع الكتابة . ويقول نقاد هذا التعليم إنه انخفض لأن العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية والمتوسط حيث يتم إعداد الراغبين في المزيد إلى يد الأساتذة المستشرقين (1) .

وخلال السبعينات ظهرت انتقادات أخرى لمشروع تدريس العربية الذي نحن بصددده ، من وجهتين : الأولى أن الحكومة لم تدعم جهود المستشرقين كالمترجمات من العربية ولا الأعمال العلمية المتصلة بالتراث

العربي الإسلامي سواء في الجزائر أو خارجها ، باستثناء تمويلها لمشروع اكتشاف الجزائر العلمي وترجمة دي سلان لتاريخ ابن خلدون . والثانية أن النظرة السائدة سواء عند السلطة أو عند مؤلف الكتب المدرسية الموجهة للأوربيين الراغبين في العربية نظرة تقوم على مبدأ واحد وهو أن العربية مجرد وسيلة للاتصال مع الأهالي وأداة للتوغل السياسي . أما العربية كعامل ثقافي ووسيلة للاطلاع على كنوز حضارتها اللامعة الناعمة في الكتب المؤلفة بها كما يقول ماسيه فهذا ما لم يحدث قبل إنشاء المدارس العليا والكليات الجامعية .

ويؤرخ الذين تتبعوا الدراسات الاستشراقية في الجزائر نشأة هذه المدارس العليا بسنة 1879 ففي هذا التاريخ أنشئت ثلاث مدارس هي الآداب والعلوم والحقوق (وسبق لمدرسة الطب أن تأسست منذ 1857) . وكانت هذه المدارس الأربع هي نواة جامعة الجزائر التي أعلن عنها رسمياً سنة 1909 بعد تحويل المدارس العليا المذكورة إلى كليات . وبهنا

(1) أنظر النقد الذي ورد في تقرير مفايش التعليم في الجزائر في (الإحصاءات العامة) لسنة 1873—1875

كما نقله كور ، ص 95—62 وقد لاحظ صاحب التقرير أنه كان الأولى لأبناء الفرنسيين في المدارس الابتدائية بالجزائر أن يدرسوا العربية بدل الإيطالية أو الأسبانية ولا حظ أن عدد الحضور للدروس كان يتراوح بين 20—30 في الشتاء ، و15—20 في الصيف ، معتبراً ذلك تعامياً محدوداً جداً ولا يحقق النتائج المرجوة ولكنه لاحظ أن وزارة التعليم رفعت أجرة أستاذ الكرسي إلى ألف فرنك .

الجزائر (1884) إلى باريس ليتولى هناك
تدريس العامية الجزائرية في مدرسة اللغات
الشرقية خلفا لشيربونو . وقد حل باسيه
محل هوداس في كرسي العربية بالجزائر ،
كما حل ادمون فانيان (3) محل باسيه في
مادة الأدب العربي .

ويعتبر هذا العهد (1880—1905) هو
العهد الذهبي للمستشرقين الفرنسيين في
الجزائر وهو العهد الذي كلل بانعقاد المؤتمر

من هذه المدارس الأربع مدرسة الآداب :
فهى التى ضمت قسما صغيرا للدراسات
الاستشراقية ، كما ضمت كرسيًا للغة العربية
وآخر للآداب العربي . وقد تولى هوداس (1)
كرسي اللغة العربية بمساعدة بلقاسم بن
سديرة أحد الجزائريين الذين تكونوا في
مدرسة الاستشراق الفرنسي وساهم فيها
بفعالية بتدريسه وتأليفه : وبالإضافة إلى
ذلك تولى رينى باسيه (2) تدريس مادة
الأدب العربي ، ولم يلبث هوداس أن غادر

- (1) ولد أوكشاف هوداس Haudas في لوتارفيل سنة 1840 وتوفي بالجزائر سنة 1916 وقد حل بها سنة 1863 عند
استلامه كرسي العربية في الكوليج للعربي - الفرنسي وبقى في الجزائر إلى سنة 1884 حيث عمل أيضا أستاذا
في لپسيه للعاصمة ، وتولى كرسي العربية بوهران ، وكرسي العربية بمدينة الجزائر ، ثم افتتح تعليم العربية
في مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880 نشر هوداس مؤلفات موجهة لتلاميذه وكذلك ترجم
تحفة ابن عاصم في الفقه المالكي وهو للعمل الذي شغله قرابة عشر سنوات كما ترجم أعمالا تتعلق بتاريخ المغرب
العربي عموما والسودان للقديم وبعض صحيح البخاري انظر عنه ماسيه ص 25—27، وكذلك كور ، ص 49
- (2) ولد رينى باسيه Ri Bossei سنة 1855 وقد انجذب منذ عهده الأول نحو اللغة العربية ، ودرس
في مدرسة اللغات للشرقية بين 1873—1880 وفي هذه السنة وصل إلى الجزائر حيث أصبح مديرا لمدرسة
الآداب العليا ثم عميدا لكلية الآداب إلى وفاته سنة 1924 بالجزائر وقد أتقن أيضا اللغة الحبشية واللبربرية
ونشر عن الأخيرة أكثر من 25 عملا ومن تلاميذه في ذلك ديستان Destaing الذي أصبح أستاذا للبربرية
في مدرسة اللغات للشرقية وقد شمل اهتمام باسيه جوانب عديدة من الدراسات الاستشراقية : اللغة ، للفولكلور
للتاريخ ، الدين ، ونشر أعمالا عن الأدب الجاهلي والإسلامي (البردة ، بانت سعاد ، وألف ليلة وليلة إلخ .)
انظر عنه الفريد بيل في (أفريقية للفرنسية) ، 1924 ، ص 13—14 و (المحلة الأفريقية) 1924 ، ص 12 وما
بعدها وهناك Melange باسمه ضم حوالى 40 صفحة عن أعماله مقسمة إلى أبواب . وماسيه ، ص 27—29.

- (3) ادمون فانيان E. Fanian من مواليد لياج سنة 1846 وقد توفي بالجزائر 1931 اهتم بالترجمة عن العربية
وواصل العمل الذي بدأه دى سلان لاسيا الجانب للتاريخي ، من ذلك تاريخ الزركشى عن الموحدين والحفصيين
وتاريخ ابن الأثير عن المغرب والأندلس ، وتاريخ ابن عذاري ، وكتاب الماوردي ، ورسالة لأقيرواني
في الفقه كما أنه هو واضع كاتلوج المخطوطات العربية والتركية والفارسية في المكتبة الوطنية بالجزائر وفانيان
هو الذي تولى تدريس مادة الأدب للعربي بعد وفاة باسيه . انظر عنه ماسيه ، ص 29—30، وكذلك (المحلة
الأفريقية) 1931 ، ص 139 وما بعدها .

الرابع عشر للمستشرقين العالميين سنة 1905 بمدينة الجزائر والذي حضره حوالي خمسمائة شخص (1) . ولم يحضره من المشرق العربي ، حسب علمنا ، غير ثلاثة من مصرهم : محمد فريد وعبد العزيز جاويش وساطان محمد . ولكن حضره عدد من تلاميذ وأعوان المستشرقين الفرنسيين أمثال محمد بن أبي شنب وعبد الحليم بن سماية والقاضي شعيب بن علي . وليس الحديث عن هذا المؤتمر وما جرى فيه من مهمة بحثنا هذا . وحسبنا أن نقول ونحن بصدد الحديث عن لغة الضاد ، أن الوفد المصري قد انتقد غياب التعليم العربي للجزائريين وقد دخل في نقاش حاد مع الوفد الفرنسي في المؤتمر حول هذه النقطة .

لقد اندمجت كراسي العربية العامة القديمة التي ابتدأت منذ 1832 والموجهة إلى الأوروبيين فأصبح مقرها في المدارس الإقليمية ، فتحول كرسى وهران إلى مدرسة تلمسان العربية - الفرنسية التي

كانت تحت إدارة المستشرق الفريد بيل وتحول كرسى قسنطينة إلى المدرسة العربية الفرنسية أيضا والتي كانت بإشراف موتيلا نسكى إلى 1906 (2) ، أما كرسى العاصمة فقد تولته مدرسة (كلية) الآداب العليا وكذلك المدرسة الثعالبية (العربية - الفرنسية) التي كانت بإشراف ادمون ديستان إلى ذهابه إلى باريس لتولى كرسى البربرية في مدرسة اللغات الشرقية .

ومنذ ما يسمى بعهد إصلاح المدارس العربية - الفرنسية (1895) ثم إصلاحات الوالي العام جوناو (1903-1912) في التعليم عموما ، أصبح على الجزائريين أن يدرسوا هم اللغة الفرنسية « لغة السادة » ولم يعد الأوروبيون مطالبين بدراسة العربية لا باسم تسهيل الاختلاط بالأهالي ولا باسم المعرفة الثقافية للتراث العربي لأنهم كانوا في الحملة يحتقرون هذا التراث ولا يعترفون به ولا باسم الحاجة إلى الترجمة لأن قسم

(1) كان رئيسه هو ربنى باسيه وقد صدرت عن هذا المؤتمر عدة مجلدات في شكل وقائع ومذكرات كما أن الحملة الأفريقية قد خصصت له عددا خاصا .

(2) بدأ موتيلانسكى A. Motilinski حياته مترجما في غرداية بالجنوب ومن ثمة اهتمامه بالمذهب الاباضى والمؤلفات التي ألقت حوله ومنذ 1887 أصبح مديرا لمدرسة قسنطينة العربية - الفرنسية ، ثم أصبح هو أستاذ كرسى العربية فيها (1889) وقد قام بتدريس اللهجات البربرية ، وشر أبحاثا حول تجربة وسكان جبل زنوسة ، ووادي ميزاب ومن ذلك بديلوغرافية عن ميزاب ، وأخبار الأيمة لابن الصغير وتوفي سنة 1907 بعد أن قام بمهمات « علمية » في الصحراء انظر ماسيه ، ص 32 .

الاستشراق في كليات الآداب وخريجي المدارس الحكومية الثلاث المشار إليها أصبحوا يمدون الإدارة بما تحتاجه من ذلك . وهكذا وجد الاستشراق نفسه في الجزائر منذ انشاء نواة الجامعة وإصلاح التعليم وأصبح مقصورا على أهل الاختصاص الذين كان عليهم أن يدرسوا العربية العامية والفصحى والبربرية بمختلف لهجاتها . أما الأوروبيون في الجزائر فقد كان لسان حالهم ما قاله ما شويل منذ 1875 وهو « ليس علينا نحن المنتصرين أن نتعلم اللغة العربية ، بل الواجب على الأهالي أن يدرسوا لغتنا » . وقد رفضوا حتى « التنازل » على هذا الحق — كما نصحهم ما شويل — حق الانتصار والسيادة !

ومن الصعب أن نعدد أعمال المستشرقين بعد أن آلت إليهم دفعة الدراسات العربية في الجزائر (1) بعد أن انتزعوها من أيدي المترجمين ومؤلفي الكتب المدرسية بالعامية وما شاكلها . ولكن أهم النواحي التي اهتموا بها هي : المعاجم . واللسانيات والخطوط والنقوش والتاريخ الديني ، وتحقيق النصوص والترجمة في ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافية والفقه بالإضافة إلى أعمال انثروبولوجية وفولكلورية الخ . ومادام

هذا البحث خاصا بتدريس العربية فلن نتوسع في ذكر أعمال المستشرقين الأخرى .

وقد تبين من هذا البحث أن العلاقة بين الاستعمار والاستشراق في الجزائر كانت وطيدة وأن الحديث في ذلك إنما هو محض تكرار لاطائلة منه . ولكن هناك نقاط أخرى يمكن أن نستخلصها وهي :

1- ان عزم الفرنسيين على البقاء في الجزائر وهجرتهم إليها واستيطانهم لها ترتب عليه الاهتمام بلغة السكان فحاولوا تعلمها ليفهموا أهلها ويسهل عليهم التعامل معهم قبل ان يتوطد حكمهم وتنتشر لغتهم وتأثيرهم . وقد أدى ذلك إلى اهتمام خاص بدراسة اللهجات الجزائرية العربية وغير العربية فأنموا فيها الكتب المدرسية ، ودونوا أمثالها وكتاباتها وتعابيرها ودرسوا الفروق بينها من منطقة إلى أخرى . وكذلك الفروق بينها وبين اللهجات العربية الأخرى التي امتدت إليها معرفتهم . ولكن ذلك لم يخل من مغامرة كالقول بأن اللهجات العربية في شمال افريقية ابتعدت أكثر من غيرها عن العربية الأم . وقد رأينا انهم أنشأوا عدة كراسي للعامية في الجزائر ثم أضافوا إليها كرسي العامية الجزائرية في مدرسة اللغات

(1) اشتملت دراسة هنري ماسيه (الدراسات العربية في الجزائر) على بيباوغرافية مبوبة بأعمال

المستشرقين والمترجمين معا .

الشرقية بباريس وآخر عن البربرية في نفس المدرسة .

2- أن الجزائر أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسي مبكرا . فقد وقعت مخطوطاتها ووثائقها وآثارها بين أيدي المستشرقين فتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه ، وضاعت معهم اليوم ثروة هائلة من ذلك بعد أن استولوا عليها بطرق مختلفة تحدث عن بعضها كبارهم من أمثال بروجر ودي سلان وفانيان . ومن الجزائر انطلقوا أيضا فيما يسمى « بالمهامات العلمية » إلى كل من تونس والمغرب والسنغال وتمكنو وغدامس الخ . فتحدثوا عن المخطوطات والمكتبات هناك ووصفوها وفهرسوا بعضها ونقلوا منها ثم نشروا من ذلك ما يفيدهم ويفيد دولتهم .

3- انه في الوقت الذي أنشئت فيه الكرامى المذكورة ونشطت بالجزائر ونحوها كانت الإدارة الفرنسية ، بمباركة هؤلاء المستشرقين ، تستولى على مؤسسات التعليم العربى في الجزائر وتحولها عن أغراضها وتصادر جميع أوقافها وترى بالأطفال الجزائريين في حضن الجهل حتى لقد قال اليكسيس دى طوكفيل سنة 1848 : لقد أطفالنا الشموع (وهو يعنى المدارس) التى جئنا لنضيئها . وآخر ما صدر عن الإدارة المذكورة في محاربة المدارس العربية والتعليم

العربى للجزائريين هو مطالبة كل من يرغب في فتح مدرسة أو إعطاء درس أن يحصل على رخصة مسبقا حسب قانون أكتوبر 1892 ، ولكنه لن يحصل عليها على كل حال . وهذا القانون هو الذى سلطته الإدارة ضد جمعية العلماء الجزائريين ، وحركة ابن باديس عامة ، عندما عملوا على احياء التعليم العربى - الإسلامى .

4- وسواء تعلق الأمر بالمرحلة الأولى أو الثانية في تدريس العربية للأوروبيين ، فقد كان واضحا ومعلنا بأن الهدف من ذلك هو التوغل السياسى ، وتسهيل مهمة الاتصال بالأهالى ، ومساعدة الأوروبيين على ممارسة تجارتهم وفلاحتهم ، وليس دراسة العربية الفصيحة والاطلاع على ثقافتها ولحيائها ، كما وقع مثلا في الشام على أيدي بعض الجمعيات التبشيرية . فالنشاط اللغوى الفرنسى في الجزائر كان سلبيا بالنسبة للغة العربية وحضارتها .

5- وقد صنف هؤلاء المستشرقون اللغة العربية ثلاثة أصناف : العربية الدارجة وهى التى أخذوا في دراستها منذ بداية الاحتلال ، وظلوا لا يعترفون إلا بها في الجزائر ، كنوع من «الفولكلور» المحصور في بيئات صغيرة ، ولذلك فإن تعليم العامية الجزائرية كان يتم بالفرنسية ، وكانت كتبهم تقرأ من اليسار إلى اليمين ، وحتى

الجزائريين الذين تخصصوا في اللغة العربية أيام الاستعمار كانوا يتخصصون في اللغة العامية - باستثناء من دخل منهم المدارس الحكومية الثلاث التي أشرنا إليها ليتخرج قاضيا أو مترجما . الصنف الثاني العربية الكلاسيكية (هكذا يسمونها) وهي لغة الأدب القديم بما فيه القرآن الكريم والحديث الشريف وأمهات كتب التراث . وقد اعتبر المستشرقون هذا الصنف لغة ميتة مثل اللاتينية والإغريقية لا يدرسها الا أمثالهم للاطلاع على حضارة العرب والإسلام والاستفادة من ذلك لدولتهم في معاملاتها مع الأقطار العربية والإسلامية . اما الصنف الثالث فهو ما أطلقوا عليه العربية العصرية أو الحديثة ، وهي عندئذ لغة الجرائد والكتب المطبوعة حديثا والتي كانت متداولة في المشرق العربي . وهذه اللغة كانت في نظرهم « أجنبية » فكانت صحنها ومجالاتها

وكتبها تدخل الجزائر أحيانا ولكنها كانت تعامل معاملة المطبوعات الأجنبية : وبناء على ذلك فان الصحيفة العربية التي تصدر بالجزائر مثلا كانت تخضع لقانون الصحافة [الأجنبية الذي لا تخضع له الصحف الصادرة في فرنسا نفسها :] .

6- ومع ذلك فان جهود هؤلاء المستشرقين في دراسة وتعليم اللهجة الجزائرية وفي نشر وتحقيق وترجمة مجموعة من كتب التراث هي جهود جديرة بالتزويه . يضاف إلى ذلك أن عددا من الجزائريين قد تتلمذوا عليهم وأصبح بعضهم في طليعة الباحثين والمؤلفين في نفس الميدان . ونكتفي هنا بذكر بلقاسم بن سديرة (1) الذي ألف مجموعة من الكتب المدرسية التعليمية منذ أواخر القرن الماضي . ويختلف محمد بن أبي شنب (2) عن زميله في عنايته بالتراث العربي وتحقيق

(1) من كتب ابن سديرة : موجز النحو العربي ، ودروس تطبيقية في اللغة العربية ، ودروس في الأدب العربي ، ومعجم عربي - فرنسي وآخر فرنسي - عربي ، والدروس التدرجية من الرسائل العربية المخطوطة وقد سماه بالعربية هكذا : (كتاب الرسائل في جميع المسائل) ، 1893 بالجزائر ولابن سديرة تأليف في البربرية أيضا (القبائلية) وقد أصبح أستاذا بمدرسة الآداب للعليا وبالمدرسة النورمالية وعضوا في الجمعية الآسيوية بباريس .

(2) حصل ابن أبي شنب على الدكتوراة من السوربون ، واشتغل أستاذا للأدب العربي في كلية الآداب بالجزائر ، وهو من تلاميذ ريني باسيه وقد حضر عدة مؤتمرات دولية للمستشرقين (استكهولم ، لندن إلخ) وكان عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ومن تلاميذه المستشرق البارز الفريد بيل أستاذ كرسى للعربية ومدير مدرسة تلمسان الحربية - الفرنسية وحياة ابن أبي شنب وأعماله منشورة في (محمد بن أبي شنب) تأليف عبد الرحمن الجيلالي ، ط 2 ، 1983 وكتاب (أعلام الجزائر) لعادل نويهض ولنا بحث حوله سميناه (بين علماء الجزائر وعلماء الشام) في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، 1983 .

العديد من المخطوطات . والغريب أنه لم يظهر بعد الفترة التي تناولناها علماء جزائريون في مدرسة الاستشراق الفرنسي في مستوى ابن أبيديره وابن أبي شنب (ما عدا ربما صوالح) رغم أن مدرسة الاستشراق في الجزائر قد شقت طريقها وأسست لها حوالى سنة 1933 معهدا خاصا سمته معهد الدراسات الشرقية ، ونشرت (حوليات) باسمه ظلت تصدر إلى 1962 تاريخ استقلال الجزائر .

وما دام البحث عن المستشرقين واللغة العربية في الجزائر فلنختتمه بتعليق الشيخ عبد الحميد بن باديس على تصريح المستشرق الشهير لويس ماسينيون حول اللغة العربية . كان ماسينيون في طريقه إلى مصر لحضور دورة مجمع اللغة العربية الذي كان عضوا فيه ، وعند مغادرته فرنسا صرح بأن على فرنسا الاهتمام باللغة العربية لأنها « ليست غريبة عنا ، بل هي جزء من تراثنا القومى . » وعندما قرأ ابن باديس هذا التصريح كتب قائلا : إن ماسينيون يعرف موقف حكومته

في الجزائر من اللغة العربية ومن التعليم العربى الحر ، ومع ذلك لم يرفع أصبعه ، وأنه لو أراد حقا خدمة اللغة العربية « لقدم تقريرا رسميا دعا فيه حكومته إلى اعتبار العربية لغة رسمية وإلى حرية تعليمها في الجزائر ، ثم ناقشه في دعواه أن العربية جزء من التراث القومى الفرنسى . قائلا ولكن « اللغة هي الطابع الصحيح للقومية التى تعرب عن وحدة الشعور والتفكير ، وعمما يعملها من احساسات الألم وبوارق الأمل ، مما اتحد من ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فاللغة العربية انما هي من تراث القومية العربية فقط ، كما أن اللغة الفرنسية انما هي من تراث القومية الفرنسى فقط » وقد ختم ابن باديس رده بقوله : لعل ما سينيون أراد بذلك التصريح المجاملة فقط ، ولكن لا مجاملة في المسائل العلمية « خصوصا في مقومات الأمم وأعز شئ لديها » (1) .

أبو القاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل من الجزائر

(1) جريدة البصائر عدد 20 يناير 1939 وكان ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد قال ذلك حوالى سنة قبل وفاته (توفى 16 إبريل 1940) ويعنى ابن باديس « بالمجاملة » أن ماسينيون يخدم سمعة فرنسا في المشرق وخصوصا بين العرب الذين تربطهم بعض الروابط بفرنسا .

الألفاظ العربية في اللغة البربرية

للأستاذ محمد الفاسي

ألقى

في أحد مؤتمرات
المجمع السابقة بحثاً

عنوانه « البربرية شقيقة العربية » وبينت فيه استناداً إلى النحو والصرف أن البربرية لغة سامية ، وأوردت حججاً على ذلك بالمقارنة مع العربية والآكادية والأمهرية والعربية الفصحى . ولم أعتبر المفردات العربية التي اقتبسها البرابرة بعد إسلامهم واختلاطهم بالعرب عن اللغة العربية كما هو الشأن في اللغات الإسلامية الأخرى . وإلى أشتغل منذ سنين بأثر اللغة العربية على هذه اللغات وهي لغات الأمم العجمية التي بقيت مستعملة في البلاد التي اعتنقت الإسلام ، ولكنها حافظت على لغاتها في المخاطبة وفي نظم الشعر مع استعمال العربية في التأليف الخاصة بالعلوم العقلية ، والعقلية .. وهكذا نرى مثلاً العالم الرياضي الكبير عمر الخيام الفارسي يضع كتبه في العلوم

الرياضية باللغة العربية وينظم رباعياته التي جعلت له شهرة عالمية باللغة الفارسية حتى غطت شهرتها على إنتاجه العلمي خصوصاً عند الغربيين ولم يعرفه العالم العربي إلا في هذا العصر الحديث بتأثير الغرب حيث أخذ العرب يترجمون هذه الرباعيات إلى لغاتهم ولم يكونوا يعرفونه إلا كعالم ، وبهذه المناسبة أنبه إلى أن خمرياته التي تتضمنها رباعياته لا يعنى بها الخمر المسكر وإنما هي إشارات صوفية على غرار الشاعر الصوفي ابن الفارض صاحب الخمرية التي يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مُدامة

سكرونا بها من قبل أن يخاق الكرم

فشوهوا بفهمهم السطحي مذهبهم وأخذوا يطلقون اسمه على الحانات والمراقص ونحوها وهكذا عن كل الشعراء الذين وضعوا دواوينهم

(١) ألقى في الجلسة الثامنة يوم الاثنين ٢٨ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة

١٩٨٩ م .

بالفارسية كمولانا جلال الدين الرومي صاحب
المثنوي وفريد الدين العطار صاحب منطق الطير
والسعدى والنظامى وغيرهم ...

حدثتكم عن الألفاظ العربية فى التركية وفى
السواحلية فى مؤتمرات سابقة .

والآن أريد أن أتعرف إلى أساليب اقتباس
البرابرة للألفاظ العربية وإدخالها فى لغتهم .

أولاً : بكيفية عامة يأخذون اللفظ كما
يسمعه ، مثلاً : إن البربرية لا أداة تعريف
فيها أو أنها صارت لاصقة بالكلمة تنكيراً
وتعريفاً فإنهم يأخذون الكلمة بلامها حيث
لا يسمعون الهمزة من - ال - التعريف
فيقولون مثلاً : لكأس وإذا أضافوه إلى الضمائر
يقولون : لكاسينو أى كاسى كأن اللام
أصلية .. وهكذا فى كل الكلمات التى تبتدئ
بحرف قمرى . أما التى تبتدئ بحرف شمسى
فيأخذونها بالتشديد كما يسمعونها ، مثلاً :
زيتون وسوق - دروج أى المدارج دق أى
الحلى من دق الذهب أو الفضة أى سبكها .

ومن طرقهم فى اقتباس الألفاظ من العربية
أنهم إذا رأوا فى كلمة عربية فى أولها تاء
اعتبروها مؤنثة لأن التاء عندهم فى أول الكلمة
علامة الاسمية للمؤنث . والتاء فى الأخير
علامة التأنيث للبشر وللحيوانات وعلامة
التصغير فى غيرها من المفاهيم كما فى العربية
وعليه فإنهم يستخرجون من الكلمة العربية
التي تبتدئ أو تنتهى بالتاء مذكراً لها ، فتعرب
مثلاً : - والتاء المثلثة تنطق تاء فى المغربية -
فقالوا فى المذكر : أعلبون وأنشوه على طريقهم
بتاعملبتونت والحيوانات استخرجوا منه مذكراً

ومثل هذا نراه عند علماء البربر فإنهم
وضعوا كتبهم فى العلوم الإسلامية وفى العلوم
العقلية بالعربية ولكنهم على خلاف الأعاجم
الآخرين نظموا الشعر كذلك بالعربية الفصحى
كالشاعر الكبير أبى العباس أحمد بن عبد السلام
الجزاوى شاعر الموحدين مثلاً ، وليس معنى
هذا أنهم لم ينظموا الشعر بالبربرية لكن
نتاجهم بهذه اللغة لم يدون وبقى شعراً شعبياً
يتغنون به فى حفلاتهم ويتداولونه فيما بينهم
ولقد جمعت منه الشئ الكثير عندما كنت
منفياً مع جماعة من الوطنيين من سكان القبايل
البربرية .

وكما قدمت فإن البرابرة الذين اعتنقوا
الإسلام أقبلوا على اللغة العربية حتى استعربوا
كلهم ولم يبق من يتكلم البربرية إلا القاطنون
فى أعالي الجبال والشيوخ والعجائز ولكن
بسبب تداخلهم مع العرب خصوصاً بعد
دخول موجات الأعراب من بنى هلال
وسليم إلى المغرب الأقصى فى القرن الخامس
اقتبسوا من العربية ألفاظاً تبلغ نسبتها أكثر
من خمسين فى المائة من لغتهم وهذه نسبة
متوسط الألفاظ العربية فى اللغات الأعجمية
فهى تراوح بين سبع وستين فى المائة فى
الفارسية وسبع وأربعين فى التركية وقد كنت

هكذا أحانوا وصغروه بتأخيرات أي دكان صغير :

ومن طرقهم في ذلك أنهم إذا رأوا في كلمة عربية مفردة الزون في آخرها اعتبروها جمعاً لأن جمع المذكر السالم عندهم بالنون كما هو الشأن في العربية فثلاً : لسان ظنوه جمعاً واستخرجوا منه مفرداً هو إلس ، وجمعوه على إلسان ويفعلون كذلك بجمع التكسير العربي المنتهى أصلاً بالنون ، فثلاً : المصارن وهي الأمعاء أخذوا منه إصرم بالقلب وجمعوه على إصرمان .

ومن ذلك أنهم يأخذون الكلمة المؤنثة العربية المؤنثة معنى ويجعلون لها علامة الاسم المؤنثة ، وفي آخرها تاء التأنيث المسكنة في لغتهم مثال ذلك العين بمعنى منبع الماء جعلوها تالعينت . وتالاعونت أي الماعون وهو عندهم مؤنث وتادارت أي الدار .

ثم إن الكلمات العربية المؤنثة بتاء التأنيث يأخذونها غالباً كما هي ولكن يجعلون تاءها مسكنة على طريقتهن مثال ذلك لبهنت أي البهيمة مع قلب الميم نوناً ونخببت الخابية أي البحرة ولغابت الغابة ولغابت الغاية .

ومن أساليبهم أنهم يستعملون لأسماء الحرفة الصيغة العربية فعال ويؤنثونها على طريقتهن فيقولون للنجارة : نانجارت .

وللحدادة تاحدات ، وهكذا دواليك وهذه الصيغة البربرية أخذها المغاربة في لغتهم العامية فنقول كذلك : تعطارت وتادباغت لمهنة العطار والدباغ .

وإذا كانت في العربية كلمة تنتهي بتاء أصلية اعتبروها للتأنيث وزادوا في أولها تاء الاسم للتأنيث مثال ذلك الياقوت بمعنى اللؤلؤ قالوا فيها : تالياقوت .

وكثيراً ما يجمعون الكلمة العربية على طريقة جمعهم فيقولون لجمع الدار أي : تادارت : تيدار جمع تكسير .

ومن الظواهر التي تدل على مقدار تأثير اللغة العربية على البربرية أن البرابرة أخذوا كلمات لا تستعمل في العربية العامية المغربية ومعنى ذلك أنهم أخذوها مباشرة من الأعراب الوافدين على المغرب في حين أهملها المستعربون من قبلهم من المغاربة من أهل المدن وذلك نحو لغمدة أي الغمد غشاء السيف وتيمصليحت أي المصلحة ويعنون بها المكنسة .

ومن طرقهم في الاقتباس أنهم أخذوا كلمات عربية وأعطوها معنى خاصاً ليس لها في العربية وذلك مثل آسليخ بمعنى الجلد من سلخ ولفتاح بمعنى شوكة التلقيح تفساؤلا ، وإنسلمن بمعنى الحنة من المسلمين . ولعايل بمعنى الطفل من العائلة ولجرب بمعنى المحراث أي ما يجر .

ثم إن البرابرة يعمدون كثيراً إلى القلب ما بين الحروف في الكلمات العربية عند إدخالها في لغتهم والأمثلة على ذلك كثيرة فمن قلب الميم نوناً : تاخذين أنت أي الخاتم . وفي هذا المثال قلبوا كذلك التاء دالا وتالقين أنت أصلها تالقينمت أي اللقمة .

ومن قلب القاف غميماً : إمرغان أي المرق وهو جمع صيغة ومفرد معنى ، لأن اللغسة البربرية لا تستعمل المفرد لما كان مظهره غير كلمة واحدة وليس لهذه الألفاظ مفرد من لفظها . فالهاء مثلاً : سمى أمان الذي إذا جرد من أداة الاسم المذكرة ومن نون الجمع يبقى ما ، وهذه الظاهرة نفسها تراها في العبرية حيث يسمى الماء ميم بالإمالة وميم الجمع التي تقوم مقام النون في العربية والبربرية . وهذا مما يؤيد أيضاً أن البربرية لغة سامية ، ومن الأمثلة كذلك : إيردن القمح وطومزين الشعير وهما جمعان .

ومن قلب الطاء ضاداً : آضبيب العليبيب وشرض أي الشرط .

ومن قلب الضاد طاء : الخفط أي الخفصة ، في الرسم وروط أي المقبرة والأصل الروض

ومن قلب الدال تاء : انتفع أي البندقيته من المدفع وفي هذا المثال قلبت الميم نوناً أيضاً .

ومن قلب الدال ضاداً : أمياض : الصياد

ومن قلب الصاد زايًا مفخمة : زوم أي

صوم .

والواو المشادة تقلب واوها الأولى قافا معقدة مثل ذلك : إخكوان أي كأنها إخوان من الإخوان بمعنى السراق عندهم .

ويقلبون لام آل التعريف راء في بعض الكلمات نحو : أربعض أي البعض وأرجسامع أي الجامع بمعنى الكتاب وفي المدن يقال له : المسيد من المسجد وأرجهاد أي الجهاد .

وبعض القبائل تنطق الكاف شيئاً فيقولون مثلاً لمبارك : مبارش وآشريش الشريك ، ولشيل الكيل ولوشيل الوكيل وهذا النطق كان عند بعض قبائل العرب ولا يزال في اللهجة العراقية . .

ومن أساليبهم القلب الاصطناعي كما في العربية أعنى تقديم حرف على آخر نحو : تاغريفت أي كأنها تارغيفت الرغبة وشرف أي قطع من رشق .

وأحياناً يتصرفون في الكلمة العربية بشئ الأساليب حتى يحجب نطقها الأصلي ، فمثلاً يسمون المسجد تمزكيدا ومنها أخذ الأسباب اسم المسجد إذ يسمونها Mesquita

ويستعملون أيضاً الإدغام فيدغمون مثلاً الدال في الون فيقولون : صدوق للصندوق ونم للندم . ونه لنده ... إلخ .

ويدغمون الدال في اللام فيقولون لوالين للوالدين .

وبعد ، فهذه نماذج من الأساليب التي
استعملها البرابرة في نقل ألفاظ عربية إلى
لغتهم ومختلف لهجاتها .

ومن خلال الأمثلة التي أوردتها يظهر
اتساع هذا الأخذ وهو كما قلت يقدر بخمسين
المائة من مجموع اللغة البربرية التي تسدى

أيضاً الأمازيغية لأن البرابرة يسمون أنفسهم
إمازيغن جمع أمازيغ أى الإنسان الأبيض
الحر - ولقد وضعت قاموساً بربرياً عربياً
فرنسياً أنا في صدد إخراجه لدفعه للطبع قريباً
إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
محمد الفاسي
عضو المجمع من المغرب



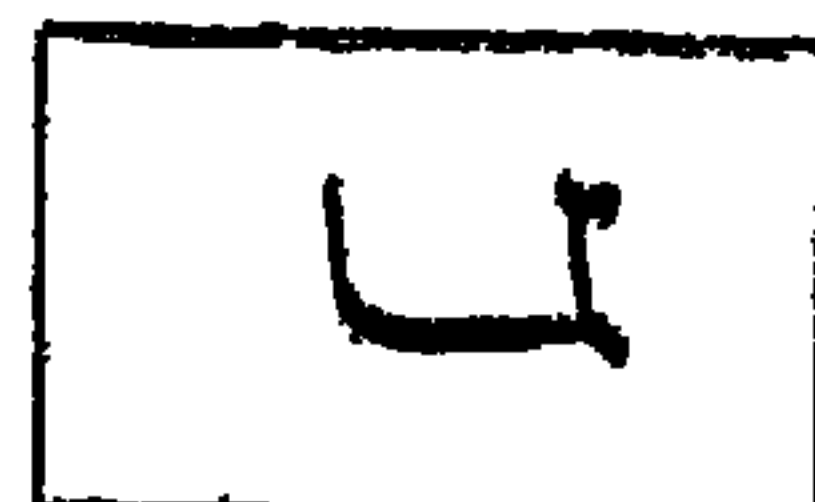
أجراحة في الإسلام

للدكتور محمد محمدي محقق

الجراحة والجراح :

أو « جرائحي » أو « دستكار » وهي كلمة وردت من الفارسية إلى العربية .

كان العمل الجراحي يجري على أيدي



أما كلمة جراح العربية فهي صيغة مبالغة من المصدر « جراحة » بمعنى الحرفة أو المهنة ويعني بذلك الشخص الذي يشق جلد البدن بالآلة الخاصة حتى يعالج الداء من الداخل وهذه الكلمة مستعملة في العربية والفارسية من قديم الأزمان . فالطبري يقول « كان المحبرون والجراحون يأتون ليربطوا أرجله » (١) وكلمة « جرائحي » نسبة إلى جرائح جمع جريحة وكانت هي الأخرى متداولة بين الأطباء . يقول ابن بطلان : « يحتاج الجرائحي أن يكون عالماً بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها ليجتنب في فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف

الأطباء المهرة المدربين ، والآلات والأدوات الحديدية المناسبة فقد افرقت التعبيرات عن العمل الجراحي في الطب الإسلامي باليد والحديد فنشاهد في كتب الطب نظير « علاج الحديد » ، الأعمال بالحديد » ، « عمل اليد » « وصناعة اليد » ونحو ذلك . وهذه التعبيرات هي ما يطلق عليها اليوم اسم الجراحة المترجمة في كتب الأفرنجية إلى

operative treatment surgery

ويطلق في الكتب الإسلامية على الطبيب الماهر علماً وعملاً في هذا الفن اسم « جراح »

بدر خوارزمي جوسنكين دل پزشك دست پر مسبار دارد آستین پر نیشت

(*) ألقى في الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

المصادر

(١) ترجمة تفسير طبري (تهران ١٣٤٢ هـ . ش .) ، ج ٥ ص ١٢٣٧ .

تراهم على الدواب ومعهم الكلاب والمباضع
يداؤون الرمدي وغيرهم من الأعلام (٤٤).

مصادر علم الجراحة في الاسلام :

أشار العلماء المسلمون إشارات قصيرة إلى
الجراحة الهندية والعربية . أما أهم مصادر
هذا الفن فقد توفرت لهم من اليونان ومن
أهم هذه المصادر آثار بقراط وجالينوس .

فعلى بن ربن الطبرى فى كتابه الطبى
ذكر فى مقالة واحدة أبواباً من محاسن كتب
الهند فى الطب وأفضل أدويتهم وفى الباب
الثانى ينقل عن كتاب سسرده Susruta أنه قال :
« أن علم الطب ثمانية أجزاء أطفالي وهيلي
وهبضى وجسمى وأرواحى وترياقى وباهى
والمشب » وهو يفسر الميلي بعلاج العين

العضل والأوتار والألياف (٤٥). كما كانت
هذه الكلمة مستعملة إلى جوار كلمة
« طبائعى » التى يراد بها الطبيب غير الجراح (٤٦)
وأما كلمة « دستكار » الفارسية بمعنى جراح
فمأخوذة من الكلمة « دستكارى » وهى
ترجمة لكلمة « عمل اليد » وقد وردت فى الأدب
الفارسي . قال ازرقى الهروى : « الريح
الذى يهب من جانب الخوارزم يحكى طبيباً
جراحاً جريئاً يده مليئة بالمسابر وكه
بالمباضع » (٤٧) .

وعند ماروى أبو منصور الثعالبي قصيدة
أبي دلف الخرجي الساسانية فسر كلمة
« نطاس » الواردة فى هذا البيت :

ومنسا كل نطاس على البرزك مستحري
بأن النطاس « القوى القلب من الدستكارين

(١) دعوة الأطباء ، ابن بطلان (القاهرة بدون تاريخ) ، ص ١٥ .

(٢) طب النبي (ص) ، ابن القيم الجوزية (القاهرة ١٣٩٨) ، ص ٢١٠ .

(٣) ديوان حكيم أزرقى الهروى (تهران ١٣٣٦ هـ . ش .) ، ص ٢١ .

(٤) بتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر . أبو منصور الثعالبي (القاهرة ١٣٦٦) ، ج ٣ ص ٣٦٦ كما

استعملت كلمة « دستكارى » فى كتاب الأغراض الطبية ، سيد إسماعيل الجرجاني (طهران ١٣٤٥) ، ص
٤٧٤ يجب أن نذكر أن كلمة « دستكارى » أو « العمل باليد » يشمل أصنافه الستة :

١ - جبر العظم المكسور .

٢ - إصلاح العظم المخلوع .

٣ - البط .

٤ - الخياطة .

٥ - القلع .

٦ - الكى .

ارجع إلى كتاب بستان الأطباء وروضة الأطباء ، أبو نصر أسعد بن الياقوت المطران (مخطوطة مكتبة
ملك فى طهران رقم ٤٢١٠) ، ص ١٩ .

(٥) فردوس الحكمة ، على بن ربن الطبرى (برلين ١٩٢٨) ، ص ٥٥٨ ترجمة كتاب سسرده

الإنجليزية طبع فى كلكتة سنة ١٩٥٧ .

والمبضعي والمرهمات ، وفي موضع آخر
ينتقل عن نفس الكتاب بهذه العبارة : وينبغي
أن يروض نفسه بالمبضع والكى والقلع
والخياطة والقطع للجلود ويتدرب على عيون
الشاة وما أشبهها حتى يستمريده «^(١)» .
هذا ، ونشاهد في كتب التاريخ اشارات
مجملة إلى طب العرب من جملة ذلك أن ابن
خلدون يقول : « وللبادية من أهل العمران
طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة
على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحى
وعجائزه وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس
على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج وكان
عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم
أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره «^(٢)»
كما أنه يحدث أحياناً أن يشار في العربية إلى
بعض الأمراض مثل « حمى الربع »^(٣)

وهى الحمى التى تعاود الإنسان كل أربعة
أيام فالشاعر العربى الشنفرى يقول :

وألف هموم ما تزال تعوده
عيادا كحمى الربع أوهى أثقل «^(٤)»

وقد رويت عن الرسول الأكرم صلوات
الله عليه وآله وسلم أحاديث وروايات تحكى
عن أنه في الحالات التى لاحيلة لها تجب
المبادرة إلى الجراحة . منها أنه روى عن على
كرم الله وجهه أنه قال : « دخلت مع رسول
الله على رجل يعود بظهره ورم ، فقالوا :
يا رسول الله بهذه مدة . قال : بطوا عنه .
قال على : فما برحت حتى ببط والنبى
شاهد «^(٥)» . وروى عن أبى هريرة « أن النبى
أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أحوى البطن ،
ف قيل : يا رسول الله هل ينفع الطب ؟ قال :
الذى أنزل الداء أنزل الشفاء فيما شاء «^(٦)»

(١) نفس المرجع ، ص ٥٦٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون (للقاهرة ١٩٣٠) ، ص ٤١٤ .

(٣) هى المعروفة اليوم بالمalaria .

(٤) لامية للعرب للشنفرى ، اللاميات للثلاث (للقاهرة ١٣١١) ص ١٢ وهى الملاريا التى أصيب بها

المتنبى بعد ذلك بقرون فقال فى وصفها :

وزائرتى . كان بها حياء فليس تزور إلا فى لظلام
إذا مسا فارقتى غسلتنى كأننا عاكفان على الحرام
أراقب وقها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها وللصدق شر إذا القاك فى للنكوب العظام

شرح التبيان على ديوان المتنبى ، للعكرى (للقاهرة ١٢٨٧) ، ج ٢ ص ٤١٣ / ٤١٤ .

(٥) طب للنبي (ص) ، ص ١٨٥ .

(٦) نفس المرجع .

فبالنظر إلى هاتين الروايتين المذكورتين نستنتج أن رسول الإسلام قد جوز استعمال الحديد في بعض الأمراض وإن كان قد أظهر كراهيته للعمل الجراحي في بعض الموارد كراهية اقتضت ظروفها وكيفية الخاصة وتكون القصة التالية من مصاديق هذه الموارد روى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : « أن قوما من الأنصار قالوا : يا رسول الله أن لنا جاراً » اشتكى بطنه أفئاذن لنا أن ندأويه ؟ قال : بماذا تدأوونه ؟ قالوا يهودى عندنا يعالج من هذه العلة قال : بماذا قالوا : بشق البطن فيستخرج منه شيئاً ، « فكره ذلك رسول الله (ص) فعادوه مرتين أو ثلاثاً ، فقال : افعلوا ما شئتم ، فدعوا اليهودى فشق بطنه ونزع منه رجرجاً كثيراً » ثم غسل بطنه ثم خاطه ودأواه ، فصيح ، فاخبر النبي (ص) فقال : « إن الذى خلق الأدوية خلق لها دواء » (١) وقبل أن تترجم كتب أطباء اليونان أمثال بقراط وجالينوس إلى العربية . كان عمل الجراحين يتم ببساطة على أساس المعلومات الحاصلة من التجربة

والمهارة في العمل . ولدينا أخبار متناثرة هنا وهناك عن هذا القبيل من العمليات . منها أن أبا الفرج الأصفهاني قال : « أن سكينه بنت الحسين عليه السلام خرجت بها سلعة في أسفل عينها فكبرت حتى أخذت وجهها وعينها وعظم شأنها ، وكان بدر اقس منقطعاً إليها في خدمتها ، فقالت له : ألا ترى ما قد وقعت فيه ؟ فقال : أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم . فأضجعها وشق جلد وجهها حتى ظهرت السلعة ثم كشط الجلد عنها أجمع ، وسلخ اللحم من تحتها فأخرجها أجمع ورد العين إلى موضعها وعالجها وسكينه مضطجعة لا تتحرك ولا تنن حتى فرغ مما أرد فزال عنها وبرئت منها (٢) »

المصادر اليونانية في علم الجراحة :

أهم ما وصل إلى أيدي المسلمين من المصادر اليونانية في علم الطب كان من الطبيين المشهورين بقراط hippocrates وجالينوس galen وعلماء المسلمين الذين اهتموا بشرح أحوال الأطباء والفلاسفة قد فصلوا القول في ذكر هذين الحكيمين وآثارهما . فابن رضوان المصرى في مستهل رسالته « نى

(١) دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام ، القاضي النعمان المغربي (القاهرة ١٣٧٩) ، ج ٢ ص ١٤٢ والظاهر أن الرسول كره أن يكون بدن المسلم مورداً « للجراحة تحت يد غير المسلم وربما كان هذا لما يجب للمسلمين من مهارة في هذا الفن كما أظهر الشافعي لهذا الأمر بعد سنوات وقال : « لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من للطب » وكان يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول : « ضيعوا ثلث العلم ووكأوه إلى اليهود والنصارى » الطب النبوى ، الحافظ أبو عبد الله الذهبي (للقاهرة ١٣٧٦) ، ص ١٢٥ .

(٢) الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني (للقاهرة دار الكتب المصرية ١٣٤٥) ، ج ١٦ ص ١٦٠ .

التطرق بالطب إلى السعادة « قال » لقد أكمل بقراط صناعة الطب وهذب جالينوس تعليم بقراط ثم ذكر أسماء خمس وخمسين كتاباً من آثار بقراط وبين ترتيب قراءتها على هذا النحو : « وليس هي مرتبة ويمكن أن ترتب ترتيبين أحدهما يليق بأصحاب التجارب وهي أن يبدأ بقراءة قاطيطرون وتفسير حانوت الطبيب ثم نثنى بعده كتاب الكسر والرض ثم كتاب الجبر ثم كتاب الخراجات ثم سائر الكتب العلمية على ترتيب ما ينبغي أن يقرأه شيئاً » بعد شيء فلما فرغت الكتب العملية يبدأ بعدها بكتاب طبيعة الإنسان وترتيب القراءة فيها على ما ينبغي . والترتيب الآخر يليق برأى أصحاب القياس وهو أن يبدأ بقراءة كتاب طبيعة الإنسان ثم يوالى القراءة على ما ذكرت

ويحفظ ظاهر كتاب الفصول وكتاب مقدمة المعرفة فإذا فرغت كتب علم هذه الصناعة يبدى بقراءة كتاب قاطيطرون وما بعده على حسب ما يوجهه العمل (١) وكما نلاحظ فإن كتابي بقراط الطامنين الذين يرتبط أحدهما بالطب العلمي والآخر بالطب العملي قد تحسلا لأيدى المسلمين وقد أولى أصحاب التجارب جل اهتمامهم بالجانب العلمي . ويقول بقراط في بداية كتابه قاطيطرون « (حانوت الطبيب) (٢) « وأما الأشياء التي عندما يعمل باليد في حانوت الطبيب فالمریض والمعالج وخدمه وآلاته وأدواته والضوء وأين وكيف وكم وفي أى الأشياء وبأى حال ومتى والجسم والآنية والوقت والجهة والموضع » (٣) ثم بين كلا من هذه الأمور بالتفصيل . وكانت أهمية قاطيطرون

(١) مقالة في التطرق بالطب إلى السعادة ، ابن رضوان ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، معهد التراث العلمي العربي (حلب تشرين الثاني ١٩٧٨) ، ج ٢ العدد ٢ ص ٤٤٠ .

(٢) كان في اليونان القديم ثلاث مدارس طبية :

١ - أصحاب التجارب Empiricistes

٢ - أصحاب القياس Dogmatistes

٣ - أصحاب الطب الحيلي Methodistes جالينوس في كتابه « في الفرق » وكذلك في « في التجربة الطبية » (أكسفورد ١٩٤٤) تكلم عن الاختلاف بين هذه المكاتب الثلاثة وارجع أيضا « إلى كتاب « جالينوس الفرغامسي » لجورج سارتن (جامعة كانزاس ١٩٥٤) وقد انجز هذا الخلاف بين الفرق الطبية إلى العالم الإسلامي ارجع إلى مناظرة الأطباء في مجلس الواثق بالله التي نقلها المسعودي بالتفصيل في مروج الذهب (بيروت ١٩٧٣) ، ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٣) كتاب بقراط المعروف بقاطيطرون (كمبريدج ١٩٦٨) ، ص ١ .

بالغة حتى أن جالينوس مع عاو مرتبته قد
فسره ، ونقله حنين بن اسحق من اليونانية
إلى السريانية وترجمة حبش إلى العربية
من أجل محمد بن موسى (١) .

أما جالينوس فإنه حتى يؤسس أصول
الجراحة فقد ألف كتابين الهامين في علاج
التشريح وفي منافع الأعضاء (٢) وقد صرح
الأطباء المسلمون بأن الجراحى يحتاج أن يكون
عالما بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها
ليجنب في فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف
العصل والأوتار والآليات (٣) وكانت
معرفة الجراحين الإسلاميين بكتاب جالينوس
المعروف بقمطاجانس في الجراحات والمراهم (٤)
أمرا « الزاميا وذلك لأن الطبيب ينبغي
أن يكون واعيا بكيفية فتح البدن والحيطة
واستعمال المراهم وعيا كاملا وقد فصل جالينوس
هذه الأمور في ذلك الكتاب وهو نفسه كتب

كتبا « متعددة أخرى في علم التشريح لتعين
الأطباء في علم الجراحة ومن أهم تلك الكتب
هى : في اختصار كتاب مارنيس في التشريح
في اختصار كتاب لوقس في التشريح ، فيما
وقع من الاختلاف في التشريح ، في تشريح
الحيوان الميت . في تشريح الحيوان الحى ،
كتابه في علم بقراط بالتشريح ، كتابه في علم
علم أرسطراطس في التشريح ، كتابه فيما لم
يعلم لوقس من أمر التشريح ، كتابة في تشريح
الرحم ، كتابه في تشريح آلات الصوت ،
كتابه في تشريح العين (٥) وما أن توافرت
هذه المصادر القيمة للمسلمين . حتى تسلطوا
على علم التشريح ومنافع الأعضاء ثم استفادوا
بهذا العلم في قسم الجراحة وعمل اليد بسهولة .
وكتاب جالينوس في علاج التشريح هو نفس
الكتاب المعنون « كتاب نجاليينوس في عمل
التشريح ما لم يبق منه في اللغة اليونانية » الذى طبع
في مجلدين سنة ١٩٠٦ في لايبزيغ وقد

(١) رسالة إلى على بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعمله وبعض ما لم يترجم ، حنين
ابن اسحق (ليزيغ ١٩٢٥) ، ص ٤٣ والترجمة الفارسية لهذه الرسالة في ص ٤٠٦ من عشرين مقالة في
مباحث العلى والفلسفى والكلامى والفرق الإسلامية ، مهدي محقق (طهران ١٣٥٥ هـ . ش) .

(٢) رسالة حنين ، ص ١٩ و ٢٧ الترجمة الفارسية بيست كفتار (عشرين مقالة) ، ص ٣٨٣
و ٣٩١ .

(٣) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٥ .

(٤) لمزيد الاطلاع ارجع إلى « فيلسوف الرى محمد بن ركريا الرازى » بالفارسية : مهدي محقق ،
(طهران ١٣٤٩) ، ص ٣١٦ .

(٥) رسالة حنين ، ص ٢٠ إلى ٢٣ الترجمة الفارسية « بيست كفتار » ص ٣٨٤ إلى ٣٨٦ .

أورد فيه جالينوس نبذاً من الكتب المذكورة
ومن جملة ذلك ما أورد في أوائل المقالة
التاسعة على ما يلي :

« والتشريح الذي يكون في بدن حيوان قد
مات يتعلم الرجل ويعرف به كل واحد من الأعضاء
وعدها ونحوها في جواهرها ومقاديرها
وأشكالها وتركبها فأما التشريح الذي يكون
في بدن حيوان حي فمرة يفيد صاحبه معرفة
فعل العضو الذي يشرحه بلا واسطة فيما بين
ذلك ومرة يفيد معرفة الأصول التي يحتاج
إليها في العلم بفعل العضو وإذا كان الأمر في
ذلك كذلك معاً فإنه ينبغي أن يكون تشريح
الحيوان الحي وتشريح الحيوان الميت يمكن
يعالج بضربين أحدهما العضو الذي شرح
في موضعه من جملة البدن والآخر العضو
الذي قد أخرج عن موضعه من البدن
ولأفراد وحده (١) .

جراحوا عالم الاسلام :

لقد بحث أطباء العالم الإسلامي أمثال علي
بن ربن الطبري في فردوس الحكمة ومحمد
بن زكريا الرازي في الحاوي وعلي بن عباس
المجوسي في كامل الصناعة وابن سينا
في القانون بحثاً مسهباً في مورد تشريح
الأعضاء ومنافعها وأبانوا في موارد متعددة

عن قطع الأعضاء ووصلها وشقها وخياطتها
إلا أنه للأسف أن هذه الطريقة في المعالجة
قد نسيت على مدى جيلين بعد العلماء المشار
إليهم . فهذا صاحب كتاب هداية المتعلمين
وكان تلميذاً أبي القاسم المقانع تلميذ الرازي
عندما ذكر عارضة « الفتق » تراه على الرغم
من أنه بين عمله الجراحي نظرياً على هذا
النحو : « وعلاجه أن يشق جلد البطن فيظهر
الشق (الفتق) فيخاط ثم يضعون على الجراحة
الدواء اللازم لا بداء اللحم قياساً على أن من
فتحت بطنه يجب أن يخاط إلا أنه اعتبر هذا
العمل صعباً وختم كلامه بقوله : « ونظراً
إلى صعوبته لم يقدم عليه أحد » (٢) .

وهذا المقال وإن لم يكن المجال الذي تقدم
فيه كل الجراحين الإسلاميين وكل الكتب
التي ألفت في فن الجراحة إلا أننا نحرص
أن نتناول بالحديث جراحاً من الشرق وهو
محمد بن زكريا الرازي وجراحاً من الغرب
وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي
ونذكر خدمتهما لهذا الفن بشيء من البسيط .
أما الرازي فقد اهتم بالجراحة بالآلات
والأدوات الحديدية اهتماماً بالغاً وكتب
كتاباً تحت عنوان « في العمل بالحديد

(١) كتاب جالينوس في عمل التشريح ، ترجمة حنين بن إسحق ج ١ ، أول المقالة للتاسعة .

(٢) هداية المتعلمين ، ربيع بن أحمد البخاري الأنخويني (مشهد ١٣٤٤ هـ : ش .) ، ص ٥٥١ .

والجبر^(١)» وكما يظهر من عنوانه، فقد جمع قوانين الجراحة والتجبير ومقراراتها في مكان واحد وعلاوة على هذا فقد تحدث عن صناعة الجبر في كتابه المنصوري أيضاً^(٢).

كما خصص الرازي فصلاً في كتابه «الحاوي» للتشريح ومنافع الأعضاء باعتبارها أساساً لفن الجراحة وأشار في نفس الكتاب إلى الدقة والغاية قبل العمل وأثنائه وبالمريض بعد العمل. فمثلاً يقول: «قبل العمل يجب أن يعطى المريض أدوية مهيئة مسهلة، والليالة قبل العمل يجب أن يحقن المريض حتى تخلو معدته تماماً، وأثناء العمل يبين كيفية انامة المريض مقابل النور ووظيفة الممرض، وبعد العمل يشرح مقررات الأكل والشرب والنوم والنظافة وتسكين الألم^(٣).

ونلتقي بين طيات كتاب الحاوي^(٤) بأنواع العمل الجراحي واقسامه من ذلك ما يلي من الموارد: في صدد علاج الشعر الزائد في العين أي «مرض الشعر» الذي يعرف بالآفرتيجية trichiasis يقول الرازي

«تؤخذ حديده في دقة الابرة قدر شبر فيعطف رأسها على زاوية قائمة قدر عقد ثم يحمى الرأس جدا ويقلب الحفن ويمده اليك ويوضع على أصل الشعرة المنقلبة فتكويه نهما فإنه يحترق وإلا يعود ينبت فإن كان شعرا كثيرا فاكو كل مرة واحدة أو اثنين ولا يكوى حتى يبرأ الأول اعنى موضعه. « وفي فتح الحنجرة tracheostomy ومنع الاختناق هكذا يقول: العلاج أن تشق الأغشية الواصلة بين حلق قصبة الرئة ليدخل النفس منه ويمكن بعد أن يتخلص الإنسان وتسكن تلك الأسباب المانعة من النفس أن يخاط ويرجع إلى حاله ووجه علاجه أن يمد الرأس إلى الخلف ويمد الجلد ويشق أسفل من الحنجرة ثم يمد بخيطين إلى فوق وأسفل حتى تظهر قصبة الرئة « ويقول في نهاية هذه القسمة: « فإذا سكن الورم وكان النفس فليخط^(٥) ويمسك قليلا وأجعل عليه دروزا أصغر ».

ويشرح الرازي كيفية عمل حصوة المثانة^(٦) وفي مورد المصابين باسرابول ومن يتعذر

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي اصيبعة (بروت ١٩٦٥)، ص ٤٢٦ له «مقالة في علاج العين بالحديد» عيون الأنباء، ص ٤٢٧.

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٣.

(٣) أبو بكر زكريا الرازي حياته ومآثره للدكتور فرات فائق (بغداد ١٩٧٣)، ص ٦٢.

(٤) الحاوي في الطب، محمد بن زكريا الرازي (حيدرآباد، دائرة المعارف للعثمانية)، ج ٢ ص ٢٦٦.

(٥) الحاوي، ج ١٠ ص ١٥٣.

(٥) الحاوي، ج ٣ ص ٢٥٥.

عليهم الأدراج يقترح استعمال القثاطر Catheter أو المبولة (١) وأخيراً يجب أن نذكر بأن الرازي ربما يكون من الأوائل من أشاروا إلى الجراحة البلاستيكية plastic surgery فهو يبين كيفية هذه الجراحة في الشفة والأنف والأذن حينما تطراً عليها لحمة ضخمة شديدة ، ويوصى بالعمل بحيث يحتفظ لهذه الأعضاء بصورتها وحالتها الطبيعية حتى يرتفع القبح الناشئ عن اللحمة الزائدة (٢)

وأما الزهراوى فهو ألف كتابه القيم بالتصريف لمن عجز عن التأليف واختص مقالة منه بالعمل باليد وقسمها على ثلاثة أبواب الباب الأول فى الكى بالنار والكى بالدواء ، والباب الثانى فى الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام ، والباب الثالث فى الجبر والخلع وعلاج الوثى .

يقول الزهراوى فى مبتدء هذه المقالة : « لما أكملت لكم يا بنى هذا الكتاب الذى هو جزء العلم فى الطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه رأيت أن أكمله بهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد ، لأن العمل باليد محسنة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيرة فى كتب الأوائل قد صحفته الأيدى وواقعه الخطاء والتشويش حتى استغلقت معانيه وبعدت فائدته فرأيت أن أحياه وأؤلف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور حدائد الكى وسائر آلات العمل إذ هو من زيادة البيان ومن وكيد ما يحتاج إليه (٣) وفى نفس تلك المقدمة الزهراوى ينصح تلاميذه بهذه العبارة : « يا بنى ينبغى لكم أن تعلموا

(١) الحاوى ، ج ١٠ ص ١٥٣ « القثاطر وهى الآلة التى يبول أصحاب حصر البول » كلمة « قثاطر » يونانية وهى Catheter الإنجليزية وبقرط فى كتاب « فى حبل على حبل » الذى طبع فى مركز مطالعات الشرق الأوسط فى كبرج ١٩٦٨ قد ذكر هذه الآلة وأنهم يدخولونها فى رحم المرأة حتى يخرجوا القيح من الرحم والترجم الإنجليزية عندما تعرض للعبارة « . . . أن تدخل فى رحمها ميلاسمى بالقثاطر » لم يعرف كلمة القثاطر (ص القثاطر) وقال معنى هذه الكلمة غير معلوم ، ص ١٢ .

(٢) الحاوى ، ج ٦ ص ٢١٨ حصل التمييز فى عرف الطب بين « التزيين الطبى » و « التزيين التحسينى » ارجع إلى مقالة جالينوس فى أجزاء الطب (برلين ١٩٦٩) ، ص ٢٤ .

(٣) للتصريف لمن عجز عن التأليف ، الزهراوى (جامعة كاليفرنيا ٣ ١٩) ، ص ٣ مع الترجمة الإنجليزية تحت عنوان : Alleucasis on surgery and Instruments

وطبعت نسخة مصورة منه أيضاً فى موسكو ١٩٨٣ مع الترجمة للروسية للأستاذ ضياء الدين بن موسى بونيا توف تحت إشراف أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتى ، قسم للعلم للتاريخى .

أن العمل باليد ينقسم قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات وقد نهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب العمل الذي فيه الغرر والخوف فينبغي لكم أن تحذروه وترفضوه لئلا يجد الحاهل السبيل إلى القول والطعن فخذوا لأنفسكم بالحزم والحياطة والمرضاكم بالرفق والتثبت واستعملوا الطريق الأفضل المودى إلى السلامة والعاقبة المحمودة وتنبهوا الأمراض الخطيرة العسيرة البروم ونزهوا أنفسكم عما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم فتهوا ببقى لجاهكم وأرفع في الدنيا والآخرة لاقدراكم ، فقد قال جالينوس في بعض وصاياه لاتداو وأمراض سوء فتسموا أطباء سوء^(١) ومن نصائح أيضا : « وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فإنه قد يقع إليكم في هذه الصناعة صنوف من الناس بضروب من الاسقام فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه وطول بليته وبالمرض من التقرر ما يدل على الموت ومنهم من يبذل لكم ماله ويغنيكم به رجاء الصحة ومرضه قتال فلا ينبغي لكم أن تتساعدوا من أتاكم ممن هذه صنته البتة وليكن حذركم أشد من رغبةكم وحرصكم ولا تقدموا على شئ من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندهم بما يصير إليه العاقبة

المحمودة »^(٢) وفي مطاوى الباب الثاني الذي جعله الزهراوى سبعة وتسعين بابا يذكر موارد عديده من عمل اليد في كل عضو ولا يجوز لنا أن نطيل هذه المقالة بذكر تلك الموارد وعلى الطالبين الرجوع إلى كتاب التصريف .

وجدير بالذكر أن نذكر أن الزهراوى في كل عمل ينصح كيفية وضع المراهم على موضع الجراحه ويشير إلى الأدوية المناسبة لسرعة البرء ومن جملة ذلك ما يذكر بعد كي الرأس على ما يلي : « خذ شيئا من ملح فحمله في الماء واشرب فبه قطنة فضعها على الموضع واتركه ثلاث أيام ثم أحمل عليه قطنة مشربة في السمن واتركها عليه حتى تذهب الخشكريشة من النار ثم عالجها بالمرهم الرباعى إلى أن يبرء إن شاء الله تعالى »^(٣) وعلى رغم أن كتابه مستوعب لاهم موارد العمل باليد الزهراوى يشجع تلاميذه بالاجتهاد والاستنباط وقياس الحاضر على الغائب ومن ذلك ما يقول بهذه العبارة : « إن أجزاء هذه الصناعة وتفصيلها لا يدرك بالوصف لا يحيط به كتاب وإنما الصانع الحاذق يقيس بالقليل على الكثير وبما حضر على ما غاب ويستنبط عملا جديدا وآله جديدة عند النوازل الغربية إذا نزلت من هذه الصناعة »^(٤)

(١) التصريف ص ٧ .

(٢) التصريف ، ص ١٦٧ .

(٣) التصريف ، ص ١٩ .

(٤) التصريف ، ص ٦١٧ .

آلات الجراحة وأدواتها :

يستخلص من مطاوى كتب الطب أن الأطباء الإسلاميين كانوا يتجهزون بالوسائل اللازمة والآلات والأدوات المختلفة وكما سيرد ذكره كانت بعض الأدوات ذات صفة عامة ينبغي لكل طبيب أن يختارها وبعضها الآخر كان مختصا بأنكحاليين والجراحين.

يقول الشيرازي عالم القرن الثامن في كتابه : ينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال وهي كليات الاضراس ومكاوى الطحال وكليات العلق وزراقات القولنج وزراقات الذكر وملزم البواسير ومخرط المناخير ومنجل النواصير وقالب التشمير ورصاص الثقيل (ظ : الفتيل) ومفتاح الرحم ونوار النساء ومكدة الحشا وقدهح الشوصة غير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب^(١) .

ومن قبله ابن بطلان في كتابه اللطيف أتى بهذه العبارة التي تعد فيها الأدوات اللازمة للطبيب : « فلا أزال أذكر نفسي الآلام والأوجاء واحضر بين يدي آلات العلاج .

ثم قال لعلامه أرفع الحلواء وهات ما عندك فما شككت أنه جام آخر ولون قد تأخر وإذا طبق فيه كليات الاضراس ومكاوى الطحال والرأس وكليات العلق والنشاب وصنابير السبل ورصاص الثقيل ومنجل البواسير (ظ : النواصير) ومخالب التشمير ومحك الحرب ومنشار القطع ومهت القطع ومجرفة الأذن ومبرد السلع وقمادين الحرب ومخشنة الكتف وحبال الورك ومفتاح الرحم ونوار النساء ومكدة الحشى وقدهح الشوصة ودرج المكاحل ومرهمدان المراهم ودست المباضع^(٢)

ومن أهم المصادر التي يوجد فيها أسماء الآلات والأدوات الجراحية كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوى وراقم هذه الأسطر إستخرج تلك الأسماء وأوردها في مقالة مع ذكر موارد استعمالها وفي هذه المقالة نكتفي بذكر بعضها على ما يلي : أنبوبة جفت ، زراقة ، صنارة ، قاثاطر ، كلاليب لولب ، مبرد ، مبضع ، مجرد ، محجمة ، محقنة مخدع ، مدس ، مدفع ، مسبار ، مسعط ، مشداخ ، مشرط ، مشعب ، مقدهح مقص ، منقاش ، موسى ، مهت مرود^(٣) .

(١) نهاية الرتبة في طب الحسبة ، عبد الرحمن بن نصر الشيرازي (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ٩٩ .

(٢) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٠ .

(٣) ذكرت موارد ذكرها في مقالة من راقم هذه الأسطر (= مهدي محقق) بالفارسية تحت عنوان :

« زهراوى وكتاب التصريف » في مجلة نشر دانش (طهران ١٣٦٢ هـ . ش) ج ٣ عدد ٣ ص ٧٥ .

ونجد في كتاب الزهراوى لكل منها أقساما مختلفة مثلا : صنارة بسيطة ، صنارة عمياء . صنارة ذات مخاطفين ، صنارة ذات الثلاثة مخاطيف ، ومبضع بريد ، مبضع ريحاني ، مبضع زيتوني ، مبضع نشل ، (ظ : نشبيل) ومدفع مصمت مدفع مجوف . ومشروط متوسط ، مشروط صغير (١) .

وهو يؤكد لزوم هذه الآلات بهذه العبارة « هذه الآلات كلها كلما كثرت أنواعها وكانت معدة عند الصانع كان أسرع لعمله وأرفع عند الناس لقدره فلا تستحق منها آلة أن تكون عندك معدة ولا بد من الحاجة إليها (٢) »

امتحان الجراحين :

موضوع امتحان الأطباء يعتبر منذ القدم من الأمور المهمة ولخاليينوس كتاب باسم في محنة أفضل الأطباء « ترجمه حنين بن اسحق إلى العربية (٣) ، وخلف الرازي كتابا باسم « في محنة الطبيب وكيف ينبغي أن يكون (٤) » كما تكلم في نهاية الجزء الرابع من كتاب المنصوري عن امتحان الأطباء

والرازي في كتابه في محنة الطبيب يقول : « فأول ما تسأله عند التشريح ومنافع الأعضاء وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء فإن لم يكن عنده ذلك ، فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى وإن كان عالماً بهذه الأشياء ، فأكمل امتحانه حينئذ في المرضى فمتى رأيت يدرى في الأدوية (٥) » .

وفي مكان آخر في طي الأعمال التي يمتحن بها يقول : « متى رأيت الطبيب يبرى بالأدوية الأدوية التي تعالج بعلاج الحديد مثل الخراجات والديليات واللوزتين ، والحنازير واللهمة الغليظة والسلع والغدد والمواضع التي تعفن في البدن والعظام التي تتعري من اللحم فمتى أجاد الطبيب جميع هذه ولا يحتاج في شيء منها إلى البط والقطع إلا أن يدعو إلى ذلك ضرورة شديدة فاحمد معرفته (٦) » كما نلاحظ في تلك العبارة الرازي (٦)

(١) نفس المرجع ، ص ٧٦ .

(٢) للتصريف ، ص ٤٩٥ .

(٣) رسالة حنين ، ص ٤٩ .

(٤) رسالة أبي ريحان في فهرست كتب الرازي (باريس ١٩٣٦) ، ص ٦ الترجمة الفارسية

للسلالة ، مهدي محقق ، ص ٤٨ .

(٥) للرازي ومحنة الطبيب ، الدكتور ١ . ر. إسكندر ، مجلة الشرق (بيروت ١٩٦٠) السنة الرابعة

والخمسون ، ص ٥١٧ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٥١٤ .

يصرح بأنه لا يجوز علاج المرضى بالعمل باليد متى يرجو الطبيب أن يعالجهم بالأدوية ولهذا صارت جملة « الكى آخر الطب » أو « آخر الدواء الكى »^(١) من الأمثال السائرة وقد أشير إلى اختيار الجراحين في كتب الحسبة من جملة ذلك أن ابن الأخوة القرشى قال : « وأما الجراحون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطا جانس في الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرابين والأعصاب ليجتنب ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير وأن يكون معه دست المباح فيه مباح ممدورات الرأس والمؤربات والمخرجات وفاس الحسبة ومنشار القطع ومخرقة الأذن وورد السلع وهرمدان المراهم ودواء الكتندر المقاطع للدم . »^(٢) وأحيانا ما يتفق اختيار الأطباء من حيث المهارة ولبونة اليد كما روى ابن بطالان في ضمن حكاية حكاها : « ثم قال أرني مباحك فخرجت إليه دست المباح فتامله وقال : اين المدورات والشمرات والمرزويات والحربات واين فاس

الحسبة وصينارة الصلغ والدواء القاطع للدم قلت ما معنى من هذه كله شيء . قال : فأرني لطف أنا ملك . فلما اخرجت يدي قال : ما هذه أنا مل تصلح لحس العروق ولا هذا زند يقدح جواب هذه المسائل^(٣) .

اشباه الأطباء واشباه الجراحين :

لما كانت الطب من الحرف التي تتعامل مع عامة الناس ، فإنه يتفق أحيانا أن يكون اجتذاب الأطباء لجهة لعامة الناس شديدا فيحققون توفيقا أكثر في مهنتهم وقد كتب محمد بن زكريا الرازي في توجيه هذا الموضوع ثلاث رسالات بهذه العناوين :

- ١ - في الأغراض المميلة لقابول كثير من الناس عن فاضل الأطباء إلى أخصائهم .
 - ٢ - في العلة التي لها ترك بعض الناس ورعاهم الطبيب وإن كان حاذقا .
 - ٣ - في العلة التي لها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء أكثر من العلماء^(٤) .
- ولهذا يتظاهر بعض الجهة بصورة الطبيب ويخدعون الناس بالحيلة والشعوذة وهذا القبيل من الأطباء ليس لهم مكان أو محل معين

(١) ونقل بعض العوام هذا المثل على صورة « آخر الدواء الكى » ارجع إلى تقويم اللسان ، ابن الجوزي (قاهره ١٩٦٦) ، ص ٦٦ وكذا الطب النبوي ، الحافظ الذهبي ، ص ١٥٠ .

(٢) معالم القرية في أحكام الحسبة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشى المعروف بابن الأخوة (كبرد ج ١٩٣٧) ص ١٦٩ .

(٣) دعوة الأطباء ، ابن بطالان ، ص ١٨ .

(٤) رسالة أبي ريحان في فهرست كتب الرازي ، ص ١٠ ، للترجمة للفارسية ، ص ٥١ .

حتى يؤخذوا بأخطائهم ولهذا السبب بالذات وعلى حد قول جالينوس فإنهم يطلقون على أنفسهم اسم « الطوافين » (١) ، وقد شوهد في العصور الاسلامي كثير من هذا القبيل من اشباه الاطباء ممن عبر عنهم بالمشعوذين والمشاتين . (٢) وقد ذكر ابن طيفور في كتابه بغداد قصة أحد هؤلاء المشعوذين المشاتين الذي رآه يبسط كساءه ببغداد ويلقي عليه أدوية وهو قائم ينادي عليها : هذا الدواء لبياض العين والغشاوة وضعف البصر إلى غير ذلك كيف اجتمع العوام حوله وقد صدقوا كلامه وانخدعوا من احتياله . (٣) والرازي في ختام المقال السابع من كتاب المنصوري تكلم في فحاريق المشاتين (٤) وأعمالهم غير الصحيحة وأقداماتهم المخافية للصواب وحذر الناس منهم وفي كتابه محنة الطبيب ذكر بئسدة من خدع اشباه الجراحين من ذلك قوله : « أن مخاريق هؤلاء كثيرة يضيق عن ذكرها كتابنا هذا

بأسره وجراثيم واستحلهم تعذيب الناس باطلا في الغاية التي لا وراءها غاية فإن منهم من يزعم أنه يبرى من الصرع بأن يشق وسط الرأس شقا صليبيا ثم يخرج أشياء قد أعدها معه يومهم بخفته وتمويهه أنه أخرجها من ذلك الشق » (٥) ويقول الشيرزى نحو ذلك بهذه العبارة : « وقد يهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها في الجرح ثم يخرجونها منه مخضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها » (٦)

حسبة الأطباء والجراحين :

أورد الشيرزى الباب السابع والثلاثين من كتابه في الحسبة تحت عنوان : « في الحسبة على الأطباء والكحالين والمخبرين والجراحيين حيث بين شروط الأطباء وأطباء العميون ومجرى العظام والجراحين فقال : وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن ابيحني في كتابه المعروف بحنة الطبيب » . (٧) وأما

- (١) في الأسماء الطبية ، جالينوس ، ترجمة حبش ، ص ٤ . R. Dozey
- (٢) « المشاتين » بمعنى المحتالين نقلا « عن مجمع الأسماء العربية ، دزى ٧ (باريس ١٩٢٧) ، ج ٢ ص ٥٩٤ .
- (٣) بغداد ، ابن طيفور (القاهرة ١٩٤٩) ، ص ٥٤ نقلا عن تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، سمي خلف الحارثية (القاهرة ٩٦٧) ص ١٣ .
- (٤) عمل الرازي كتاب المنصوري المروف بالكتاش المنصوري وفي اللاتينة Liber Almanzoris المنصور بن أسد قرابة وإلى خراسان راجع رسالة أبي ربحان .
- (٥) الرازي ومحنة الطبيب ، مجلة المشرق ، سنة ٥٤ ص ٤٨٨ .
- (٦) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٢ .
- (٧) نهاية الرتبة ، ص ١٠٠ اطلاق عليه ابن أبي اصيبعة « في إمتحان الأطباء » عيون الأنباء ، ص ٢٧٣

الكهالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحق أغنى العشر مقالات في العين^(١) .
و « أما المحيرون فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كناش بولص في الجبر »^(٢) . وأما الجراحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقا طاجانس في الجراحات والمراهم^(٣) ثم يذكر ساير شروط كل طبقة وهو يؤكد بأن من لم يكن حائزاً لهذه الشروط لا يحل له مداواة المرضى ولا يجوز له الاقدام على علاج يخاطر فيه ويؤيد اظهاره بذة الحكاية من قدماء اليونان : « وقد حكى أن ملوك اليونان كانوا يجامون في كل مدينة حكماً مشهوراً بالحكمة ثم يعرضون عليه بقية أطباء البلد ليمتحنهم ، فمن وجده مقصراً في عمله أمره بالاشتغال وقراءة العلم ، ونهاة عن المداولة . وينبغي إذا دخل الطبيب على مريض أن يسأله عن سبب مرضه وعما يجد من الألم ويعرف السبب والعلامة والنبض والقادورة ثم يرتب له قانوناً من الأشربة

وغيرها ثم يكتب نسخة بما ذكر له المريض وبما رتب له في مقابلة المرض ويسلم نسخته لأولياء المريض ، بشهادة من حضر معه عند المريض فإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ، وسائل المريض ورتب له قانوناً على حسب مقتضى الحال وكتب له نسخة أيضاً وسلمها إليهم وفي اليوم الثالث كذلك ثم في اليوم الرابع وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته وإن مات حضر أولياءه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلمهم وأن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم : خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه . فكانوا يحتاطون على هذه الشريعة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله ولا يتهاون الطبيب في شيء منه^(٤) وفي الإسلام اعتبر الطبيب

(١) نهاية ، ص ١٠٠ المقصود كتاب « عشر مقالات في العين » الذي طبع مع ترجمته الإنجليزية بمعرفة ماكس مايرهوف سنة ١٩٢٨ بالقاهرة .

(٢) المقصود بواص اجانيطي Paulus Aegineta وكناشه هو الذي تلخصه حنين عيون الأنباء ، ص ٢٧٣ كلمة كناش آرامية بمعنى مجموعة وفي العربية استخدمت بمعنى مجاميع طبية . ارجع إلى متعم معجم الأسماء لأعرابية ، دزي ، ج ٢ ص ٥٩٤ .

(٣) في اللاتيني : De Composition Medicamentorum Secundum Genera

نقلا عن تاريخ البجاستات نات في الإسلام ، أحمد عيسى بك (دمشق ١٣٥٧) ، ص ٥٤ .

(٤) نهاية للرتبة ، ص ٩٨ . . .

إنسان فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء
كلهم (٢).

وفي مورد ضمان التشخيص غير الصحيح
على الأطباء المخطئين بحث العلماء المسلمون
والفقهاء بالتفصيل ومن جملة مراجع هذا
البحث كتاب الطب النبوي لابن القيم
الجوزية وكتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر
في حفظ الشعائر وتنبيه المناكر لأبي عبد الله
محمد بن أحمد العقباتي التلمساني (٣).

وهنا بهذه المقالة المشتمة على معلومات
متناثرة عن الجراحة في الإسلام أختتم كلامي
وأرجو أن يكون مفيداً مطالبي علم تاريخ
الطب الإسلامي بعون الله الملك العلام

مهدي محقق

عضو المجمع المراسل من إيران

مستولاً وفي حالة عدم المعرفة والتقصير فانه
ضامن من في مقابل المريض ويستند هذا
الأمر إلى الحديث الشريف المروي عن الرسول
الأكرم (ص) : « من تطيب ولم يعلم منه
بالطب قبل فهو ضامن (١) » وقال ابن القيم
الجوزية : « والطبيب في هذا الحديث يتناول
من يطبه بوصفه وقوله وهو الذي يخص
باسم الطبائعي وبمروده وهو الكحال وبمبضعه
ومراهمه وهو الجراحي وبموساه وهو الخائن
وبريشته وهو الفاسد وبمجاجمه ومشرطه
وهو الحجام ونجاعة ووصله ورباطه وهو الحبر
وبمكواته وناره وهو الكواء وبقربته وهو
الحاقد ووسوا ، كان طبه لحيوان بهيم أو

(١) بخصوص كلمة « تطيب » و « الفرق بين الطبيب والمتعاطب » ارجع إلى فليسوف الري محمد
ابن زكريا الرازي ، مهدي محقق ، ص ٣٦٤ .

(٢) طب النبي ، ابن القيم الجوزية ، ص ٢١٠ .

(٣) بدون تاريخ ، ص ٨٧ .

ليس في اللغة "واو" للاستئناف

للكتور محمد نائل أحمد

ذكر

بعض النحاة المتأخرين ،
وفي مقدمتهم ابن هشام ،

أن الواو تأتي للاستئناف ، وذكروا بعض
الشواهد من القرآن الكريم ومن الشعر .

ولقد راجعت مؤلفات المتقدمين كسيبويه
وابن جنى وابن يعيش ، فلم أجد فيها شيئاً
اسمه « واو الاستئناف » وإنما تأتي عندهم
للعطف أو الخالية أو المعية ، فبهمتها عندهم
الربط والوصل ، وليس القطع والفصل ،
فكيف غاب عن ابن هشام العالم الفحل ، هذا
التضارب الواضح بين معنى « الواو » ومعنى
« الاستئناف » في اللغة وفي اصطلاح علماء
البلاغة .. فان اللغة تقول : الاستئناف -
تبدأ ابتداءً ، إذ هو مأخوذ من « الأنف » وأنف ،
كل شيء أوله .. وعلماء البلاغة يعرفون
الاستئناف بأنه فصل جملة عما قبلها لوقوعها
جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى ، فهو

قطع وفصل ، لا مكان فيه للواو .. فحين
قال يوسف - عليه السلام - : « وما أبرئ
نفسى » أثارت الحملة علامة استفهام كبرى
تخطر لكل قارئ أو سامع : كيف تنفى عن
نفسك البراءة وقد ثبتت بأكثر من شاهد ؟
فيكون الجواب : « إن النفس لأماراة بالسوء »
(يوسف ٥٢) فالجملة الثانية كأنها ابتداء
كلام ، إذ السائل عادة يقطع كلام المستؤل
فيستأنفه هذا بالحواب .

ويبدو أن ابن هشام حاول في كتابه
« المغنى » أن يتتبع كل المعاني والأفكار التي
طاقت بعقول العلماء والمتأدبين في عصره ،
فذكر ما يصح وما لا يصح ذكر « واو
التذكر » و « واو الذكورة » و « واو الإنكار »
و « واو الثمانية » و « الواو الزائدة » و « واو
التعليل » ، وغير هإلى ما يزيد عن عشرة

(*) أتى في الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

معان لم تعرفها اللغة الفصحى ولم يثبت منها
شيء عند التحقيق .

وسوف لا نناقش هنا إلا واو الاستئناف
وحدها .

قال ابن هشام في مغنيته : ومن أقسام الواو
واوان يرتفع ما بعدهما ، إحداهما واو
الاستئناف ، نحو «لنبين لكم ونئةٍ رث في الأرحام
ما نشاء» ، ونحو «لا تأكل السمك وتشرب
اللبن» فيمن رفع تشرب ، ونحو «من يضل
الله فلا هادي له ويذرهم» فيمن رفع أيضاً ،
ونحو «واتقوا الله ويعلمكم الله» ، إذ لو كانت
'واو العطف لانتصب (نقر) ولانتصب
أو انجزم (تشرب) ، ولجزم (يذر) كما
قرأ الآخرون ، وللزم عطف الخبر على الأمر
(أى في الآية الأخيرة) وقال الشاعر :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى

قضيته ألا يجـور ويقصد

وهذا (أى البيت) متعين للاستئناف ،
لأن العطف يجعله شريكاً في النفي ، فيلزم
التناقض ، وكذلك قولهم : دعني ولا أعود . اهـ
نص ابن هشام ، ج ٢ ص ٣٢ ، طبعة ١٩٢٨

ولقد نقلت كلامه كله ، لتسهيل مناقشته
جملة ثم تفصيلاً .

فلأول نظرة يتبين أنه اعتمد في رأيه هذا
على اختلاف بحركة الإعراب وحدها ولم

يحاول أن يستوحي المعنى ، وما وراء مخالفة
الإعراب من سر ، وما أكثر الأسرار التي
يعبر عنها باختلاف الحركة ، من رفع يأتي
بعد نصب أو جزم ، سواء في الأفعال أو في
الأسماء كما سنرى بعد ، حين نعرض نماذج
له من كتاب الله .

وفي النظرة الثانية ، نقف عند قوله - تعليقاً
على البيت - إنه يتعين فيه أن تكون الواو
للاستئناف فإن مفهوم هذا النص أن ما سبقه
من الآيات لا يتعين فيها ذلك ، إذ قد خرجها
العلماء فعلاً على العطف ، رافضين هذا
الاستئناف ، وهذا لا يتبقى من شواهد
إلا البيت والجملة التي بعده ، على أننا سننظر
فيها جميعها ، شاهداً بعد شاهد :

١ - ففي قوله تعالى في سورة الحج (٥)
«يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نبعث
فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من
علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم
ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم
نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم» .

هناك قراءتان في (نقر) الرفع والنصب ،
فالرفع هو ما اعتمد عليه ابن هشام في رأيه ،
والنصب عطفاً على (لنبين) وفي نفس
شيء من قراءة النصب لأن التعليل الواضح
في (لنبين) لا يتضح في (نقر) بينما قراءة
الرفع هي التي يساندها السياق .

والتأمل في الآية يجدها استعملت حرف
«ثم» في العطف سواء في الأطوار التي سبقت

(نقر) والتي جاءت بعدها : فلم تلجأ إلى الواو إلا عند (نقر) وحدها . أليس في هذا التغيير إشارة إلى سر قصد إليه النظم ؟ أو ليست الواو هنا مع ما بعدها (مما أقر في الأرحام) ، مما يشير إلى حديث مطوى عن شيء لم يستقر في الأرحام ..؟ وما أروع القرآن حين يوجز فيشير ، ويكتفى بالإشارة عن العبارة . إن ها هنا حذفاً في الآية دلت عليه الواو والفعل المرفوع بعدها . يتبين ذلك حين نصوغ الآية بلغتنا نحن هكذا : يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانظروا كيف خلقناكم .. إنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، وجعلنا الأرحام تلفظ ما نشاء مما لم تكتب له الحياة ، وتقر ما نشاء مما أردنا له الحياة ثم نخرجكم طفلاً ... فالواو عطفت (نقر) على (تلفظ)

وبمثل هذا التقدير في إظهار ما طواه النظم الكريم ، كان العلماء يقدرون . فهذا ابن قتيبة .. وقد فطن إلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يترجم لفظه ، بل الميسور أن يترجم تفسيره — يقول : (واعلم أنك لو أردت أن تنقل (أي ترجم) قوله تعالى : « ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (سورة الأنفال ٥٨) ، لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته ، حتى تبسط يديها وتصل مقطوعها وتظهر مستودعها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة ،

أو عهد ، فحفت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وآذنتهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء (كتاب تأويل مشكل القرآن) ص ١٦ تحقيق السيد أحمد صقر هكذا كان الأوائل يدركون المطوى ، إيجازاً وإعجازاً في كتاب الله ، فإنه يحذف ويطوى ، مكتفياً بالإشارة والتلويح عن العبارة والتصريح .

فالعدول عن « ثم » إلى الواو ورفع ما بعدها في الآية وأمثالها ، إنما هو عطف على محذوف دل عليه السياق ، وما أشبه رفع الفعل هنا برفع الاسم بين المنصوبات في لفظ « الصابئون » كما سنوضحه فيما بعد .

ومهما يكن فقد رفض شراح ابن هشام أن يوافقوه على أن الواو للاستئناف ، فقال الدمايني : إنها للعطف على الفعل الذي تعلق به الجار والجور في (لنبيين) وقدره هكذا (نفعل ذلك لنبيين لكم ونقر ...) فعطف نقر على نفعل . بينما رأى الأمير أنها عطف على جملة (فانا خلقناكم) .

٢ — وفي قوله تعالى في الأعراف (١٨٦) :

« من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » قراءتان أيضاً في « ويذرهم » : الرفع وهي شاهد ابن هشام ، والجزم عطفاً على بجواب الشرط ، إذ هو مجزوم محلاً وقدره

الزمن مشرى هكذا : (من يضل الله لا يهديه
أحد ويذرهم) :

ولعل الأقرب من هذا ، أن نقول : إن
جملة « من يضل الله فلا هادي له » هي
حكم عام يشمل الخلق جميعاً ، فحين يساق
عند الحديث عن قوم بأعينهم يتساءل متسائل :
أهلأ يضلهم الله ولا يهديهم أحد ؟ .. يكون
الجواب : نعم ، يضلهم ويذرهم في ضلالهم
يعمهمون ، وهذا ما عناه الزمن مشرى حين قال :
إن الرفع على الاستثناء - أى الاستثناء
البلاغي الذى يعطف الفعل على جواب السائل
المحذوف ، وليس استثناء ابن هشام ، على
أن الشيخ الأمير يرى أن جملة يذرهم معطوفة
على الجملة الشرطية بتمامها ، ومعنى ذلك
أنها معطوفة على أية حال ، مجزومة أو مرفوعة
وأن الورود للعطف لا للاستثناء .

٣ - وقوله تعالى في آخر سورة البقرة
(٢٨٢) : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، جاءت
الواو بين جملتين : إنشائية وخبرية ، ويرى
ابن هشام أنه لا يجوز عطف هذه على تلك ،
وهو الذى عقد فصلاً في هذا الكتاب بعنوان
(عطف الخبر على الإنشاء وعكسه) ص ٧٩
من الجزء الثانى وذكر فيه الخلاف بين النحاة
في من أجازهم ومن منعه ، وذكر أن من أجازهم
سيبويه والصفار وجماعة من النحاة ، محتجين
بقوله تعالى في أول البقرة : (وبشر الذين

آمنوا) ، ونقل في تأييد هؤلاء رأى الزمن مشرى
في هذه الآية ، وأنها من عطف جملة المعنى
على جملة ما سبقه من عقاب الكافرين ، بل
إن ابن هشام عقد عنواناً لعطف المعنى على
المعنى ، بل لعطف التوهم . .

فكيف ضيق الأمر في هذه الآية ولم ير
فيها عطف المعنى على المعنى ، أو العطف على
محذوف - فلقد علمهم الله نظام التعامل في
الدين ، حاضرين ومسافرين ، وشدد على
الكاتب والشهود ، وكرر لهم الأمر بالتقوى
أكثر من مرة .. أفلا يصح تقدير الكلام
هكذا : ... فاتقوا الله فيما علمكم من هذه
الأحكام ويعلمكم من غيرها ، فكان تغيير
النسق في رفع يعلمكم إشارة إلى هذا المحذوف .
ولتربط هذه الواو ما علمهم قبل بما سيعلمهم
بعد .. لا ينبغي أن يغيى القرآن إلا على هذا
النسق .

٤ - ثم نأتى إلى البيت الذى أصر على أنه
يتعين فيه الاستثناء لا غير :

على الحكم المأثى يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجوز ويقصد
فان عطف (يقصد) على (يجوز)
يؤدى إلى التناقض

ولنا أولاً على هذا البيت أكثر من ملحوظة
فهو بيت مجهول النسب ، لا يعرف قائله ،
ثم هو سقيم الصياغة ركيك ، ثم إن نصف
الفاظه مجتلب بلا فائدة ، ولو أننا عبرنا عنه

لقلنا : (على الحكيم إذا قضى ألا يجور)
فأديننا المعنى كاملاً تاماً بالكلمات (المأتى -
يوماً - قضيته - يقصد) زيادة لا حاجة
إليها ، فالبيت بهذه الصورة يشك في أنه
مصنوع وصناعته ديثة .

ومع كل هذا ، قد أواحننا الدماميني من
أمره ، إذ قال في حاشيته : يمكن أن الأصل
(وأن يقصد) فالواو عاطفة على أن لا يجور ،
ثم حذف أن فارتفع الفعل ، على حذف قوله
تعالى : « ومن آياته يريكم البرق » ، وتسمع
بالمعنى خير من أن تراه ... ولك أن تقول :
إن جملة (ويقصد) عطف على جملة (على
الحكم ...) ، كما تقول : على زيد الصلاة
ويزكى .

هـ - ثم مثاله الذى ألحقه بالبيت فى حتمية
الاستثناف وهو قولهم : (دعنى ولا أعود)
إنما يجرى على الألسنة ، وهو من فصيح
الكلام ، ولكن ليست واوه للاستثناف كما
يرى ، وإنما هى للعطف ، وقد قدره العلماء
هكذا : منك العفو ، ومتى الترك ، على
أساس أن هذا القول إنما يصدر ممن أخطأ
ويطلب العفو ويعد بالألا يعود ، وينبغي أن
يعلم أن المخطئ من شأنه .. وهو فى موقف
الضعف - ألا يستعمل صيغة الأمر (دعنى)
بل حقه أن يقول : تدعنى وأعدك ألا أعود ،
أو تدعنى ولا أعود ، وإنما لجأ إلى صيغة
الأمر - وإن كان الأمر بمعنى الرجاء هنا -

كأنه يتعجل الإفلات من العقوبة ، وكثيراً
ما تجرى على ألسنة المخطئين عبارات : أرجوك
أتوسل إليك أن تعفو عني ولا أعود إلى
مثلها ، فالجملة الأولى تحمل فى مضمونها
خبراً يعطف عليه الخبر بعدها .

* * *

وبعد :

فإن لهذه اللغة أساليبها الدقيقة التى تستخدم
فى التعبير والتصوير ، وهى فى سبيل الأغراض
التي يقصد إليها المتكلم ، تفسح له الطريق
بأساليب متنوعة ، يختار منها ما يشاء ، فمن
حقه أن يخالف النسق الإعرابى لأداء غرض
لا يود التعبير عنه بالكلمة أو الجملة ، ومن
حقه أن يحذف بعض الكلام ويشير إليه
بحرف العطف ، أو بحرف من الحروف
الزائدة ، التى نيط بها أداء هذه الغاية ، نحو :
« فبما رحمة من الله لنت لهم » .

ولئن كان ما وصل إلينا من كلام الفصحاء
الأول ، لا تشيع فيه الأساليب التى تقوم فيها
الإشارة مقام العبارة ، لقد جاءنا من كتاب
الله ما لا يكاد يحصى عدداً ، أو تدرك أبعاده
إعجازاً وأسراراً .

وليس هذا الذى تقوله هنا استطراداً دخيلاً
على البحث ، إنما هو فى صميمه ومحتواه ،
فما جر النحاة المتأخرين إلى هذه المصطلحات
والمسميات الكثيرة المرهقة ، إلا انصرافهم
إلى المظهر الإعرابى المتعلق بالحركات ، بينما

كان النحاة القدامى يغوصون وراء المعاني ، ويتحسسون ما وراء المخالفة للنسق الإعرابي من أسرار وأغراض ، ولو أن النحاة المتأخرين ساروا على خطى المتقدمين لكفونا مثوثة مثل هذه الدراسة حول واو الاستئناف وغيرها مما شغل حيزاً كبيراً في كتب المتأخرين ، وحرّم النحو من متعة التذوق والخصب في دراسة الشواهد والنصوص ، وساقنا إلى تحقيق هذه الدراسات إلى علوم ثلاثة : النحو والبلاغة والنقد ، بينما كان النحو الأول هو هذه الثلاثة مجتمعة . وغفر الله للسكاكي ، فهو صاحب هذه البدعة ، فقد كان « مفتاحه » هو الذي أغلق الباب في وجه الدراسات التي بدأها سيبويه وابن جني والمبرد والحر جانيان : صاحب « الوساطة » وصاحب « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، والتي سجلها الزمخشري ببراعة واقتدار في الكشف « الباحث عن أسرار التنزيل » ، وهذه قطرة من - بحارهم :

١ - يقرأ الزمخشري قول الله تعالى في سورة المائدة (٦٩) : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله باليوم الآخر ... » الآية .

فيرى في الآية ظاهرتين تخالفان الآية نفسها في سورة البقرة (٦٢) : « رفع الصابئون » هنا ، ثم قدمها على النصارى ، بينما جسات هناك منصوبة ، ومتأخرة عنهم .. فما السر .. ؟ ولماذا خالف بين هاتين وتلك .. ؟ ثم يجيب

بما يراه السر في ذلك ، فيقول : فائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين يثاب عليهم إذا صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعسودين ضللاً وأشدّهم غيياً ، لأنهم خرجوا عن الأديان كلها . (ج ١ ص ٦٣٢) .

ثم يستأنس بما قال سيبويه في قول الشاعر :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم
بغاة ما بقينا في شقاق

إذ قال : قدم « وأنتم » قبل مجيء الخبر « بغاة » ليسارع إن التنبيه على مشاركتهم في البغي ، إذ لو قال : « أنا بغاة وأنتم كذلك لأفاد أن المتكلم وقومه هم البادئون بالبغي ، وأن أولئك جاء بغيتهم رداً عليهم ، فقدم « أنتم » ليدفع هذا الوهم .

هكذا فهم النحاة الأولون أن المخالفة في الإعراب أو المخالفة في الترتيب كلاهما وراءه مغزى وسر ، تماماً كالمخالفة في « نقر في الأرحام » بعد « لنبيين لكم » . وكلمة « الصابئون » في الآية خبرها محذوف ، والجملة معطوفة على جملة « إن الذين آمنوا » ، كما أن جملة « ونقر » معطوفة على الجملة المحذوفة كما سبق تقديرها (فنسقط من الأرحام ما نشاء ونقر ما نشاء) ، أو معطوفة على جملة الفعل الذي تعلق به (لنبيين لكم) أي (نذكر لكم ما ذكرنا من أطوار الخلق لنبيين لكم قدرتنا ،

ونثر ...) ، والواو عاطفة لا استثنائية على كل حال ، والعطف على المحذوف أشهر من أن يذكر .

٢ - ويرى العلماء قول الله تعالى في قصة بنى إسرائيل في سورة البقرة (٤٩) : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم » قد فصل « يذبحون » عما قبله ، بينما وصله بالواو في سورة إبراهيم (٦) فيدركون أن الله تعالى - وهو المتحدث في البقرة - أجمل العذاب ، ثم فصل : على حد قوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين (الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣) ، بينما المتحدث في إبراهيم هو موسى ، فأراد أن يذكرهم بأنواع العذاب التي كانوا يعانونها ، من اضطهاد وضرب وسجن وتشريد ، ثم خص أشدها وأفجعها وهو ذبح الأبناء .. فلما اختلف المعنيان بالتنوع عطف ، من عطف الخاص على العام ، على حد قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومثلك ومن نوح » (الأحزاب ٧) ، ولا يعطف الخاص على العام إلا إذا كان له خصوصية تجعله كأنه نوع مستقل .

ولا أحب أن أسستطرد في ذكر هذه الدقائق التي تراها منبثة في كتاب الله وفي بعض الشعر ، والتي أغفلها النحو المتأخر ، فابتعد عن أسرارها في كثير من نظراته ، حتى حكم بزيادة إحدى الواوين في قوله

تعالى في سورة الزمر (٧٣) : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » ليكون ما بعد الواو الزائدة هو جواب إذا . قياساً على الآية التي سبقتها إذ كانت (فتحت) فيها هي الجواب ، متغافلاً عن الذكوة التي ذكرها العلماء في حذف الجواب في آية المتقين ، بل اتخذ من الآية شاهداً على أن « الواو » تأتي زائدة ، دخولها كخروجها ج ٢ ص ٣٤ من المغنى .

ومن القضايا التي أجمع عليها الثقات من أهل اللغة أن القرآن الكريم ليس فيه حرف زائد دخوله كخروجه قط ، وإنما لكل حرف زائد فيه معنى قصد به ، وغرض سيق من أجله ، فكيف يقول بعض النحاة : إن الواو هنا دخولها كخروجها ؟

كما أن من القضايا التي لا جدال فيها ، أن اللغة لا تقبل بحال وضع جملة بجوار أخرى إلا وبين الحملتين نسب وصلة ، وإلا كان الكلام لغواً لا يشبه كلام الناس .. فان قويت الصلة بين الحملتين بأن اتحد معناهما اتحاداً ما ، وجب الفصل ، بأن يمتنع ذكر عاطف بينهما وذلك إذا كانت الحملة الثانية بياناً الأولى أو بدلاً منها أو توكيداً لها ، فان ضعفت الصلة بينهما ، بأن تغاير معناهما مع وجسود صلة ما تجمععهما وجب الوصل بحرف عطف .

وإنما أذكر هذه القضية الثانية ، مع أنها معلومة ، لأن حديث النحاة عن واو الاستئناف

قد يوهم جواز الانقطاع بين الحمل وبينما اللغة
تأباه إباء شديداً وتسقط الكلام إذا بدت فيه
رائحة هذا الانقطاع ، ولهذا حوسب الشعراء
حساباً عسيراً ، عندما بدت في أشعارهم جل
لا رابط بينهما ، كالبيت المشهور ، الذي
جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين :

لا والذي هو عالم أن النوى

صبر وأن أبا الحسين كريم

ومع تقديري للجهود التي بذلها علماءنا في
ضبط قواعد هذه اللغة ، مما يشكر لهم ،
ولا ينكر ، فأني لا أجد حرجاً في تعقب
بعض الآراء التي تثقل هذا العلم ولا تفيده ،
والتي يمكن ردها بيسر إلى القواعد والأصول
المتسقة مع أساليبها الحميلة والتي فطن إليها
الفحول القدماء من النحاة وأرباب الذوق .

فقد رأيناهم يردون جميع الشواهد التي
أريد بها أن تكون واوها للاستئناف إلى المعنى

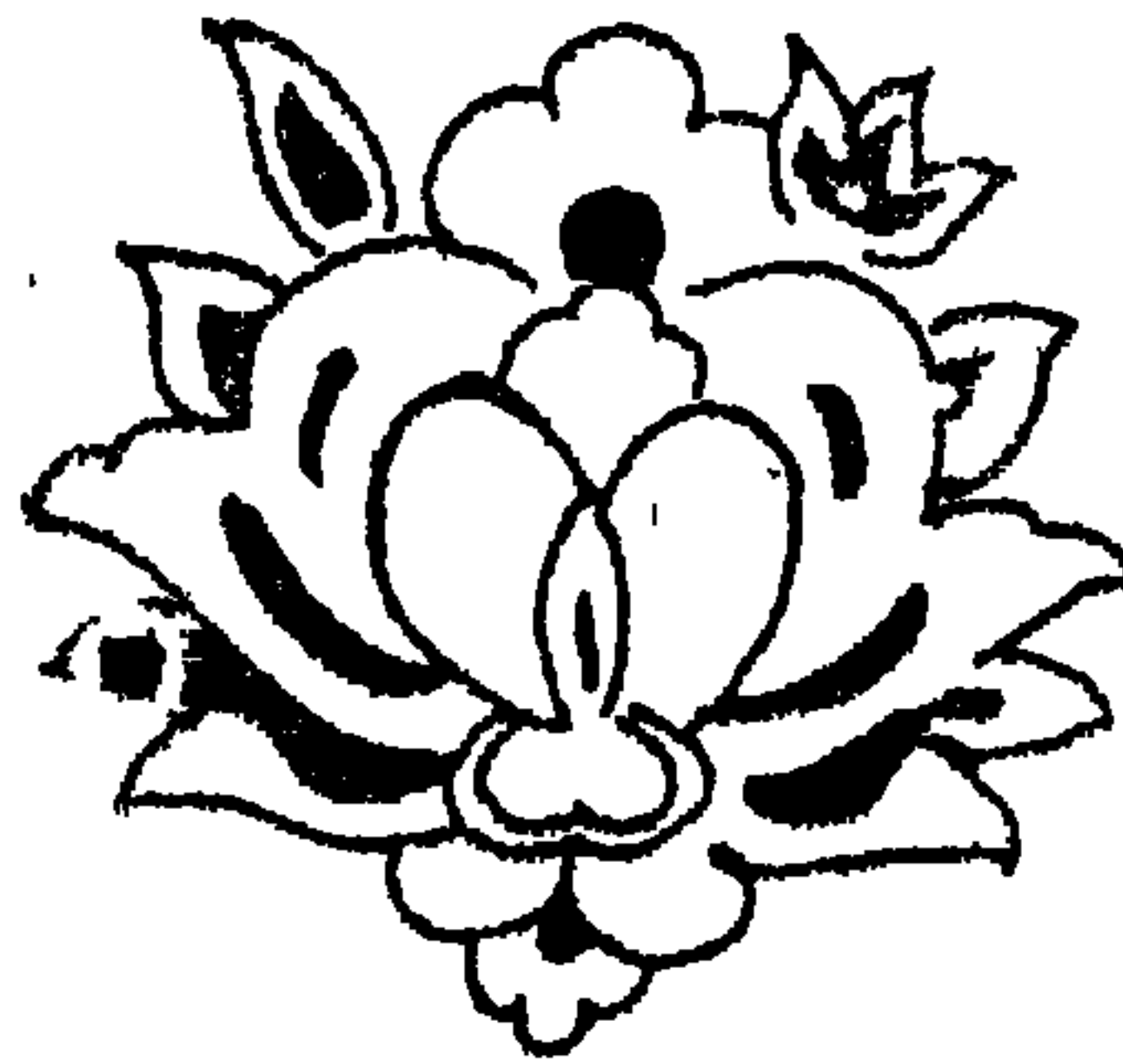
الأصلي للواو ، وهو العطف ، إما على محذوف
دل عليه المقام ، وإما على مضمون الكلام
السابق :

* * *

ومن هنا أرى مهمة المجمع وكل مشغل
بعلوم اللغة . مهمة شاقة وواسعة المدى لا في
وضع مصطلحات للعلوم والفنون فحسب ،
بل في تخليص هذه العلوم مما يثقلها من التقسيم
والتفريع والتنويع ، وليتنا نفكر عملياً وجدياً
في العودة إلى النحو القديم ، ندرسه من خلال
النص دراسة تطبيقية لا نظرية تنقد وتعرب
وتعال لما وراء الأساليب من أسرار وأبعاد ..
ليتنا .. وكان الله في عون الحافظين للضاد .^٣

محمد نايل

عضو المجمع



آدم وهواء وإبليس في القرآن الكريم للكاتب حسين مؤنس

عندما

كنا صغاراً كنا نتعلم في الكتاب

من أثر بالغ العمق والشمول على قلوب الناس وعقولهم .

القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وتحفظ شيئاً من القرآن الكريم ، ومنا من كان يحفظ المصحف كله ، وكان القرآن أعظم ما نتعلمه لأنه كتاب الله أولاً وقاعدة الإسلام ثانياً ، ثم إنه كان أساس تعلمنا البلاغة ثالثاً ، والبلاغة يتعلمها الإنسان لأنها خصلة لا بد أن يولد بها بها صاحبها ولكن القرآن الكريم يجودها ويصقلها فتستقيم بلاغة البليغ بفضل القرآن الكريم ، ويستقر في سمعه الوقع القرآني العظيم . كنا نجد في كتابات بلغاء الماضي من أمثال : الجاحظ وابن المقفع وابن عبد الحميد من القدماء ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين ومصطفى لطفى المنفلوطي من المحدثين ، ونستطيع أن نقول : إن العامل الأكبر من بلاغة الكتاب في عصر العباقره الذي نعيش اليوم في أعقابه يرجع إلى القرآن الكريم وماله

وشبابنا اليوم — وخلال العشرين سنة الماضية — يفقد هذه الصلة بالقرآن الكريم ، لأن الكتائب عصرها قد انقضى ، وأصبح الأولاد لا يتعلمون القرآن في المرحلة السابقة على المدرسة الابتدائية وهي التي تسمى الكندرجات ثم المدارس الابتدائية فالاعدادية وقد هبط مستوى اهتمام وزارات التربية والتعليم إلى درجة جعلت الوزارات تخصص له ساعة واحدة في الأسبوع تتركز الدراسة فيها على مادة الدين يحفظ فيها التلاميذ بضع آيات في القرآن الكريم حفظاً سطحياً عابراً ، وفي الغالب نجد أن الذين يقررون المواد يسيئون اختيار الآيات التي يحفظها الطلاب ، فيقررون على التلاميذ مثلاً آيات الميراث أو بعض الآيات من سور القرآن القصيرة العسيرة الحفظ والتي تحتاج

(*) ألقى في الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس

(آذار) سنة ١٩٨٩ م .

إلى شرح كثير ، والنتيجة أن التلميذ يبغض تلك الآيات ويحفظها قسراً عنه ولا يكاد ينتهي الامتحان حتى ينساها وينقطع الأمل في أن يجيد العربية أو يحصل على ذلك الرنين القرآني الباعث في أذنيه ، وهذا هو السبب في هبوط مستوى علم الشباب - بل الكهول - في أيامنا في اللغة العربية. ومن الغريب أن اهتمام الناس بالإنجليزية في بلادنا يزيد على اهتمامهم باللغة العربية ، وأمر مدارس اللغات معروف حيث ينفق أولياء الأمور الألوف على أبنائهم في التعليم فيها على أمل إتقان اللغة الإنجليزية مع إهمال يكاد يكون تاماً للغة العربية التي يكتبون بالانزr اليسر منها ، والنتيجة أننا نجد أنفسنا في أزمة اللغة العربية الراهنة ، فنحن لا نكاد نجد إنساناً دون الخمسين يتقنها لا نطقاً أو كتابة ، ويكفي أن نقرأ الصحف حتى نتأكد من تلك الظاهرة المحزنة لكل عربي . كذلك نحن لا نظفر بين المذيعين أو المتحدثين في الإذاعة والتليفزيون من يقرأ جملة واحدة دون أن يترع في أخطاء بلا نهاية في اللغة العربية وأذكر القارئ بإعلان تلقيه إحدى مديعات التليفزيون عن مكاتب الأطفال ، والإعلان كله أربعة سطور ولكن المديعة تقع في تسعة أخطاء نحوية وهي تقرأه :

* * *

وكان هذا الضعف المتزايد للغة العربية في عصرنا هذا من أكبر ما يشغل بالي خلال

السنوات الأخيرة لشدة حرصي على اللغة العربية ورغبتي في تقوية الصلة بين الشباب والقرآن الكريم وزيادة مكان كتاب الله في التعليم لأن القرآن الكريم هو السبيل الوحيد لتقويم لسان الصبي في اللغة العربية وإرهاق سمعة اللغة حتى يعتاد أن يقرأها صحيحة دون جهد ، لأن النطق الصحيح باللغة العربية يترتب في السمع أولاً فيشب الإنسان وقد تعودت أذنه الحركة الصحيحة لأواخر الكلمات ما بين رفع وجر ونصب وسكون ، ونحن أنفسنا نعرف ذلك فقد جربناه في حياتنا وتجربتنا ، وإذا كنا قد نسينا معظم ما حفظنا من القرآن في الصغر فقد بقي في آذاننا الجرس الجميل والوزن الصحيح ، بل إن محتويات الكتاب الكريم بقيت في أذهاننا ، والواحد منا يعرف ما هو من القرآن وما ليس منه ، وبلاستعانة بمعاجم القرآن ما بين لفظية ومعنوية لا يصعب علينا أن نجد أي آية من آيات القرآن إذا طلبناها ، ونحن لا نستغنى عن القرآن الكريم في كل ما نقوم به من بحث ودراسة ، لأن الواقع إن حفظنا القرآن الكريم ونحن صغار أصبح جزءاً أساسياً من تفكيرنا . حتى الذين يتقنون لغات غير العربية منا يحسون أن الفضل في ذلك يرجع إلى القرآن الكريم الذي أنشأنا على النطق العربي الصحيح والإحساس ببلاغة العربية ، ومن أتقن لغة أتقن غيرها إذا أراد ومضى يدرسها .

وقد كنت فكرت في أساليب لتقريب القرآن الكريم إلى أذهان الشباب وقلوبهم ، وأعددت محاضرة في هذا الموضوع وألقيتها في الجامعة الأزهرية في قاعة محمد عبده وقلت فيها : إننا ينبغي أن نختار من القرآن للتدريس للشباب فقرات قصصية كما نرى في قصص الأنبياء والآيات العلمية ، كما نرى في سورة الرعد والآيات التاريخية كما نرى في سورتي الأنفال والأحزاب أو الآيات التصويرية ، أي ذات البلاغة التصويرية كما نجد في سورة الدور أو السور التي تصف المجتمع وما فيه والمصاعب التي يواجهها الإنسان في المجتمع وكيف يحلها بالصبر وطول البال والحسن كما نجد في سورة التوبة ، وأذكر أنني قلت في نفس المحاضرة : إننا ينبغي أن ندرس القرآن للتلاميذ على أساس السورة لا الآيات المقطعة من السورة ، وليس معنى ذلك أن نحفظ التلميذ السورة كلها ، بل معناه أن نعطي التلميذ فكرة عن السورة التي نختارها ثم نبين له الموضوعات التي تتناولها لأن كل سورة من سور القرآن الكريم تتناول - موضوعات متعددة ولكن السورة كلها لها وحدة وشخصية واحدة ، ثم نختار للتلميذ آيات من موضوع من موضوعات السيرة وتأخذها ونقدمها للتلميذ ليحفظها مع الشرح والتعليق .

* * *

وقد ظل موضوع تقريب القرآن الكريم من نفوس الصبيان والشباب يشغل بالي حرصاً على تربية الشباب تربية إسلامية عربية صحيحة حتى قرأت أخيراً الجزء الأول من سفر التكوين لبعض أبحاثي فاستوقف نظري أن الإصحاحات التي قرأتها تحكي قصة الخلق ثم خلق آدم ، ولاحظت أنها تروى ذلك رواية بسيطة ذات طابع هو أقرب إلى ما نقرأه في أدب الأطفال وأنالم أرجع إلى الطبعة العربية القبطية من الكتاب المقدس بل الطبعة الدولية التي أقرتها الجامعة الدينية المسيحية سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وهي الطبعة المعروفة باسم المنشقة Emoardant التي تأتي بالنص وتقارنه بما في طبعات المقدس الأخرى وتشير إلى التشابه بين المواضع في الطبعات المختلفة في الهوامش فإذا قرأ الإنسان فقرة عن خلق آدم مثلاً وجد في الهامش كل مواضع الخلاف والتشابه بين النص الذي يقرأ ونصوص الكتاب المقدس الأخرى . ومن المعروف الكتاب المقدس المسيحي يتكون من قسمين يسميان العهدين Teataments فالعهد القديم يتناول كل ما روى في الكتب المختلفة عن الخلق وبداية تجارب الإنسان ثم تلي ذلك مرتبة ترتيباً زمنياً وأخبار أنباء بني إسرائيل أو اليهود وما يروى عنهم وما أثر من كلامهم وكل ذلك مروي بروايات الناس أي أنه

ليس بكلام الله سبحانه وتعالى كما هو الحال عندنا في القرآن الكريم . بل هو أشبه بما نسميه نحن بالآثار أى أخبار الأنبياء الماضين وما نروى نحن محمد صلى الله عليه وسلم من الأحاديث والأخبار مما يسمى في مجموعته بالسنن أو الأحاديث أو الصحاح أو المسانيد . والأجزاء الخمسة الأولى من العهد القديم يقال أنها الكتب الخمسة الأولى من التوراة وتتضمن أخبار الخلق والأنبياء إلى موسى عليه السلام . ولهذا فإنها تسمى بالكتب الخمسة pentateuch أو كتب موسى عليه السلام ثم تلى ذلك بقية الإصحاحات وهو تقريب للفظ عبراني هو الصحاح ويراد به الصحيح الذي يوثق فيه . وهذا العهد القديم كله يعتبر وعلا من الله سبحانه بالغفران للإنسان عندما يرسل النبي المخلص للإنسان من خطيئته التي وقع فيها عندما عصى الله سبحانه وأكل من الشجرة فعاقبه الله بالخراج من الجنة ولكنه بحسب ما يقال في المسيحية لم يغفر له أى إنه هبط إلى الأرض ملعونا ويقولون إنه عندما جاء المسيح عليه السلام خلص من آمن به بالمسح على رأسه بالزيت وهم يسمون ذلك بالسكرامنت ونتيجة ذلك هى الخلاص من لعنة الله salvation . وبعد وفاة المسيح انتقل حق التخليص المقدس أو السكرامنت إلى الخواريين الذين أنشأوا الكنيسة وهى فى الأصل جماعة المؤمنين ، ثم أطلق ذلك اللفظ على المبني الذى يضم المؤمنين . ثم

جاء الخواري بولس Paulus وهو الذى استبد بأمر المسيحية وخاصم برنيا وعددا من الخواريين الآخرين ومنهم مرقس منشى الكنيسة القبطية المصرية . وبولس هو الذى أنشأ الكنيسة التى سماها الجامعة Eatalica وهى أصل الكنيسة الكاثوليكية أما مرقس فقد أنشأ الكنيسة المستقيمة Orthodox . وقد انقسمت كل منهما إلى كنائس مختلفة بعد ذلك . ولكن بولس هو الذى وضع ما يعتقدون أنه أصول المسيحية مثل الإيمان بالثالوث وضرورة تخلص الإنسان من الخطيئة الأولى على يده رئيس الكنيسة الكاثوليكية الذى يسمونه البابا أو من يعينه هذا من كبار القساوسة كالكرادلة والأساقفة أو صغارهم وهم الرعاة pastors الذين يسمون أيضا بالآباء fathers أو رعاة prastors أما العهد الجديد فهو الإنجيل ، والإنجيل عند النصارى هو ما يدكرونه من أقوال عيسى ابن مريم عليه السلام وأعماله ومعظمها يتعلق بالشهور أو الأسابيع الأخيرة من حياته منذ انفصاله عن كنيسة بنى اسرائيل وتعميده نبيا على يد يوحنا المعمد أو المعمدان إلى موته شهيداً على الصليب . فى رأيهم على يد اليهود ، وكانت هناك أناجيل كثيرة ولكن المجمع الكنسية أقرت منها أربعة ، وهى أناجيل يوحنا ومرقس ومتى ولوقا ، وهى تنشر فى العادة فى كتاب واحد يلى بعضها بعضها

لأنها قصيرة. النصوص متشابهة الفقرات وهم يقولون : إن هذا العهد الجديد هو خلاص الإنسان من الخطيئة أو من قرأه وآمن بما جاء فيه عمده القس أى أدخله جماعة الكنيسة وأصبح عضوا من أعضائها

أما الحواري بولص - وتاريخه ومكانه في المسيحية عظيمان جدا . وليس له إنجيل ولكن له في «العهد الجديد» بعد الإنجيل رسائل يعتبرونها من أسس المسيحية، والحقيقة أن هذا الرجل الذي كان قويا جدا وبالغ الذكاء والنشاط هو الذي فصل المسيحية عن اليهود وجعلها دينا مستقلا وهذا واضح في خطابات تلك وهي :

- خطابه إلى أهل مدينة روما

- خطابه الأول إلى أهل كورنثة

- خطابه الثاني إلى أهل كورنثة

- خطابه إلى أهل غلطة (بفتح الغين

واللام ، من مدن آسيا الصغرى)

- خطابه إلى أهل أفيسوس

- خطابه إلى أهل فيليبين

- خطابه إلى أهل كولوسنيس

- خطابه الأول إلى أهل تساليا

- خطابه الثاني إلى أهل تساليا

- خطابه الأول إلى طيموس

- خطابه الثاني إلى طيموس

- خطابه إلى الامبراطور تيتو

- خطابه الأول إلى القديس بطرس

- خطابه الثاني إلى القديس بطرس

- خطابه الأول إلى القديس يوحنا

- خطابه إلى فيلومون

- خطابه الثاني إلى القديس يوحنا

- خطابه الثالث إلى القديس يوحنا

- خطابه إلى العبرانيين

- خطابه إلى يهوذا

- نظرة عامة على الأناجيل الزائفة أى

الأبو كريفيا

وهذه الخطابات تتضمن أفكار بولص

التي انتهت إلى فصل المسيحية عن اليهودية وجعلها دينا قائما بذاته .

والحق إن بولص هو الذي صاغ

المسيحية بصورتها الراهنة، فهو الذي أوجد

فكرة الثالوث ، وقال إنه يتألف من الله

والابن - وهو عيسى عليه السلام في

رأيه - والروح القدس ، وإن هذه الثالوث

تكون إلها واحدا هو الله ولما كانت هذه

أفكارا معقدة فقد بذل بولص جهدا عظيما

ليوضحها ويثبت أن الله - تعالى عن ذلك علوا

كبيرا - نزل الأرض وأخذ صورة عيسى

ابن مريم وقبض عليه اليهود وصلبوه على

الصليب حتى مات ، ولهذا أصبح الثالوث أساسا للمسيحية البوليفية ، والمسيح نفسه حتى في الأناجيل لم يقل بالثالوث ، ولا بو عرفه ، ولكنه كان يتحدث عن الله أحيانا بقوله « أبى » ومن هنا أخذ بولص فكرة أن المسيح ابن الله ، وقد اختلف بولص مع كثير من الحواريين في هذه النقطة وغيرها ومنهم مرقص منشئ الكنيسة المصرية وهي الكرازة المرقسية ويرتب صاحب الإنجيل المعروف لدينا وهو يعتبر عند النصارى من الأبوكرىفا وهي الأناجيل الراضة في رأيهم .

وبولص هو الذى صنع الكنيسة نفسها ، ولفظ الكنيسة باليونانية هو اكليسيا ومعناه جماعة المسيحيين ، وبولص قال إن الجماعة المسيحية لا بد أن يكون لها مركز ماضى هو الكنيسة ، وهو الذى أنشأ كنيسة روما وقال إن الله اعتبرها وارثة السيد المسيح وإن رئيسها — وهو البابا — ينبغي أن يكون ملكا على الملوك جميعا ، ومن بولص أخذ أساقفه روما هذا الكلام وجعلوا أنفسهم بابوات وملوكا على الأرض ، وزورا خطابا زعموا أن المسيح كتبه يجعلهم به أصحاب روما ومسافة شاسعة من أرض إيطاليا ، وقد أثبت البحاثة الفرنسى « مابيون » أن هذا الخطاب زائف .

أقول هذا كله لكى يفهم القارئ عنى كل ما سأقول بعد ذلك لأننا نحن المسلمين لدينا

القرآن الكريم ، وهو كلمة الله تعالى التى لا يأتها الباطل من بين يديها أو خلفها أى فى أى شئ يتصل بالحاضر والمستقبل أو الماضى ، وأمر العقيدة واضح عندنا ولا يمكن أن يدخله ريب . والمسيحية عندنا هى مرحلة من مراحل تطور دين الله سبحانه من أيام سيدنا آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى وأخيه هارون ثم عيسى ثم محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل هؤلاء كانوا مسلمين ، ولا دين عند الله إلا الإسلام الذى يقوم على التوحيد الثابت لله سبحانه فلا أم له ولا أب ولا ابن وإنما هو الله خالق كل شئ . والمسلمون يقولون أنه ما دام دينهم واحدا وواضحا فكذلك غيره من الأديان ، وهذا غير صحيح ، فهناك مسيحيات مختلفة وكل منها دين قائم بذاته ، وكذلك هناك يهوديات مختلفة . ولا يدرك نعمة التوحيد إلا من يعرف هذه الحقائق .

ولما كان موضوع آدم وحواء وتحدى الشيطان لهما وإجراجهما من الجنة يعتبر أساسا من أسس الفكر التاريخى المعاصر على اعتبار أن الحياة على الأرض تحد وأن الإنسان معرض لهذا التحدى فى كل خطوة يخطوها ، على الأرض وفى كل عمل يقوم به لأن الشيطان آلى على نفسه أمام الله أن يتعقب الإنسان ويتدخل فى حياته وأعماله ليفسدها ، فقد اتجه ذهنى إلى استخدام موضوع آدم وحواء كما ورد فى القرآن الكريم

كموضوع قصصى حضارى هام وممتع وجذاب .
استطيع أن أجتذب به الشباب إلى قراءة
القرآن وأعوده محبته والإقبال عليه .

والذى قال بنظرية الحياة على أنها تحد
هو الكاتب الانجليزى تشاوسر « Chaucer »
ولكن قصته بسيطة وغير جذابة بالصورة
التي أريدها ، ثم جاء الأديب الألمانى
« فولفجانج جوته » وكتب نفس القصة فى
رواية فاوست « Faust » التى تعتبر العمل
الأساسى الرائع الذى جعل هذا الأديب
من أعظم أدباء الدنيا ، فقد روى قصة
فاوست وصور التحدى فيها تصويرا بديعا
يرينا حقيقة أن الإنسان فى هذه الحياة معرض
لإغراء الشيطان وخداعه لإفساده ، فإن فاوست
كان عالما مسنا وهب حياته للعلم ، وكان
يقضى أيامه يقرأ ويكتب ويعيش
حياة صالحة فاتخذ الشيطان أو إبليس ،
واسمه فى القصة مفيستوفيايس
Mafistofilis ودخل عليه فى مكتبته وجعل
يغريه بمنت جميلة تسمى هيلانة وقال له
لا فائدة من علمه السقيم هذا وأن حياته تضيع
فى كلام لا يجدى وجهه تافه لا نتيجة له
وأنه لو اتبعه وكفر بالعلم والحياة الصالحة
قانه سيفتح له قلب هيلانة الجميلة ويرده
شبابا ، فيكفر بالله ويستمتع بالمنت ليخجل فى
النهاية أنه خسر حياته دون أن يكسب شيئا
بذا قيمة ، وقد كانت حياته قبل ذلك

هادئة جميلة وإن كانت مملة ولكنه الآن
ضيعها وتحول إلى حطام ، وهكذا يكون
الشيطان قد حقق إرادته وعبث بالإنسان
كما قال .

وقد درس المؤرخ الانجليزى ارنولد
توينبى موضوع فاوست وقال إنه رمز على
حياة الإنسان ، والإنسان الأوربى بصفة
خاصة ، لأن الأوربى يعتمد على الله حقا
ولكن اعتماده على القل عظيم ، والحياة عنده
تحد دائم وتهديد بالفشل ، وإذا كان التحدى
فى الماضى هو تحد بالفساد والخروج عن
طاعة الله فقد أضاف اليها فى أوائل القرن
السادس عشر تحديا جديدا هو التحدى للنجاح ،
فإن الإنسان اذا وجد على الأرض فعليه
أن يعمل ويدرس وينجح ويغتنى ويتخلص
من الفقر ، وعليه ان يدرس ليتخلص من
الجهل ، ويدرس الطب ليتخلص من المرض
ومن هنا أصبحت الحياة تحديا متصلا ،
فالإنسان لابد أن ينجح فإذا لم ينجح استولى
عليه الشيطان واذله وأفسد حياته ، ومعنى
ذلك أن الإنسان أصبح أمام تحدين تحد
اخلاقى دينى وتحذ حضارى .

وكل جهد الإنسان على الأرض إنما
هو استجابته للتحدى الحضارى لأن الإنسان
لا بد أن ينجح والنجاح يكون بالعمل
ومحاربة ظروف الأرض والتغلب عليها وإلا

فلا معنى للحياة، ومن هنا فإن تويحيى يسمى الحضارة الأوروبية حضارة فاوستية أى استجابة للتحدي، وهذه الاستجابة ينبغي أن تكون إيجابية أى تقدمية، وتقدمية معناها ناجحة، فمن الناس من يواجه تحدى الحياة وينهزم أو لا يقوم بأى مجهود، وهذه هي التى تسمى الاستجابة السلبية negative Response ومن الناس من يواجهه مواجهة ضعيفة فلا ينقصر ولا ينهزم ويظل مكانه وهذه هي التى تسمى استجابة لا معنى لها ولا فائدة useless Response وهناك من يواجهها مواجهة ناجحة فينتصر ويتقدم Progressive وهذه هي الأمم المتقدمة أو دول الدرجتين الأولى والثانية The first and second worlds أما الدول المتأخرة وهى دول العالم الثالث The third world nations دول الدرجة الثالثة

وقد قرأت قصة خلق آدم وحواء وعبث الشيطان بهما وإخراجهما من الجنة فى أسلوب بسيط جدا لا يفهم معنى التحدى ولا فكرته فرجعت إلى القرآن الكريم فوجدته يقص القصة فى أسلوب أجمل بكثير مما هو فى الكتاب المقدس، فإن القصة رسالة فى القرآن لإرسالا قويا متماسكا يعطى حقا فكرة التحدى وتدخّل الشيطان فى حياة آدم وحواء وهذا كله معروض عرضا جميلا جدا. حقا إنه

يرد بنفس الأسلوب أحيانا فى أكثر من سورة ولكن له فى كل سورة معنى آخر يرتبط بالسياق لأن القرآن لا تكرر فيه قط، فقد يورد نفس الآية فى سورتين فيخيل إلينا أنه يكرر ولكننا إذا نظرنا فى السياق والمناسبة وجدنا أن المعنى يختلف:

وقصة آدم وحواء وإبليس مقصورة فى القرآن فى سور شتى، ففضيت أجمعها وأرتب فقراتها بعضها بعد بعض على نحو قصصى متماسك، فوجدت نفسى أمام آيات من القرآن يحبها الصغار والكبار ويتذوقونها ويحسون حقا أن القرآن جميل، ثم إن القصة مروية بكامل تفاصيل التحدى بحيث إننا إذا قرأنا الآيات معا تبيننا قصة التحدى بكامل عمقها وشمولها، وأنا هنا أفسر الآيات القرآنية لا تفسير الفقيه بل تفسير المؤرخ، وهو يختلف عن تفسير الفقيه ولكنهما لا يتعارضان.

وفى النهاية عندما جمعت الآيات ورتبتها وربطتها بعضها ببعض اجتمعت لى حكاية خلق الله سبحانه الأرض و آدم وحواء وتحدى إبليس ثم خروج آدم وحواء من الجنة على أجمل صورة:

وفما يلى سأورد الآيات بحسب الترتيب الذى رأيته وسأعلق عليها بما أرى حتى تكتمل القصة أمام الشباب وغير الشباب ويزداد حبهم للقرآن وإقبالهم عليه:

ولما كانت قصة آدم وحواء موزعة في سور كثيرة في القرآن ، فساورد هذه الآيات فيما يلي مرتبة ترتيبا مترابطا كما رأيت، وسأتبع كل آياتة بالشرح والتعليق .

(١) سورة البقرة ٢٩/٢ :

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شيء عليم » .

رأيت أن أبدأ بهذه الآيات من سورة البقرة وهي تقص قصة الخلق بصورة مختصرة جداً وهي مروية في سورة أخرى بصور هي أكثر طولاً وتفصيلاً ، ولكني رأيت أن آتي بهذه الآية نظراً لاختصارها وهي تشرح قصة الخلق في الإسلام شرحاً هو غاية الوضوح .

(٢) السجدة ٣٢ / ٩/٥ :

٦ - « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » .

٧ - « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

٨ - « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »

٩ - « ثم أسواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » .

هذه الآيات غاية في الجمال والعمق فهي تجمع حقائق كثيرة لا بد أن يعرفها الإنسان عن الإسلام فإن الله سبحانه يعرف الحاضر والمستقبل (في هذه الآيات) وتكتفي الآيات في مدحه سبحانه وتعالى بصفيتين هما العزيز والرحيم لكي تدل على عظيم قوته ورحمته وهما صفتان متناقضتان إلا في الله سبحانه فهو وحده القوى الرحيم ثم تقول الآيات « إن الله أحسن كل شيء خلقه » والمراد بقوله « أحسن » « أتقن » ومعنى ذلك أن الله أتقن كل شيء خلقه . ولما كان الله هو المثل الأعلى للإسلام فإن إتقان العمل من الفضائل التي ينبغي أن يتوخاها المسلم ، والعمل غير المتقن لا مكان له في الإسلام ولفظة أتقن مشتق من الإغريقية technics وهو الإتقان ، ومنه التكنولوجيا وهو العلم المتقن ويقال إن الله سبحانه خلق الدنيا في ستة أيام ثم خلق التقن في اليوم السابع .

ثم يقول : « وبدأ خلق الإنسان من طين » وهذا معروف علمياً فإن أصل الإنسان من طين أو من تراب ، وخلق إبليس من نار ، وسرى أثر ذلك فيما يلي من تفاصيل قصة آدم وحواء . وقد جعل الله نسل آدم من ماء مهين والمراد بذلك السائل الذي يخلق منه نسل الإنسان عندما يجتمع بالمرأة ، ثم يقول « ثم أسواه ونفخ من روحه » .

ويُفَسِّرون نفخ الله من روحه في الإنسان بأن الله نفخ في الإنسان العقل ، وهو الميزة الكبرى والوحيدة كذلك للإنسان على غيره من المخلوقات . ولأن الله قد رزق الإنسان العقل فقد أصبح مسئولاً عن أعماله لأنه يختار الطريق السليم بعقله كما نرى . أما غيره من الحيوانات والمخلوقات فتسير بالغريزة والله سبحانه وتعالى يرزقها لأنها دواب لا عقل لها بل غريزة . ويخطئ كثير من الناس عندما لا يعدلون ويقولون إن الله لا بد أن يرزقهم مادام يرزق كل دابة على الأرض ، ونحن نقول له إن الله يرزق الدابة لأنها دابة بلا عقل ، أما الإنسان فمخلوق له عقل ، والله سبحانه وتعالى هو الذي نفخ فيه هذه الروح بعد أن سواه ، أى بعد أن أتم خلقه . ثم رزقه السمع والبصائر لكي يرى طريقه ويسمع الأصوات ويميز قبل أن يختار . أما الأفئدة فالمراد بها العقول وهي في القرآن أيضاً « القلوب » والقلب هو العقل وهو الدهن الذي يميز به الأشياء ويتحمل مسؤولية أعماله : .

* * *

(٣) - البقرة ٣٠/٢ - ٣٨ :

٣٠ « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح

بحمديك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . »

٣١ « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »

٣٢ « قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

٣٣ « قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

وهذه الآيات واضحة المعاني وليس فيها ما يستحق الشرح إلا أن الله عندما علم آدم الأسماء كلها أراد بذلك أنه علمه كل اللغات وكل المعلومات اللازمة له في الحياة .

ونريد هنا أن نقف لحظات عند قول الله « إني جاعل في الأرض خليفة » فما المراد بخليفة ؟ بعض المسلمين يرون أن المراد بذلك أن الله جعل الإنسان سيد الأرض وأنه خلق خيراتها كلها له ، وهذا غير صحيح فالخليفة معناه مخلوق له عقل لكي يستفيد من خيرات الأرض جميعاً . وإلا فهل يعقل أن يعهد الله في الأرض إلى الإنسان هذا المخلوق الضار المفسد الذي أفسد الأرض كما ترى ، فليس في مخلوقات الله من يعرف الحرب أى القتل الجماعي إلا

الإنسان ، وليس في المخاوف من اختراع
المفرقات والديناميت والقنابل والرصاص
والمدافع والقنبلة النووية والهيدروجينية إلا
الإنسان . فكيف يكون الإنسان بهذا الشر
ثم يقال إن الله سبحانه جعله سيد الأرض
وصاحب كل ما عليها وسيد كل من عليها ؟

٣٤ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من
الكافرين » .

٣٥ - « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا
هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٣٦ - فأزلهما الشيطان عنها فأخذا جهما مما
كانا فيه .

وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوا لكم في
الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٣٧ - فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب
عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ - (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما
بأئنيكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون » .

وبعد أن عصى آدم ربه وأكل من الشجرة
التي حرم الله عليه الأكل منها أخرجه الله من
الجنة وأهبطه إلى الأرض . ولكنه تاب عليه ،
أى إن الإنسان في الإسلام لا يحمل مسئولية

خطأ جده آدم ، وليس عليه أن يقضى
عمره يكفر عن هذا الذنب ولا ينبغي عليه
- كما قرر الرسول بولص - أن يحصل على
التوبة على يد قس من الكنيسة ، فإن
الكنيسة لا تغفر الذنوب ، والله وحده هو
الذى يغفر الذنوب .

وهذا القول بالخطيئة الأزلية هو من
مبتكرات بولص فقد أراد أن يقيم دولة
الكنيسة ويعل لها سلطانا على الناس فأنشأ
هذه الدولة وجعل قوتها في هذا الغفران
الذى يقوم به القساوسة بعد اعتراف الإنسان
بذنبه .

وفي الآية السابعة والثلاثين من سورة
البقرة نحمد الله سبحانه وتعالى يأمر آدم وأولاده
أن يهبطوا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو ،
والعداوة جزء من طبيعة الحياة على الأرض ،
فنحن نرى أن الإنسان تحول أولا إلى حيوان ،
وقل إن العنصر الحيوانى في طبعه استيقظ
فيه عندما أخطأ وأخرجه الله من الجنة
فأحس آدم أنه ذكر وأحست حواء أنها
أنثى وطفقا يخاصمان على سوءاتها من ورق
الشجر . ثم هبطا إلى الأرض وقد حلت العداوة
في قلوبهما ، وستحل في قلوب أبنائهما لأنها عنصر
من عناصر الحياة على الأرض أما في الجنة
فلم يكن هناك صراع على البقاء ولا عداوة .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يتتبع حكاية
آدم وحواء وتطورهما بغاية الدقة مرحلة
بعد مرحلة .

(٤) طه ١١٥ / ٢٠ ÷ ١٢٧ :

١١٥ - (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل

فنسى ولم نجد له عزما)

١١٦ - (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم

فسجدوا إلا إبليس أبى) .

١١٧ - (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك

ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) .

١١٨ - (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى)

١١٩ - (وأنت لا تظلم فيها ولا تصبحى)

١٢٠ - (فوسوس إليه الشيطان قال

يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك

لا يبلى) .

١٢١ - (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما

وطفقا يخفئان عليهما من ورق الجنة وعصى

آدم ربه فغوى) .

١٢٢ - (ثم اجتباه ربه فتاب عليه

وهدى) .

١٢٣ - (قال اهبطا منها جميعا بعضكم

لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع

هدى فلا يضل ولا يشقى) .

١٢٤ - (ومن أعرض عن ذكرى فإن

له معيشة ضنكا ونعشره يوم القيامة أعمى) .

١٢٥ - (قال رب لم حشرتني أعمى

وقد كنت بصيرا) :

١٢٦ - (قال كذلك أثبتك آياتنا فنسيتها

وكذلك اليوم تنسى) .

١٢٧ - (وكذلك زى من أسرف ولم

يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

فهذه آيات أساسية بالنسبة لموضوعنا ،

فنحن نرى في أولها مصداقا لما سبق أن

قلناه من أن آدم لا يمكن أن يكون سيد هذه

الأرض وصاحبها ، فهذا هو الله يقول :

إنه عهد إلى آدم في الأمانة فنسى ولم يجد

له عزما ، وهذه الصورة لا يمكن لآدم أن

يظل صاحب ثقة الله سبحانه ، ومادام

قد نسى ولم يجد الله له عزما فقد فقد مكانته

وأصبح مخلوقا مثل غيره . ولم يفتنع بجوهره

العقل التي أهداه الله إياها . وهذا بدوره

يؤيد ما قلناه من أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق

هذه الأرض لآدم وأولاده لكي يستمتعوا

بخيراتها ويتصرفوا فيها ، بل خلقها لكل

مخلوقاته على سواء .

* * *

(٥) الأعراف ١٠ / ٧ - ٢٧ :

١٠ - (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا

لكم فيها معاش قليلا ماتشكرون) .

١١ - (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم

قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس

لم يكن من الساجدين) .

١٢ - (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك

قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من

طين) .

١٣ - قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين .

١٤ - قال أنظرنى إلى يوم يبعثون .

١٥ - قال إنك من المنظرين .

١٦ - قال فيها أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

١٧ - ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين .

١٨ - قال اخرج منها مذعوما مدحورا لمن تبعل منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .

١٩ - ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٢٠ - فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

٢١ - وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين .

٢٢ - فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين .

٢٣ - قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

٢٤ - قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٢٥ - قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .

٢٦ - يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون .

٢٧ - يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .

وهذه الآيات شاملة جامعة، وهى تقص علينا جوانب جديدة من قصة آدم وحواء ولبليلس ، وتحدى هذا الأخير للإنسان وتحذير الله سبحانه وتعالى للإنسان من الشيطان . وفى الآيات تكرار لبعض ما سبق ولكنه تكرار لفظي فقط لأن المعانى هنا تختلف عنها فى الآيات الأخرى المشابهة .

ففى الآية الأولى من هذه ، وهى الآية العاشرة من سورة الأعراف يقول الله جل وعلا إنه بعد أن خرج آدم وحواء من الجنة بفعل إبليس نزل إلى الأرض بعد أن أصبحا مخلوقين أرضيين أى حيوانين فيها الغرائز وطبائع الصراع للحياة وللبقاء ومكن الله لهما معاشه أى سبيلا للعيش لعلهم يشكرون مع أن الإنسان بطبعه غير شكور .

ثم يعيد الله سبحانه قصة خلق آدم وحواء وإعطائه إياهما هذه الصورة التي هما عليها . ويلاحظ هنا أن القرآن لا يقول إنه صور الإنسان على صورته سبحانه كما تقرأ في الكتاب المقدس ولكن على الصورة التي اختارها لها ، لأن الله سبحانه وتعالى ليست له صورة معينة في الإسلام فهو سبحانه لا يشبهه شيء ومن ثم فلا يمكن القول بأن آدم صور على صورة الله ففي هذا مساس بالسمو الإلهي والوحدة الربانية .

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم والسجود هنا ليس للعبادة بل معناه مجرد الاعتراف بامتياز الإنسان لأن الله منحه العقل دون أن يكون في ذلك أى سيادة من الإنسان على غيره من المخلوقات إذ أنه لاسيادة في الكون إلا الله .

وفي الآية رقم اثنتى عشرة نعرف السبب الذى جعل إبليس يرفض الاعتراف بامتياز آدم عليه ، وهو أن الله خلق آدم من طين وخلق الشيطان من نار ، والنار فى رأى إبليس أشرف من الطين ، ولا أساس لذلك من الصحة إنما هو غرور الشيطان بنفسه .

وهنا أخرج الله من الجنة فلا يجوز له أن يبقى فى الجنة وهو على هذه الكبرياء وهنا نجد كيف بدأ التحدى بين إبليس وآدم ، فإن الله أمر إبليس بأن يخرج من الجنة

ومن الأرض : ولكنه سأل الله أن ينظره إلى يوم البعث فشأت إرادة الله أن يبقى لكى يكون فى ذلك اختبار للإنسان ، وبقاء الشيطان إلى جانب الإنسان فى الحياة واجتهاده فى إفساد أمر الإنسان والوسوسة إليه بالشر مئى التى كانت سببا فى التحدى فمن ذلك الحين أصبح الإنسان فى موقف تحدى . الشيطان يريد أن يوقعه فى الشر ويفسد حياته ، والإنسان لابد أن يثبت ويتنبه إلى حيل الشيطان ويقاوم الفساد .

وكان التحدى مقتصرًا فيما مضى على التحدى الأخلاقى وضرورة محافظة الإنسان على نفسه من الوقوع فى غضب الله ، كما حدث لحده آدم ، ولكن الأوربيين من أوائل القرن التاسع عشر ابتكروا فكرة التقدم أى إن الإنسان ينبغي أن يعمل لكى يكون فى غده خيراً من يومه ، وهذه هى فكرة التقدم the idea of progress

ولم يكن الماضون يعرفونها ولكنها أصبحت أساس الحياة فى عصرنا ، فلا بد أن يعمل الإنسان ويتعلم لكى يتقدم وإذا لم يعمل لم يتقدم وظل متأخراً وهذا هو أساس ما نراه اليوم من وجود عالم أول first world وهو العالم الغربى الرأسمالى الغنى ، والعالم الثانى second world وهو العالم الشيوعى وهو عالم قوى ومتقدم أيضاً

رغم شيوعيته ، ثم العالم الثالث Third World وهو العالم المتأخر الذى نسميه من جانب الذوق والأدب بالعالم المتقدم أى الذى يتقدم The progressive world ونحن نتقدم فعلا ولكن فى بطء .

ونرى هنا أن الله سبحانه وتعالى يحذر الإنسان فى نهاية هذه الآيات من الشيطان الذى أخرج جده آدم من الجنة . ويلاحظ أن الله ينبه هنا إلى أن الشيطان عندما أخرج آدم وحواء من الجنة كشف فى نفس الوقت جنسها لكى يصبح مخلوقين من مخلوقات الأرض ، لأن آدم وحواء لم يكونا يشعران بالجنس فى الجنة لأن البقاء فى الجنة خالدا دون جنس ، أما عندما هبط الإنسان إلى الأرض فكان لابد له من المحافظة على نوعه بالجنس فأحس آدم أنه رجل وأحست حواء أنها امرأة وأصبح هذا الجنس من متاعب الإنسان فى حياته الأرضية . وقال الله إن الشياطين يعيشون مع البشر على الأرض ولكن البشر لا يرونهم فى حين أن الشياطين يرونهم وهنا يمكن أن نفترض أن الميكروبات التى تصيب البشر وتقتلهم ربما كانت فى جملة الشياطين .

(٦) الإسراء ١٧ / ٦١ - ٦٩ :

٦١ - (ولذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأُسجد لمن خلقت طينا .

٦٢ - قال (الشيطان) أرايتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريتة إلا قليلا .

٦٣ - قال (الله سبحانه وتعالى) اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا .

٦٤ - واستغزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ؟

٦٥ - إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا .

٦٦ - ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيا .

٦٧ - وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ؟

٦٨ - أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلًا .

٦٩ - أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟

٧٠ - ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم

علي كثير ممن خلقنا تفضيلاً .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه يتم التحدى فيطلق للشيطان الحرية في أن يفعل بمن اتبعه ما يريد ، فهو يستطيع أن يستغرز من استطاع أن يستغزه منهم بصوته ويجلب عليهم بكل قوته ، بل يستطيع أن يشاركهم في أموالهم وأولادهم ويعدهم بما يشاء والشيطان لا يعد الإنسان إلا بالغرور .

أما عباد الله المخلصون فلا سبيل للشيطان عليهم لأن وكيلهم هو الله سبحانه وكفى به وكيلًا .

ثم يعطينا الله صوراً من أفضال الله على البشر ، فهو الذي يجعل لهم الفلك ليركبوها في البحر ليبتغوا من فضله إنه كان بهم رحيمًا ، وإذا مسهم الضر في البحر فلن ينفخهم إلا الله سبحانه . ولكن يحدث أن الله بعد أن ينجي الإنسان من الموت في البحر ويوصله إلى البر أن يعود الإنسان إلى كفره وينسى فضل الله ويعرض عنه لأن الإنسان كفور .

وفي آخر هذه الآيات البليغة العميقة المعاني يذكر الله في الآية ٧٠ أنه كرم بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات ثم يقول الله سبحانه إنه فضل بني آدم على كثير ممن خلق تفضيلاً . ولم يقل إنه فضل بني آدم على كل من خلق وهذا يؤكد المعنى الذي قلناه فيما سبق أن الإنسان ليس أفضل

الخلق جميعها ومن ثم فلا يمكن أن يكون الله قد جعل خيرات الأرض كلها له وحده فهو ليس أفضل ما خلق الله .

* * *

(٧) البقرة ٣٧/٢ - ٣٩ :

٣٧ - فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ - قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٣٩ - والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

هذه الآيات من أدل الآيات على طبيعة الإسلام وامتيازها على غيره من الأديان فإن الله تاب على آدم بعد أن أخطأ ، تاب عليه قبل أن يهبط إلى الأرض .

فهبط دون خطيئة ، ولا تزر وازرة وزر أخرى : هذا ونحن نعرف أن الإنسان في المسيحية هبط إلى الأرض بخطيئته بحسب ما قال بولص : وكان على الإنسان أن يكفر عن توبته أو يخضع نفسه منها بين يدي القساوسة : وهذا هو الذي أعطى للكنيسة هذه القوة الكبيرة على الأرض في حين أن الإنسان في الإسلام حر تمام الحرية . فمن الناس من يأتيه هدى الله فينعم به ولا خوف

عليه ولاذو يحزن . أما الذين يكفرون بنعمة الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

* * *

(٧) الإعراف ٢٦/٧ :

٢٦ - (يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) هذه آية ذات معان حضارية عظيمة حقا فإن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض وجعله مخلوقا أرضيا وأراه سوءاته وسوءة امرأته حواء . وكانا قبل ذلك لا يعرفان الحنس ، ولا يشعران به في الجنة وعلم الله آدم كيف يصنع الكساء من أشياء شتى منها الريش ولكن أعظم لباس للإنسان هي التقوى أى الخوف من الله ومراعاته ، وذلك هو الستر الحقيقى للإنسان في حياته على الأرض هي التقوى أى مراعاة الله والخوف منه .

* * *

(٨) الأعراف ٣١/٧

٣١ - يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

٣٢ - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك تفصل الآيات لتوم يعلمون .

ونحن نرى هنا كيف أن الله يرسم للإنسان حياته الحضارية على الأرض فإن الله يأمر

الإنسان بأن يأخذ زينته عند كل مسجد أى عند كل مكان يقيم فيه الصلاة والله سبحانه يدعه حرا فى أن يأكل ويشرب ما يشتهى إلا المحرمات لأنها كلها ضد صحة الإنسان وحياته . والله سبحانه يأمر الإنسان ألا يسرف فى الأكل أو الشرب لأن الله لا يحب المسرفين :

ولما كان اليهود يحرمون على الناس الكثير من الأطعمة فإن الله سبحانه يدع الإنسان حرا يأكل ما يريد مما خلق الله ويلبس ما يشاء ، لأن كل خيرات الدنيا هي لمخلوقاته أجمعين وخاصة البشر الذين آمنوا بالله فى الحياة الدنيا وكلها خالصة له حتى يوم القيامة .

* * *

(٩) الأعراف ٧ - ١٧٢ :

١٧٢ - وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين :

١٧٣ - أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون .

١٧٤ - وكذلك تفصل الآيات ولعلهم يرجعون .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه وضع نظام تناسل بنى آدم على الأرض وأشهدهم على أنفسهم أنه عرفهم أنه ربهم وذلك حتى

لأيدعوا يوم القيامة أنهم لم يثمنوها إلى الوهية
الله سبحانه وواجب عبوديتهم له . وهذا
التنبيه صحيح متصل في الأجيال كلها فلا يجي
جيل يقول إننا كنا جيلا جديدا لم يبلغنا
خبر الإله وواجبنا نحوه . وهذا هو الالتزام
الخلقى للإنسان في هذه الدنيا وهو نعمة أنعم
بها الله عليه في مقابل غفرانه ذنب خطيئته
في الجنة .

* * *

١٠ - سورة التين ٩٥ :

١ - والتين والزيتون .

٢ - وطور سينين

٣ - وهذا البلد الأمين

٤ - ٥ - لقد خلقنا الإنسان في أحسن
تقويم ثم رددناه أسفل سافلين .

٦ - إلا للذين آمنوا وعملوا الصالحات
فلهم أجر غير ممنون .

٧ - فما يكذبك بعد بالدين :

٨ - أليس الله بأحكم الحاكمين .

هذه السورة القصيرة من أهم ما يقرأه
أورخ الذى يخشى أن يكون هناك تناقض
بين ما فى القرآن الكريم وما يقول به التاريخ
من تطور الإنسان على الأرض وارتقائه
مراحل التطور فيجد في هذه السورة
القصيرة أنه لا تناقض إطلاقا وأن القرآن
الكريم يؤيد ما تقوله أبحاث التاريخ .

فالسورة تبدأ بالقسم بنباتين من نعم
الله سبحانه على الإنسان وهى التين والزيتون ،

والتين حلوى ، والزيتون مر ، ولكنهما يؤكلان
ولكل منها طعم جميل وفائدة عظيمة وهم
ينبتان في نفس المكان .

ثم يقسم الله بطور سينين وهو الجبل الذى
تحدث الله إلى موسى عليه السلام وهو
عليه .

ثم يقسم بذلك البلد الأمين وهو مكة مستقر
الحرم الإلهى ثم يقول إنه سبحانه خلق الإنسان
في أحسن تقويم عندما كان في الجنة فكان
هناك في أحسن تقويم ثم خالف الإنسان ربه
فعاقبه بالإخراج من الجنة وتحول إلى مخلوق
أرضى مثله في ذلك مثل أى حيوان آخر ،
أى الإنسان - بحسب هذه الآية بدأ على
الأرض من أسفل سافلين بدأ حيوانا عليه
أن يكافح على الأرض ليحافظ على وجوده
ثم يرتقى نتيجة للكفاح . وهؤلاء الذين يرتقون
هم أولئك الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات
أى ساروا على الطريق الأخلاقى الذى رسمه
الله فيجازيهم الله عن ذلك أحسن الجزاء ،
وهذا معنى : فلهم أجر غير ممنون .

ثم تتساءل الآية عما إذا كان من الممكن بعد
هذا أن يكذب الناس محمدا صلى الله عليه
وسلم فيما جاء به من دين .
وهذا كله يدل على أن الله هو أحكم
الحاكمين .

* *

(١١) سورة البلد ٩٠/٦ - ٢٠ :

٦ - يقول أهلك ما لا لبدا .

٧ - أحسب أن لم يره أحد .

٨ - ألم نجعل له عيينين ؟

٩ - ولساناً وشفقتين ؟

١٠ - وهديناه النجدين ؟

١١ - فلا اقتحم العقبة ؟

١٢ - وما أدراك ما العقبة :

١٣ - فلك رقبة ؟

١٤ - أو إطعام في يوم ذي مسغبة .

١٥ - يتيماً ذا مقربة ؟

١٦ - أو مسكيناً ذا متربة ؟

١٧ - ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ؟

١٨ - أولئك أصحاب الميمنة ؟

١٩ - والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة .

٢٠ - عليهم نار مؤصدة ؟

وهذه الآيات تكشف لنا عن سر الخير في هذه الحياة الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى هدى الإنسان النجدين أى فتح أمامه الطريقين طريق الخير وطريق الشر طريق الفضيلة وطريق الرذيلة ، طريق الجنة وطريق النار ليختار منهما ما يختاره بعقله الذى أهده إليه الله ، وهذا بريننا كيف أن الإنسان - لأنه عاقل - مشغول عن كل أعماله :

وقد أهده الله عيينين ليرى بهما ولساناً وشفقتين ليتكلم لكيلا يقول بعد ذلك إنه لم يرزق الوسائل التى تمكنه من الرؤية والفهم والتمييز بين الخير والشر وطريق كل منهما . ومن هنا فإن الإنسان لا يستطيع أن يقول إنه أهلك مالا كثيراً فى الشر ، فهل يحسب أن أحداً لم يره ؟ هذا وهم لأن الله سبحانه وتعالى يراه ويرى كل ما يفعل ؟

فإذا فكر الإنسان واختار طريق الصواب اقتحم بذلك العقبة إلى الجنة من بين الأعمال التى يستطيع الإنسان أن يفعلها لكى يكون مطمئناً إلى أنه يسير فى طريق الرضا . وفلك رقبة أى المعاونة على إطلاق سراح إنسان مسكين وقع فى الأسر والعبودية ، أو إطعام فى يوم جوع عام يتيماً قريباً منه أو مسكيناً فقيراً ذا متربة وكان بعد ذلك من الذين آمنوا بالله واتفقوا فيما بينهم على الصبر واتفقوا على معاملة غيرهم من البشر بالرحمة وأولئك هم أصحاب الميمنة أى أصحاب الجنة أما الذين خالفوا الطريق وساروا فى طريق الشر فهم أصحاب الشؤم وأهل النار يدخلون النار وتوصد أبوابها عليهم .

* * *

وهكذا نصل إلى نهاية هذه الدراسة عن
قصة آدم وحواء في القرآن الكريم ، تتبعناها
عبر آيات كثيرة تكمل القصة وترينا كيف أن الإنسان
من يوم كان في الجنة وهو في موقف تحد من

الشيطان الذي يجتهد في أن يفسد حياة الإنسان
ويضلّه ، ثم هناك التحدي الآخر وهو تحدي
العمل للتقدم والاهتداء إلى طريق الخير
والحضارة والتقدم .

حسين مؤنس
مفتي المجمع

ألفاظ الحضارة في الوثائق العربية

ذات الطابع الدولى

للدكتور عبد الهادى التازى

البحث الذى قدمه د . عبد الهادى التازى
للمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى دورته
الخامسة والخمسين (27 فبراير 13 مارس
1989)

الأمر بحديثنا عن تاريخ علاقاتنا مع الأمم
الأخرى :

وإذا كان الاعتراف بالحق فضيلة كما
يقال فإننا فعلا مقصرون فى هذا الباب تقصيرا
يبلغ فى بعض الأحيان درجة لامتناهت معها
غير الاعتراف بواقع الحال ...

وهكذا فإننا إذ نشيد بدور مؤرخينا
القدامى ممن دونوا تاريخنا من أمثال ابن جرير
الطبرى (ت 310 = 923) والبهكى
(ت 487 = 1094) ومن أمثال ابن الأثير
(ت 630 — 1233) وابن واصل
(ت 697 = 1297) وما لنا لا نقول أمثال

الدولى لأمة مامن الأمم
يعنى الاهتمام بما يربط جهة

التاريخ

من الجهات مع غيرها ، من حيث علاقاتها
السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ...
وهكذا فإن التاريخ الدولى هو شىء غير
التاريخ المحلى الذى لا يعدو الاشتغال بالأحداث
والوقائع التى تجرى على الساحة الوطنية
المحدودة ..

وإذا كان العتاب قد وجه من قديم لنا
— نحن العرب — بسبب إهمالنا لتاريخنا الإقليمى
فإن الشعور بالعتاب يزداد حدة عندما يتعلق

(*) ألقى فى الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس
(آذار) سنة ١٩٨٩ م .

ابن خلدون (80=1332) والقلقشندي
1418=821 والمقريري 1441=844
وغيرهم كثير وكثير في المشرق والمغرب^١

لكني إذ أشيد فيه بذكر هؤلاء أجزر
على القول بأنهم يتحملون نصيباً من التبعة في
عدم إعطائهم للوثيقة العربية ذات الطابع
الدولي بما تستحقه من عناية وما تتطلبه من
تتبع وملاحقة !

وينبغي لكي نتصور - باختصار - ما
أقصد إليه أن أذكر أن ابن خلدون مثلاً وهو
رجل دولة عايش كثيراً من أحداث عمره
على الصعيد الدولي ...

هذا المؤرخ العظيم لم يهتم بإعطائنا صورة
لما كانت عليه العلاقات بتفصيل بين المغرب
مثلاً والممالك الأوروبية ... هناك وثائق
دبلوماسية حررت على مقربة منه ولكنها لم
تجد لها صدى في كتابه ولولا احتفاظ أرشيفات
فرنسا أو إيطاليا بها لذهبت أخبارها أدراج
الرياح ... ؟

وسأضرب مثلاً أكثر دلالة على عدم
اكتراثنا بهذه الحقول من ثقافتنا الوطنية
وحياتنا السياسية ، أضرب المثل أيضاً
بالقلقشندي الذي لا نجد في كتابه صريح

الأعشى على حجمه وضخامته لا نجد إلا
صورة مكاتبة واحدة ترجع إلى عصر السلاطين
المماليك : وهي الرسالة الموجهة من دوج
البندقية ميخائيل إلى السلطان فرج بن برقوق
في 16 صفر 814=10 يونيو 1411 وعلى
ذكر العلاقة مع البندقية أذكر أن أصول
اتفاقية 12 رجب 818=17 سبتمبر 1415
مع البندقية تختفي من الأرشيف المصري ... !
إذا ما استثنينا الإشارة العابرة لها والمختصرة

جداً عند المقريري في (السلوك) وعند ابن
حجر في (أنباءات الغمر) (1) في الوقت
الذي نجد الترجمة الكاملة للاتفاقية في أرشيف
البندقية ، أكثر من هذا نجد لوحة رائعة
لسفارة البندقية التي وردت على سلطان مصر
شيخ بن عبد الله الحمودي وهي من الرسوم
التي يمكن لكل واحد أن يقف عليها في
الرواق الكبير بمتحف (اللوفر) لوحة بريشة
بيلليني (Bellini)

وفيما يتعلق بالمغرب كذلك نجد أنه في
الوقت الذي لا يوجد فيه بالأرشيف المغربي
أثر لنصوص الاتفاقية التي عقدتها المملكة
المغربية مع البندقية بتاريخ 19 رمضان 913=
11 يناير 1508 نجد أن أرشيف الدولة في

(1) د. رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع -

فينيسيا يحتفظ بالنصوص الكاملة للاتفاقية المغربية البندقية مع ترجمتها وكأنها حررت بالأمس ..

وهكذا يتأكد أن بعض كتب التراث مما ذكرته آنفاً ونوهت به ما يزال « مناجم » في حاجة كبرى إلى اكتشافها وتقصى ما ورد بين ثناياها بالرغم من شحته وقلته !

ومن حسن الحظ أن بعض زملائنا وأساتذتنا أخذوا يشعرون بفداحة الفراغ الذي تشكوه المكتبة العربية فيما يتصل بهذا الموضوع فأخذوا يحاولون رأب الصدع ، وقرأنا لهم في مختلف البلاد العربية عدداً من المقالات ، وربما ظهر عدد من المؤلفات (1) التي تتحدث عن هذه السفارة أو هذه الوثيقة وربما ظهرت ترجمات لعدد من الكتب التي أسهم بها أصحابها من جنسيات أخرى في موضوع العلاقات الدولية (2) . وقد أخذنا نقراً - وهذه ظاهرة محمودة عن بعض الأطاريح التي تعالج بعض جوانب هذه المواضيع .

ولنا إذ نكبر كل الجهود التي تبذل من أجل كتابة تاريخ علاقاتنا الدولية بما كان يصحبها من ظهور أسماء لبعض الشخصيات

وظهور أعلام جغرافية كذلك . وبما كان يقرن بها - أحياناً - من مناظرات ومحاورات حول شتى الموضوعات ... وبما كان يظهر على إثرها من كتابات وإفادات ... إذ نكبر كل ذلك ما نزال نعتبر أن جل أمهات التراث السياسي العربي والإسلامي وخاصة منه ما يتصل بجانب التاريخ الدبلوماسي ما تزال « مناجم » - كما قلنا - في حاجة إلى الكشف والاستكشاف ... وما تزال في حاجة إلى حفريات متوالية ووثيدة ليس فقط في خزائنا ومستودعاتنا بالبلاد العربية ولكن - وهذا مهم - في الخزائن والمستودعات التي تحتضنها الأرشيفات في الديار الغربية ...

لقد أتيت الفرصة لي - وأنا أحضر كتابي « التاريخ الدبلوماسي للمغرب » أن أتردد على أرشيفات الدولة في معظم البلاد الأوروبية مثلاً ... هناك في بيزة وفي جنوة ، وفي فينيزيا وناپولي . وفي ليشبوة وفي سيانكاس ... وباريز ولندن إلخ ... يجد المرء نفسه أمام متاحف عربية بكل ما تؤديه كلمة « المتحف » من معنى ... ليس في باب التراث كمخطوط ولكن فيما يتصل بعلاقات البلاد الغربية ، والإسلامية بالعالم الغربي .

(1) د. صلاح الدين المنجد : للنظم الدبلوماسية في الإسلام ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان 1983=1403

(2) وري ميخايلوفتش كويبيشا نوف : الشمال الأفريقي الشرقي في العصور الوسطى المبكرة وعلاقاته بالحزرة العربية . نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم - عمان 1988 .

وقد كان مما يثير الانتباه في أمر هذه الوثائق موضوع الهدايا المتبادلة بين ملوك ورؤساء الدول ، كانت هذه الهدايا تكون وحدها عنصراً على حدة يعبر عما وصل إليه الفكر الحضاري العربي بين الأمم من تذوق لنوع ما يهدى وشكل ما يقدم للامم الأخرى ، حيث تتبارى المكايسات والمجاملات في انتقاء ما يجلب تقدير الآخرين ويترجم لهم عن مركز وقيمة ومكانة هؤلاء الذين تقدموا بهذه الهدايا والعطايا ... وما تزال أمامنا الحكمة المروية عن النملة : « إن الهدايا على مقدار مهديها » .

فهنا نرى أن الذي يقدم الهدايا يحرص على أن يظهر أتم ظهور ... وهكذا فإن الهدايا في الواقع بمثابة بطاقة تعريف تحمل معها الحثيات والإمكانات والقدرات ...

وقد رأيت أن أقدم بهذه المناسبة بعض اللقطات التاريخية التي تعبر عن بعض الجوانب المغربية الحضارية التي اتسمت بها العلاقات المصرية في العصر الوسيط ويتعلق الأمر بحديث جميل شاهده سنة 733=1338 ، ويتمثل في إهداء العاهل المغربي السلطان أبي الحسن المريني المصحف الكريم الذي خطه جميعه بذات يده إلى المسجد النبوي بالمدينة المنورة شكراً لله على توحيد المغربين الأقصى ، والأوسط ... وتعبيراً عن الحمد لله على أن مهد الطريق لحج بيت الله ... لقد عهد العاهل

المغربي السلطان أبو الحسن للاميرة المغربية مريم محل والدته بتبليغ المصحف إلى مكانه المخصص له ... وكان السلطان الناصر محمد ابن قلاوون هو المخاطب الأساسي لإنجاح هذه المهمة وتحقيق هذه الرغبة ...

ومن حسن الحظ هذه المرة أن نجد الوثائق بين أيدينا ونجد المؤلفات كذلك في مساعدتنا سواء فيها المؤلفات التي حررت بالديار المغربية أو الأندلسية أو التي ألفت كذلك بالديار المصرية .

وهكذا نمتلك حول هذا الموضوع مادة جسيمة تتمثل في المراسلات الدبلوماسية ، والحوليات التي حررت من طرف شاهدي عيان والتي ترجم بعضها إلى الفرنسية والإسبانية والإنجليزية كذلك .

ويحتوي مجموع تلك المستندات على ثروة من ألفاظ الحضارة وأفعال الحضارة ، كذلك كانت تقتضي منا أن نلغث إليها تحقيقاً وتعليقاً سيما وقد تعرض بعضها للتحريف عند النسخ أو عند الطبع أو عند الترجمة كذلك .

كان في مقدمة المصادر التي تناولت الموضوع من الجانب المغربي :

أولاً : الرسائل الدبلوماسية التي رفعت من العاهل المغربي إلى العاهل المصري والأولى منها تضيف إلى مهمة الوفاة معلومات عن الحالة السياسية في المغرب وعن ظروف

العلاقات المغربية القشتالية في الأندلس : إن
النية كانت مصروفة لإرسال والدة السلطان
حسبما أخبر به سلطان مصر السفير ابن الجراح
لكن بما أن الوالدة هارت إلى عفو الله فإن
سلطان المغرب يبعث بزوجة والده محل
والدته : واستجابة لطلب ملوك مصر إخباره
بمتمزيقات المغرب وجدنا السلطان أبا الحسن
يقدم المعلومات المطلوبة . أما الرسالة الثانية
فقد تخصصت لمهمة الوفاة : حمل المصحف ..
وحج الأميرة ... وذكرت من أعضاء الوفد
المغربى أبا إسحاق بن يحيى السويدي وأمير
الركب الحسن بن عمران ... وهذا الخطاب
« كتب في يوم الخميس المبارك الخامس
والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين
وسبعمائة (21 أكتوبر سنة 1337) » .

وقد وردت نصوص هاته الرسائل في
صبح الأعشى للقلقشندي في المجلد الثامن منه .
ثانياً : كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة
تأليف لسان الدين بن الخطيب سنة
(1375=776) في مجلده الرابع (1) .

ثالثاً : كتاب المسند الصحيح الحسن
في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن
(781=1379) . تأليف محمد بن مرزوق
التلمساني (2) .

رابعاً : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
تأليف ابن خلدون في مجلده السابع والأخير
وفي كتاب (التعريف) الذي ألحقه الناشر
بكتاب العبر .

وقد كان كذلك في صدر من اهتم بهذا
الحدث من الجانب المصرى :

أولاً : الخطاب الديبلوماسي الذي راح من
السلطان الناصر محمد بن قلاوون جواباً
على رسالة العاهل المغربي السلطان أبي الحسن
ويلاحظ أن الناصر يجعل الرسول هو أبا إسحاق
إبراهيم بن أبي يحيى (التازي) ويصف
السويدي بالحاجب الكبير ويكتفى بذكر الكاتب
أبي الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين . .

ثانياً : صبح الأعشى للقلقشندي . .

(1) صدر بتحقيق محمد عبد الله عنان ج / 4 ص 325—322

() صدر هذا الكتاب عن المكتبة الوطنية بالجزائر ، بدراسة وتحقيق د . ماري خيسوس بيغيرا ، تقدم
عمود بوعياد - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1401=1981 وقد كانت المحقة ترجمته إلى
الأسبانية عام 1977 ، وصدر عن المعهد الأسباني العربي للثقافة بمديرية ظهرت قبل هذا عام 1925 دراسة
وترجمة بالفرنسية لخب من الكتاب الأستاذ ليفي يروفتال .

esperis 1925 T.V. 1 Trimestre

ثالثاً : كتاب السالك لمعرفة دول الملوك
لتنى الدين المقرئى . . .

(ت 845=1441)

تضمن هديته إلى صاحب الديار المصرية
صحبة الربعة الكريمة بخطه . . . وفى ذلك يقول
ابن الخطيب :

1 — قبة كبيرة من مائة (بنيقة (1)) وفيها
أربعة أبواب .

2 — قبة أخرى من ستة وثلاثين (بنيقة)
داخلها حلة معلقة ووجهها حرير أبيض ،
وركيها أبنوس وعاج مرصع والأكبار (2)
فضة مذهبة والشرائط حرير . . .

وقد ضربت القبتان بالصفيف (3) ،
وحل فيها جميع الهدية وصففت جميع الدواب
بجهازاتها أمام القبة .

3 — ثلاثمائة من الخيل .

4 — خمسة وثلاثون من البغال بين ذكور

وإناث (4) .

رابعاً : ابن إياس الحنفى (ت 930=1524)
فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور . . .
وهكذا فنحن أمام إفادات تتضافر جميعها
على تسجيل مقدم الأميرة المغربية فى اليوم
الثانى والعشرين من رمضان سنة 738=13
أبريل 1338 .

وإذا ما رجعنا إلى رواية ابن الخطيب
(ت 776=1375) وهو أقرب تاريخ
للزيارة فإننا سنجد فى معرض إشادته بالسلطان
أبى الحسن المرينى يأتى بنسخة العقد الذى

(1) بنيقة : كلمة عربية عرفت تطورات عديدة فى دلالاتها ، ومن جملة ما تعنى الحجرة يتخذها
الوزير ، مثلاً ، مكتباً له ، وربما منها . بتحرير . أتت كلمة (Cabinet (Ministériels) ولأجل تصور
وجود بنائق داخل القبة ينبغى أن نعرف معنى كلمة (أفراق) المحرفة عن (فرق) وهى تعنى مجموعة
مضارب صغيرة يستقر فيها أعضاء الحكومة أثناء السفر وقد فهم كانار CANARD خطأ أن القصد
بالبنيقة هنا قطعة الثوب G.S. Colin, Encyc. ISLAM 1954

(2) جمع كبر القصد إلى أعلى القبة أى ذروتها وتفايحها .

(3) محلة بتلمسان حيث كان العاهل المغربى يقم انذاك .

(4) كان جميعاً بسروج ولحم مسقطة بالذهب والفضة . . . وبمفها سروجها وركبها من الذهب .

- (5) سبعمائة من الجمال إلا أنها لم تصنف بل أعدت لحمل الهدية .
- (6) أربعة وثلاثون من البزاة الأحرار .
- (7) مائتان وخمسة وعشرون من أحجار الياقوت (1) .
- (8) مائة وثمانية وعشرون من قصب الزمرد (2) .
- (9) ثلاثة آلاف وأربعة وستون من حبوب الجوهر الفاخر أكثره .
- (10) ثمانية وعشرون من أحجار الزبرجد .
- (11) عشرة من المهندات بحلية الذهب .
- (12) عشرة أزواج مہاميز من الذهب .
- (13) عشرة أزواج الأركب ، واحد كله ذهب وثلاثة كلها فضة وستة من خبيجة مذهبة على الحديد (3) .
- (14) مضمثان من ذهب .
- (15) شاشية مذهبة .
- (16) ثلاث عشرة حلة (مذهبة) .
- (17) عشر كلل .
- (18) مخاد مائتان بعضها نرف (4) ذهب وبعضها حلان .
- (19) عشرون أنساقاً ذهب (5) .
- (20) ستة وأربعون من القدود (6) .
- (21) فرش جلد (7) .
- (22) عشر علامات معشقة (8) .
- (23) عشر وقايات مذهبة .
- (24) ثلاثون من وجوه اللحف حرير وذهب (9) .
- (25) مائتان من المحررات الملونة الرفيعة الختمة .

- (1) ينعت ابن مرزوق الياقوت بأنه فاخر عظم القدر والمقدار ، النفح . 400,4
- (2) قصب ج قصب ، تنظم فيه قطع الزمرد DOZY
- (3) نقل ابن الخطيب هنا أكثر وضوحاً ودقة .
- (4) (النزق) آلة النساج من تسمية الشيء باسم آله .
- (5) رسم عند آخرين انزاق جمع نزق 1939—1941 A. I. E. O.
- (6) يسميها ابن مرزوق أيضاً (الخلادي) جمع خلدي . جلد الغنم كانوا يتخذون منه لباساً . . .
- (7) M. Canard : Relations .. AIE.O 2932—41
- (8) يضع دوزي علامة استفهام على هذا اللفظ فلعلها مغشقة أى مغشاة
- (9) يعاها ابن مرزوق عشرين

- (26) حيطيان أحدهما حلة والآخر نرق (1)
 (27) ثلاثة وعشرون شقة من الرصان (2)
 (28) إثنان من حنابل الحلة .
 (29) عشرة براقع للخيل ، منها ثمانية
 من الحلة :
 (30) ثلاثون من أسلة (3) الخيل .
 (31) ثلاثة طافس من الحرير .
 (32) حنبلان اثنان من الحرير .
 (33) عشرة حنابل من الحرير و الصوف .
 (34) مائة وسبعة من الحنابل الونشريشية
 والزمورية :
 (35) أربعة آلاف من الجلود الشركى ...
 والإغماتى .

- (36) مائتان من درق اللط المشمة (4) .
 (37) أربعة وعشرون من الأكسية المحررة .
 (38) ثمانية من البرانس المحررة .
 (39) عشرون من الأحارم ما بين محررة
 وصوف .

- (40) خمسون من أزواج المحفف (5) .
 (41) عشر لزمات من الفضة (6) .
 (42) ست عشرة شقة من الملف (7) .
 وأما أزودة الحجاج ، يتابع ابن الخطيب
 لائحة نسخة العقد التى وقف عليها :
 أعطى للحررة المكرمة (8) أخته أعزها الله
 ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومائتى كسوة
 برسم العرب .

- (1) تعبر ابن مرزوق . نسق
 (2) لعل أصل الكلمة من ايطالية RASO
 (3) جمع سليل ، تعنى التجفاف ، يتقى به كالدرع للفرس والإنسان
 (4) يضيف ابن مرزوق فيها إثنان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة
 (5) فى ابن مرزوق المشفف ، أى الشفاف
 (6) اللزمة هى الشكيمة
 (7) جوخ يستورد من (أمانى) الإيطالية ، ويعرف بلف للطلبان
 (8) يلاحظ أن الرسالة الرسمية التى بعثها السلطان أبو الحسن تمنعت الحجة فى الرسالة الأولى : من
 يمت محرمة المحرم إلينا ويلزم بحق التربية علينا من يقوم عندنا مقامها « وفى الرسالة الثانية : « وهى
 محل والدتها المكرمة المبرورة . . . « وفى ابن مرزوق يسحبها بمرم ويظهر أن الرسالتين السلطانيتين تعمدتا
 هذا التكم فتملك للعادة المتبعة . . .

* أعطى لمن سافر معها ستائة وسبعين
ديناراً (1) .

* أعطى لأبي إسحاق بن أبي يحيى ثلاثمائة
دينار من الذهب وكسوة رقيقة .

* أعطى لعريفه يحيى السويدي ألف دينار
من الذهب .

* أعطى للوصفان والخدم العدد الكثير
من الذهب .

* أعطى لرسوم التحبيس على قراء الربعة
الكريمة ستة عشر ألفاً وخمسمائة دينار (2)
وعلى غيرهم من علماء المالكية .

* * *

ويأتى بعد لسان ابن الخطيب ابن مرزوق
الذى يذكر هو الآخر أنه يعتمد فى لائحته
على ما ضبط من نقل المتولى لذلك ، ومن
خلال المقارنات والمفارقات بين إفادة ابن
الخطيب وابن مرزوق يظهر أن الاختلاف
بينهما لا يكاد يذكر على ما وقفنا عليه فى
التعليق المقتضية السابقة .

ولذا ما رجعنا أخيراً لابن خلدون فسنعده
فى صفحتين متتابعتين من كتابه يردد عبارة :

أن الناس تحدثوا فى البلاد دهرأ كاملاً عن
يوم مقدم الأميرة المغربية ، ويقول : إنه
وقف على برنامج الهدية بخط أبي الفضل
ابن أنى مدين لكنه ، أى ابن خلدون ونسيه !!
وأن بعض قهارمة الدار ذكر له كذا وكذا
مما كان يقارب الجرد الذى قدمناه نقلاً عن
ابن الخطيب .

* * *

ونرى فى البداية أن نقف قليلاً أمام الربعة
الكريمة ، أى الصندوق المعد للمصحف
الشريف ، الذى نسخه للعاهل المغربى ، على
ما أسلفنا ، بخط يده وجمع الوراقين لمعانة
تذهيبه وتنميقه ، واستدعى القراء لضبطه
وتهذيبه حتى اكتمل شأنه — كما يقول
ابن مرزوق وابن خلدون معاً — : لقد كان
العاهل حبس هذا المصحف ابتداء على شالة
(مقبرة بنى مرين المطلة على وادى بورقراق
بالرباط) . . لكنه — وقد عزم على أن يبعث
أم ولد أبيه بعد وفاة والدته — قرر أن
يبعث بالمصحف إلى المدينة المنورة ، وهنا
وضع له وعاء مؤلف من خشب الأبنوس
والعاج والصندل الفائق الصنعة ، وغشى
بصفائح الذهب ونظم بالجواهر واليساقوت ،
وقد اتخذت له أصونة الجلاء المحكمة الصنعة

(1) ينبغى أن نشير هنا إلى أن العدد العديد من السيدات اللاتي رافقن الأميرة كن من زوجات وكريزمات
الوزراء والكبراء والقضاة على ما سندكره .

(2) يتساءل هنا عن عدم ذكر ابن مرزوق للكاتب أبي الفضل بن أبي مدين الذى ورد ذكره فى خطاب
السلطان الناصر للسلطان أبي الحسن . . .

المرقوم أديعها بخيوط الذهب ، ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان قبل أن يأخذ الركب طريقه من حاضرة تلمسان (1) في النصف الثاني من شهر جمادى الثانية على ما نقدر استئناساً برحلة مماثلة تمت في ظروف مشابهة سنة 1143=1731 (2) .

وحتى يحصل الغرض الذى قصده العاهل من تحبيس المصحف أخرج من خزائنه أموالاً عيناً لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها ... وهو النص الذى يوضحه ما جاء فى اللائحة التى أسلفنا الحديث عنها (3) .

فإذا عن جواب مصر على هذه الوفادة التى تحدث الناس عنها دهرأ على ما أسلفنا ؟ هنا سنرجع للمعلومات القيمة التى أوردها المقرئ فى كتابه « السلوك » وهو المصدر الوحيد - على ما أعلم - الذى حدد يوم 22 رمضان سنة 738=13 أبريل 1338 (4) موعداً لوصول الأميرة التى ينعتها ببنت السلطان .. التى قدمت معها هدية جليلة للغاية ، نزل حملها من الاصطبل السلطانى ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ،

(1) حضر ابن مرزوق هذه الأيام بتلمسان مع العاهل المغربى الذى أضفى عليه من عيادته ، ويخيلنا ابن مرزوق أن المصحف كان ما يزال بالمغرب ليلة عيد المولد النبوى 738 ، وقد أنشدت فيه عدد من القصائد الشعرية علق يحفظ ابن مرزوق هذان البيتان .

يسا مصحفاً سارأى الرأون فى زمن شهباً له مصحفاً من نسخ سلطان فضيلة مثلها فى الدهر ... عرفت من عهد عثمان إلا لابن عثمان ويفيد ابن مرزوق هنا أنه شاهد المصحف بالحرم النبوى ، هذا وقد ثقفت أثر هذا المصحف فى المدينة فلم أقف له على أثر ، فى حين وقفت فيه على المصحف الذى حبس على بيت المقدس . . . التازى : أوقاف المغاربة فى القدس ، مطبعة فغالة (المحمدية) سنة 1981 ص 21-22 .

(2) القصد إلى الرحلة التى قامت بها الأميرة خنثة زوجة السلطان مولاي إسماعيل وأم السلطان مولاي عبد الله ، التى حججت صحبة حفيدها الأمير سيدى محمد بن عبد الله الذى أصبح ملكاً للمغرب : محمد الثالث لقد كان على الركب الأمير أن يقضى سبعة يوماً فى الطريق بين مدينة فاس التى ودعها يوم حادى عشر جمادى الثانية من سنة 1143=12-22-1730 وبين أول نقطة فى ولاية طرابلس د . التازى : أمير مغربى فى طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الامتحافى (مطبعة فغالة 1976) .

(3) ينبغى أن نذكر هنا أن بعض المؤرخين يرون أن تقديم السلطات أبى الحسن مثل هذه الهدايا النخمة لسلطين مصر مقترنة بالمتزيدات عن امتداد ساطانه إلى حدودهم لم يقع موقع رضى من أولئك الحكام الذين نفسوا عليه ذلك الأمر الذى يفسر إيواءهم لابن تافرا حين ألد خصوم السلطان أبى الحسن .

(4) يذكر ابن لياس خطأ أن الحرة حضرت مصر عام 736=1336 على ما أسلفنا - بدائع الزهور تحقيق محمد مصطفى ، الجزء الأول - القسم الأول ص 472 . الهيئة المصرية للكتاب القاهرة 1402=1982

وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح (1) ... وهم جمع كبير جداً . يقول المقریزی : وكان يوم طوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نزلت كلها ، سوى الجوهر واللؤلؤ ، فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار .

ثم نقلت الحرة إلى الميدان (2) بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عندهم وفضل عنهم ، فكان مرتبهم في كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف أردب (3)

أرزاً وقنطار حب الرمان (4) ، وربع قنطار سكرآ ، وثمان فانوسان شمع (5) وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وكانت أجرة حمل أثقال ركبتها قد بلغت ستين ألف درهم ... ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة : فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين على قدر طبقاتهم حتى على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجمل قدره ، وقيل لها : أن تملئ ما تحتاج إليه (فقالت) : « لا يعوزها شيء ، وإنما تريد شكر عناية السلطان بإكرامها وإكرام من معها حيث كانوا » .

(1) سمي هذا المسجد بالفتح لأن منه كان انهرام الروم إلى قصر الشمع حين قدم الزبير بن العوام والمقداد ابن الأسود فيمن سواهما مدداً امعرو بن العاص ، وكان الفتح ، وإن تحت حائط الشرقي قبر عامر الذي كان أول من دفن بالقرافة ، ومحراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب انحرافاً كثيراً على نحو محراب جامع القرويين بفاس المغرب ... المقریزی : الخطط ، طبعة بيروت ، 3 ص 447—450 د . التازي جامع القرويين ج 3 ص 656 طبعة بيروت 1922

(2) أي ميدان يقصد ٩ فالميدان كثيرة على ذلك العهد في القاهرة ميدان القلعة وميدان القصر ، وميدان الملك العزيز إلخ انظر الخطط 3 ، ص 19—76 وانظر كذلك كتاب نظم دواة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد ص 137 .

(3) الأردب مكيال ضخم في مصر يساوي 24 صاعاً ج أرادب .

(4) يمكن أن نلاحظ أن الرمان كان من الفواكة المدخرة لأن موسمة عادة هو الخريف ، ومعلوم أن الوفادة المغربية وصلت في إبريل ربيع 1338 .

(5) الفانوسيات ج فانوسية وهي على ما عند دوزي (Dozy) كمية معينة من شمع القوانيس والظاهر أن تلك الكمية كانت قدر ما يكفي للفانوس الواحد ، والفانوس لفظ يوناني معرب .

فتقدم السلطان إلى النشو (1) وإلى الأمير أحمد أقبغا (2) بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية، وهياً كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوى والسكر والدقيق والبشماط (3) وطلبا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الخيزة (4)، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام الحمل ويمثل كل ما تأمره به، وكتب للأميرى مكة والمدينة بخدمة أتم خدمة».

وهكذا لقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم

صاحبهم، وجواباً على الهدايا المغربية وجدنا ملك مصر يسنى الهدية للسلطان أبي الحسن فيقدم له علاوة على ثياب الإسكندرية البديعة النسيج المرموقة بالذهب، علاوة على ذلك أنواعاً من الفساطيط المصرية الغربية الهيكل والصنعة بالمغرب على ما يذكره ابن خلدون في كتابه (التعريف (5)).

وقد وقفنا في هذا المصدر على تفاصيل أدق عن الفساطيط المصرية المهداة : إنها

خيمتان شاميتان كانتا مئثار إعجاب كبير من سلطان المغرب، ويتعلق الأمر بخيمة عظيمة على تصميم قصر فخم تشتمل على بيوت للمراقدة وأواوين للجلوس وأماكن للطبخ،

(1) هذا لقب كان يعرف به المشرف على الكتابة الخاصة بالملك مصر، ما كان يسمى «ناظر الخاص» ويتعلق الأمر بشرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله الذي تردد ذكره كثيراً عند المقرئى فى السارك، كما ورد ذكره أيضاً فى الخطط (ج 3 ص 80) فى معرض حديثه عن المطبخ . قال : أمر القاضى شرف الدين المطبخ الساطنى فى سنة 739 فوجد عدة الدجاج الذى يذبح كل يوم للبساط سبعائة طائر .

وقد قتل عام 740 عتقاً به من الملك الناصر، وقال فى النجوم الزاهرة ج 9 ص 132 . وجدت له صناديق كثيرة فيها قماش إسكندرية، مما عمل برسم الحرة جهة ملك المغرب قد اختاراه .

(2) يفترض الأستاذ كانار أنه ربما كان هو علاء الدين أقبغا صهر السلطان الناصر. Marin's Canard. Les relations entre les Merinides et les Mamlouks. A.I.E.O. T.V 1939—41 P.62

(3) قطع من الحلوى الناشفة المجمرة نصبر على مدى الشهور، والكلمة من أصل رومى ورد ذكرها علاوة على المقرئى فى الوثائق التركية بعد هذا التاريخ .

(4) متولى الخيزة يعتبر من ألصق الشخصيات بالسلطان الذى له بالخيزة عدة أملاك على ما يؤخذ من الخطط للمقرئى .

(5) ابن خلدون . التعريف ج 7 ص 1668 طبعة بيروت - د. التازى التاريخ الدبلوماسى للمغرب ج 7 ص 216 رقم الإيداع القانونى 1986/25 مطابع فضاء 1988=1408 .

وأبراج للإشراف على الطرقات وردحات عديدة فيها واحدة لجلوس السلطان للعرض ، وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومثدنته ، وحوائط الخيمة كلها من خرق الكتان الموصولة بحيك الخياطة ، مفصلة على الأشكال التي يريدونها المستعملون لها ... أما الخيمة الشامية الثانية فهي على شكل مستدير عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، وهي تظل أزيد من خمسمائة فارس . هذا إلى قطعة من الكسوة الثيقة للكعبة على ما جاء في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري الذي حج في نفس العام (1) .

وإذا كانت هذه الوثائق بما تضمنه من رسائل وأجوبة ... وما تشمل عليه من نقول وفصول تعبر في حد ذاتها عن مظاهر حضارية أصيلة ، فإننا مع ذلك سنركز على بعض الألفاظ التي استرعت انتباهنا مما كان لها وزن في استعمالات العالم المتمدين ... وسنكتفي بعرض بعضها معلقين بما نراه ضرورياً ، لاستجلاء أمرها كما أننا سندرج فيها بعض الألفاظ الدخيلة (فارسية أو يونانية) (2) التي أصبحت — بحكم ممارسة العرب لها — داخلة في المعجم العربي .

(1) فيما يتصل بالربعة :
ومعلوم أن الربعة كما أسلفنا هو الوعاء أو الظرف الذي يحفظ المصحف ، وهذه الربعة وحدها تشتمل على عدد من الألفاظ والاصطلاحات التي تدون عادة في بابها المفردات الحضارية .

وينبغي أن نثير الانتباه أولاً إلى مادة الكاغد الذي كتب عليه المصحف المهدى ... الكاغد كان وما يزال عنصراً أساسياً يعبر عن رقي الأمم ... وفي هذا الصدد أذكر أن حاضرة فاس وحدها كانت في هذا العهد تتوفر على أربعمئة معمل للكاغد ...

وهنا أيضاً سنذكر بمهنة الوراق الذي يقوم بتذهيب الصفحات وتنميقها ... كما نذكر بالمواد التي صنع بها الصندوق : من أبنوس وعاج وصندل ، علاوة على سبائك الذهب وقطع اللؤلؤ والياقوت التي رصعت بها الربعة .. يضاف إلى كل هذا أغلفة الجلد التي كانت تحاط أيضاً بقطع من الحرير والديباج والقماش الرفيع ...

وكل هذا يقدم لنا طائفة من الألفاظ ذات الدلالات الحضارية الرائعة .

(1) م . المنوفي . ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ، منشورات كلية الآداب الرباط

1399=1979

(2) M. Canard: Les Relations entre les Mernides et les Mamlouks. A.I.E.O.

T.V. Années 1939-41 p. 41 — 81

(2) فيما يتصل بالأحجار الكريمة التي اهديت لبلاط مصر والتي كانت تذكر في كتاب (الذخائر والتحف) للقاضي ابن الزبير، نجد أرفع أنواع الجواهر والآلي والزجاج والزمرد واليواقيت بألوانها الأخضر (Jade) ، والأحمر (Ruty) ، والأزرق (Saphir) ، والأصفر (Topaz) .

(3) فيما يتصل بالثياب المهداة : سنقف على نماذج تعبر - بما تضمه من أسماء وأشكال عما وصلت إليه الصناعة في ذلك العصر ، كما تعبر عما كان يروج من ملابس على عهد بني مرين مما أثبت بعضه المستشرق الهولاندي رينهارت دوزي في كتابه (المعجم المفضل بأسماء الملابس عند العرب) (1) :

وبالرغم من ثراء هذه العطايا وثقلها فإننا نلاحظ أن رسالة السلطان أبي الحسن تعتذر عن التقصير بوجوده آنذاك بعيداً عن فاس التي كانت تحتضن على هذا العهد ثلاثة آلاف معمل لصناعة الحرير .

ونذكر من هذه الحريم أو الإحرام الذي يجمع على الأحارم ، نوعاً من أغطية الرأس التي تجعل فوق العمامة على نحو الطيلسان عند المشاركة .

كما كان من أنواع الألبسة المهداة البرنس الذي قد يسميه المغاربة (السلهام) بالسين والهاء وليس بالزاي والحاء كما يذكره خطأ الذي ترجموا دوزي ، والسلهام أو البرنس يكاد يكون من خصوصيات المغرب ولذلك نقرأ عن أبي الحسن اليوسي قوله التي تعطى شبه هوية للمغاربة يتميزون بها : لبس البرنس وأكل الكسكس وحلق الرؤوس .

ونجد كذلك الحياصة ، وتجمع على حوائص التي تعني نوعاً من الحزام كان يستعمل أحياناً من الفضة أو الذهب ، ويتحدث المقريري في كتابه (وصف مصر) عن سوق الحوائصين الذي تباع فيه الحوائص وهي التي كانت تعرف بالمنطقة في القديم .

كما نجد إلى جانب الحياصة (المضمة) التي نقل دوزي عن الدبلوماسي الدانماركي (هوست) في كتابه حول المغرب أنها المضمة من ملابس رجال البلاط بمثابة زينة .

ونجد كذلك الشاشية التي تجعل على الرأس وقد خصص لها دوزي في معجمه عن الملابس حيزاً واسعاً يرجع إليه والمهم فيه أنه يؤكد أنها تعبر عن درجة معينة في المجتمع الذي يلبسها ، وتضاف إلى كل هذا ألفاظ أخرى كالخلادي لنوع من القماش الذي تحدثنا عنه ،

(1) ترجمة د. أكرم فاضل - نشر وزارة الإعلام - بغداد 1971 .

والرمان كذلك لنسيج معين مستورد ،
والفضالى لنوع من الثياب ، والشقق ج شقة
لقطع من النسيج يحتوى على عدد من القالات
ولهاذرع .

ونرى من المناسب أن نذكر تحت هذا
الباب الخيام الفخمة الرائعة التى تبادل المغرب
إهداءها مع مصر .

(4) ومما يتدرج فى أشكال الفراش الذى
رحل إلى مصر نجد على سبيل المثال : الكلمة ج
كلل ، واللفظ يعنى غشاء شفافاً بخاط كالبيت
وتجعل فوق الفراش يتوقى به من البعوض ،
والناموس وقد يسمى « الناموسية » .

وينبغى أن نتصور هذه القصور المتنقلة
التي حملتها الوفادة المغربية إلى المشرق ، والتي
حملتها الوفادة المصرية إلى المغرب : الخباء
الكبير الذى توجد له أبواب بعدد من الجهات
الأربع : شمال وجنوب وشرق وغرب ،
والذى يحتوى على مائة حجرة التى تسميها
الوثائق المغربية (البنيقة) ... تسع تلك
الخيمة الحاشية الملكية بوزرائها وكتائبها .

كما نجد كذلك الطنفسة أو الطنفسة (كلمة
فارسية الأصل) تجمع على طنفس ، واللفظ
يعنى نوعاً من البساط الذى تستعمله الطبقات
اليسورة وهذه غير (الحنابل) (ج حنبل)
الذى ورد ذكره ضمن الهدايا المرفوعة ...
إن الحنابل تكون عادة من ألوان مختلفة ومن
الطريف أن نجد النص فى لائحة المواد المهداة
على أن الحنابل يوجد فيها ما هو مصنوع
بزمور من أرض المغرب الأقصى ومنها ما هو
مصنوع بونشريس التى توجد فى توجين
بالمغرب الأوسط ... وكأن السلطان أبا الحسن
يعنى بهذا أنه متمكن من المغربيين ...

ثم الخيام المغربى الثانى الذى يحتوى على
ستة وثلاثين حجرة والذى كان مخصصاً ،
فيما يبدو ، للسلطان وحريره وهو يحتوى على
ست وثلاثين حجرة وقد طرز من داخل بحلق
مذهبة ، وكسى من خارج بالحرير الأبيض .
أما عن القسطنطينيين اللذين صنعوا فى الشام :

الأول : كان فعلاً على تصميم قصر مربع
فخم يحتوى على قاعات يقصد الاستعراض
والاستقبال ، وعلاوة على الأبراج المنصوبة
فيها للإشراف على ما يأتى به الطريق ، فإن هناك
غرفاً للنوم طبعاً إلى جانب المطابخ ودو المياه
ينبغى أن نذكر هنا أن حوائط هذا القسطنطين
كلها من خرق الكتان المفصلة على الأشكال
والمساحات التى يريدونها المستعملون حتى لها

؛ ثم نجد كذلك ضرباً مما تغطى به عمادة
الحدران حتى لا تظهر للناس بجبسها وجبرها ،
وهذا ما يحمل اسم (الحايطى) الذى يكون
مزخرفاً مطرزاً بشتى أنواع التطريز وهو
منظر يضئ على البيوت مسحة من الرفاه ،
والأناقة ...

تبقى الحجرات صغيرة أو تشرك مع بعضها عند الحاجة .

أما الفسطاط الثاني : فقد كان على شكل مستدير على السمك رجب الفناء وهو يسع أزيد من خمسمائة فارس ...

وإن من أطرف ما حملته إلينا هذه الأخبار أن يصحب الفسطاط الأول بتمثال (ما كيط) لمسجد على تصميم مشرق بمحرا به وسواريه ومثلته ...

والخدير بالذكر هنا أن ظاهرة إنشاء الماكيطات أو الرسوم المحسمة كانت شائعة على هذا العهد ...

فقد قرأنا في كتاب المسند لابن مرزوق (ص 448) أن السلطان أبا الحسن حو الذي رسم بذات يده مساحة الدار التي سكنها الأميرة الخنصية عزونة التي خطبها من والدها أبي يحيى .

وقرأنا أيضاً في رحلة ابن بطوطة (ج ٤ ص 354) عن صنع ما كيط لجبل طارق كان يحتفظ به السلطان أبو عنان في قصره بفاس (1) ...

(5) وفيما يتصل بآلات الركوب والعدة نقف أيضاً على عدد من الألفاظ الدالة على

مدى ما بلغت المدنية آنذاك في البلاطين المصرى والمغربى وهكذا نجد لفظ أسنة ج سابل بمعنى الدرع الذى يحشى الفرس ... يحصن به الفرس على نحو ما يحصن الفارس بالدرع ...

ونجد إلى جانب هذا البراقع التي تخصص للخيل ، وفي هذا الصدد نجد أن البرقع يختلف من فرس إلى فرس شكلا وقيمة فهو يصل أحيانا إلى أن يكون كله من ذهب وأحيانا أخرى تتنوع مادته ...

ونجد مع الحيوانات المهداة ... أربعاً وثلاثين صقراً أو بازاً .. وينبغي أن نقف قليلا مع هذا النوع من الهدايا ... لعل بعضنا لا يعرف أن العصور الوسطى اصطلمت على أن إهداء الصقر من التعابير الدالة على أن العلاقات بين أمة وأخرى بلغت غايتها في التواصل والتكامل ... فالصقر الحر إذن سفير سلام ومحبة ... وليس هذا فقط ولكن إهداء الصقر يعبر في جنة أخرى عن مدى ما وصلت إليه دقة ورقة ورهافة حضارة الجهة التي تهديه ... فإن الصقر لا يهادى وحده كطير عار عاطل ... ولكن الصقر تصحبه جهازات وأدوات وأثاثات ... نجد في صدرها البراقع التي عبرت عنها لائحة

(1) د. النازى . التاريخ الدبلوماسى للمغرب ج 7 ص 98 .

الهدايا بالوقايات وهي تجعل على عيني الصقر
أثناء تدريبه وهي تكون من جلد ومن فضة
وأحياناً من الذهب الخالص ٢٢ ١١

كما نجد في تجهيزات الصقر ما يسمى بالمناقل ،
أى القفاز ، الذى ينتقل عليه الصقر على
يسرى مربيه الذى يحمل فى المغرب اسم
البياز وفى المشرق اسم البازريار ١١

هذا إلى الوكر الذى يعنى الحُجْم الذى
يجلس عليه الصقر للراحة والنوم وهو غير
المنقلة السالفة الذكر...

١ هذا كذلك إلى الجليلج الذى يربط فى
إحدى رجلي الطائر وهو يساعد البياز أو الصقار
على التسليل على مكان صقره فى حالة ضلاله
عن الطريق ! وأخيراً الخيوط التى تلازم
رجل الصقر بطريقة لا تضره ولا تضيقه
كذلك .

طبعاً كل الأدوات تكون من مواد تعبر
عن المركز الاجتماعى للمُهدى وللمُهدى له ...

ولا يمكن أن نتصور هدايا من هذا النوع
رائحة من ملك إلى ملك دون أن تكون
مصحوبة بهذه التجهيزات الدقيقة سيما ونحن
نعرف عن مدى اهتمام السلطان الناصر بأمر
الطيور الجوارح التى وجد منها نحو مائة
وعشرين صقراً بعد وفاته على ما نقرأه فى
تاريخ مصر ... تماماً على نحو اهتمامه بالخيول
وأنسائها وأسماؤها وأعمارها وأثمانها ...

ولم يكن هناك غير سلطان المغرب أبى
الحسن يقدر مكانة هذه الهواية عند أخيه
الناصر سلطان مصر ... إن أبا الحسن نفسه
من الهواة الكبار للقنص بالصقر (1) ...

٢ وما يندرج فى هدايا العدة نذكر الدروع
وخاصة منها التروس الجلدية للمطبعة المصنوعة
من جلد حيوان اللمط (2) الذى لا يخرقه سهم
ولا نبل ، والذى ظل حديث الكهافة والفرسان
فى العصور الوسطى ...

وبالإضافة إلى السروج على اختلاف

(1) د. التازى . القنص بالصقر بين المشرق والمغرب ، المطبعة العصرية - الرباط 1980 ص 91-92 أ.ب.
القاسم الفجيجى : الفريد فى تقييد الشريد وتوطيد الربيد ، تقديم وتحقيق د. عبد الهادى التازى ، مطبعة
النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1983 .

(2) اللمط ، كما نعلم ، حيوان يشبه الثور من حيث شكله ، ولكنه أصغر حجماً وقوائمه وقرونه أكثر
دقة ، ولونه يكاد يكون أبيض غير أن أظلاله سوداء فاحمة وتصنع من جلده - كما يقول ابن الوزان تروس
شديدة المقاومة لا يخرقها شيء باستثناء قذيفة عن سلاح نارى ! وتباع هذه التروس بأسعار عالية جداً .
وقد ورد فى كتاب البلدان لابن الفقيه المحدثانى : « وأهل لمطة أصحاب الدرق ينقعونها فى اللبن حولاً
مجرداً فينبو عنها السيف ، وإن قطع السيف منها شيئاً نشب السيف فى الدرقه اللمطية ليس عليها قياس . »

أنواعها ما بين ثقيل وخفيف وإلى المهاميز على اختلاف أشكالها ، وزخرفها وإلى اللجم والركب واللزمات والمهندات والرايات المغربية من التي صحبت مئآت المطايا والخيول. بالإضافة إلى ذلك نجد النص على أثاث البيت بما يتطلبه المطبخ والمغسل والمفرش والماعون ما يعرف في اللغة العربية بالخرثي^(١) وهذا اللفظ الذي يعد بنفسه لفاً من ألفاظ الحضارة :

(6) وينبغي أن نقف قليلاً عند الألقاب والوظائف التي مرت بنا ونحن نعيش مع هذا الحدث ...

ونذكر منها أمير المسلمين وملك البرين وسلطان العدوتين وحامي القبليتين وخادم الحرمين ...

كما نذكر لفظ الأرسال التي تستعملها بعض الوثائق السياسية جمعاً لكلمة رسول بمعنى السفير بين القوم ...

ونذكر لفظ « المتولى » و « ناظر الخصاص » بمعنى المشرف على النفقات الخاصة ، وقد عرفنا من هؤلاء القاضي شرف الدين الذي

يحمل لقب النشو ... والمهمندار بمعنى مدير المراسيم والتشريفات ، والقهرمان بمعنى وكيل الدخل والخرج^(١) ، هذا إلى لفظ « الفرائق » وهو يعني حامل الخرائط أى ساعى البريد ، الذى يحمل فى المغرب اسم « الرقاص » أخذاً من أصل اللفظ العربى لكلمة الرقص : قال حسان :

بزجاجة رقصت بما فى قعرها

رقص القلاوص براكب مستعجل

(7) ولا بد من التنصيص هنا على تلك المبالغ الهامة من الدنانير التي خملتها الوفادة المغربية إلى الديار المشرقية ... والسؤال عن طريقة صرفها فى تلك الجهات ؟

وهنا نذكر أن دنانير بنى مرين كانت نسخة طبق الأصل من الدينار المرابطى الذى طبقت شهرته الآفاق من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، والذى كان فى عصره عملة دولية على نحو ما نسمعه اليوم عن الدولار الأمريكى وقد دخل الدينار المرابطى القاموس اللاتينى وأصبحنا نسمع عن (AL-MARAVEDI) ...

(1) الصابى : كتاب الوزراء - ابن خلدون : 7 ، 551 دكتور عبد المنعم منجد . نظم دولة سلاطين الماليك ورسوم مصر 1967 . مكتبة الأنجلو المصرية دكتور حسن الباشا . الألقاب الإسلامية من التاريخ والوثائق والآثار 1978 دار النهضة المصرية .

ذلك الدينار المرابطى هو الذى احتفظ به المغرب أيام بنى مرين ، وقد قرأنا فى كتب التاريخ المغربى الأندلسى عن إعانة السلطان أبى يوسف يعقوب (تـ 684 = 1285) للعاقل الإشبانى بمبلغ مهم من الدينار « المرابطى » ...

وهكذا فإن الدنانير سواء منها الذهبية أو الفضية كانت تحمل معها قيمتها أينما توجهت ، وقد ضربت على أساس سليم ودقيق صدر به الأمر فى جميع دور السكة الموجودة آنذاك فى القواعد المغربية الكبرى : فاس ، سبتة ، مراكش وسجلماسة (1) ...

(8) أما عن عدد الشخصيات المغربية التى رافقت الأميرة مريم ... فإنه يفوق العدد ، وإنه ما يزال علينا أن نعرف عن المزيد ممن لم نقف لهم على ذكر إلى الآن وأعتقد أن هؤلاء كثير وكثير فقد دأبت العادة فى مثل هذه المناسبات أن لا يذكر جميع المرافقين لأسبابه أمنية ولأغراض يقتضيها عدم إثارة الحساسيات أو الرغبة فى التستر على بعض ذوات الحجاب .

ومع ذلك فسنذكر ما وصلنا من أسماء هؤلاء مرتبة حسبها مبلغ الأغلفة التى توصلوا بها ولو أننا نعرفه سلفاً عن الرصيد العلمى لبعض من

زحلقهم تلك المبالغ عن رتبهم ممن استحقوا عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يقدموا على غيرهم فى الخطاب الذى بعث به للسلطان أبى الحسن المرينى :

وهكذا يأتى الترتيب بعد ذكر الأميرة هكذا :

(1) عريف السويدي (1000 دينار) :

نقلاً أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي أمير بنى زغبة من عرب بنى هلال كان قد قدم على السلطان أبى سعيد والد السلطان أبى الحسن فأحياه أعلى رتبة واتخذاه جليساً وأخيراً ، ولما جلس أبو الحسن على كرسي الحكم عنه حاجباً له ومن خواصه وأهل سفارته ، سافر عنه إلى المشرق فى هذا الركب ثم سافر عنه لتونس عام 746 = 1345 - 46 فى خطبة بنت الملك الحفصى أبى يحيى السلطان أبى الحسن نفسه ... كان وافر العقل مشاركاً فى العلم والأدب والتاريخ ، توفى بمدينة سلا ودفن إلى جانب السلطان أبى الحسن بشالة عام 755 = 1354

(2) أبو محمد عبد الله بن القاسم المزوار ، المدعو (عبو) (400 دينار) .

(3) الحسن ابن عمران ، المدعو حسون (400 دينار)

(1) أبو الحسن على بن يوسف الحكيم الكومى المديونى : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة اقتضب من الروضة الغضة فى معركة أحكام الذهب والنضة .

(4) أحمد بن يوسف بن أبي محمد بن صالح

نعت في ابن مرزوق بشيخ الركب ولم يتذكر المبلغ الذي دفع له .. فافترضت أنه كأمير الركب ...

(5) إبراهيم التازي (300 دينار) :

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زيد عبد الرحمن ابن أبي بكر بن أبي يحيى التسولي التازي ثم الفاسي ويكنى أيضاً أبا سالم ويعرف بابن أبي يحيى ، الفقيه القاضي من صدور المغرب ، له مشاركة في العلم وتبحر في الفقه ، وله مركز مرموق عند الملوك ، صحبهم وحضر مجالسهم واستعملوه في السفارة عنهم لاندلس وبلاد المشرق ... كان مليح المجالسة أنيق المحاضرة ، جميل الصورة ، نبيه الشارة ، فاره المركب ، قائم على تدريس التهذيب والرسالة القيروانية وتقييده عليها ... مرض بفاس ونقل إلى داره من تازي بلده فتوفي بها في حدود 749=1348 .

(6) عطية بن مهلهل بن يحيى (300) .

(7) سليمان بن أبي بكر العسكري (150) .

(8) أبو سعيد عثمان بن سليمان من أولاد

حمامة (150) .

(9) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن

سيد الناس (100 دينار) (1) .

(10) يوسف ابن عيلة المدعو يشو (60

دينار) .

(11) عبد الرحمن بن القاضي المليل

(50 ديناراً) .

(12) ابن خيلة (50 ديناراً)

(13) أبو الفضل أو أبو المجد بن أبي

عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني وسماه ابن خلدون صاحب ديوان الخراج وكاتب الحباية والعساكر ... ووصفه في تكبير العمال لصاحب القلم الأعلى ... كتب العلامة للسلطان أبي الحسن ... سفر لدى هذا السلطان الناصر هذه المرة مرة أخرى لدى ابنه السلطان أبي الفداء إسماعيل عام 745 كما سفر عنه لتونس عام 745 مع عريف السويدي لخطبة الأيرانية الحنصية للسلطان أبي الحسن .. ولم يذكره ابن مرزوق - كما أسلفنا - فلم نعرف مبلغ الخلاف الذي تسلمه والذي يظهر أنه كان غلاماً ثقيلاً كذلك !

وهكذا فنحن أمام زهاء مائة وخمسة عشر

لفظاً حضارياً أمكن تقصيصها في هذه المجموعة

(1) يعرف عن ابن سيد الناس أنه راح في معية اطرابلس عام 755 هـ من لدن السلطان أبي عنان .

المحدودة من الوثائق التي تتعلق بسفارة واحدة
وردت من المغرب على المشرق نذكرها مرتبة
على حسب الحروف الهجائية :

الأبنوس

الإحرام ج أحرام

الأديم

الأردب

أمير المسلمين

إصطبل

إيوان ج أووين

الباز ج بزا

برج ج أبراج

برنس ج برانس

برقع ج براقع

بنيقة ج بنائق

البشماط

البازيار - البياز

التجفاف : الدرع

الترس ج تروس

تمثال ج تماثيل

التوابل

الخليجل

جهاز ج جهازات

جوهر ج جواهر

حامي القبليتين ؟

الحايطي ج حياطي

الحباك ج حباك

الحبيحة

حبس - وقف

الحررة .

الحوير

الحنبل

الحياصة : الخزام

خادم الحرمين

الخزني .

الخلاص ج خلاص

الخلعة ج خلع

الخيمة .

الدرع

الدرق

الدرهم

الديباج

الدينار (المرابطي)

الراية ج رايات .

الربعة ج ربعات .

الردهة .

الركاب ج ركب ...

الرصان : نوع من القماش

الرقاص : ساعى البريد

رسول ج أرسال

زاد ج أزودة

زبرجد ج زبارج

زمرد

طنفسة ج طنافس

الضوئية

الضياع ج ضيعة .

العساج

العرض — استعرض

العلم ج أعلام

غلاف ج أغلفة

غشاء ج أغشية

الفرائق

القدود

القطار

قضيب ج قضب

قفاز

قهрман ج قهارمة

الكاغد

الكبر ج أكبار : ذروة

الكتان

الكلّة ج كلل

كساء — كسوة

الفانوس ج فانوسات

فرّق : وزع

فروش الجلد .

الفضالى : نوع من الثياب .

الفسطاط ج فساطيط .

الاجام ج لحم

المحاف ج لحف .

الازمة ج لزمات

اللؤلؤ

المتزيدات

المتولى

الحجم

المحورات

الحمل

المخفف .

المخدة ج مخاد

المزوار : النقيب .

ملكة البرين

الملف (الخوخ) :

المنقلة ج مناقل .

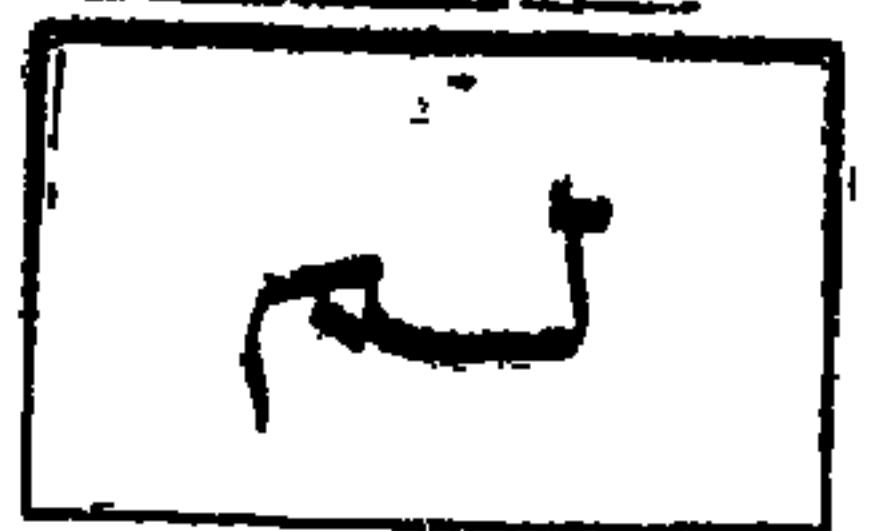
المضمة	سرج ج سروج
المشرف	سلطان العدوئين
المشقف	السقاء ج سقائين
المهماز ج مهماميز	سلاهام : (ZULAM)
المهندات	سلييل ج أسلة
المهمندار	شاشية ج شواشي
الميدان	الشريط ج شرائط
ناظر الخصاص	الشقة ج شقق
الناموسية	الوراق ج وراقين
نهود الدرع ...	الوكر
الصندل	الوصيف : الخادم .
الصقر	الوقايات : البراقع .
الصوان ج أصونة	الياقوت

ولكنها تعدت ذلك إلى إثراء المعاجم الأوربية
بطائفة من المفردات التي تستعمل اليوم على
الصعيد السياسي وفي المجال العلمي كذلك .

إنني على مثل اليقين من أن تتبع مثل هذه
الوثائق الدبلوماسية من شأنه أن يعرفنا على
المزيد من الكلمات التي ابتكرتها عبقرية أسلافنا
والتي لم تقتصر فائدتها على المعجم العربي فحسب

عبد الهادي التازي
عضو المجمع المراسل من المغرب

مدخل إلى الألفاظ الإسبانية المنحولة من العربية للكاتب محمود مكي



تنقطع الصلات أبداً

بين شبه جزيرة إيبيريا

(إسبانيا والبرتغال الآن) وبين الشعوب الأفريقية والآسيوية، فقد تعرضت هذه البلاد لهجرات كثيرة قادمة من بلاد الشرق ومن شمال أفريقيا على نحو مستمر منذ فجر التاريخ. ولعل أهم هذه الهجرات في العصور القديمة هي تلك التي مثلها التوسع الفينيقي في نحو سنة ١٠٠٠ (ق. م.)، فقد امتد هذا التوسع من سواحل بلاد الشام على طول الشمال الإفريقي حيث أقام الفينيقيون العديد من المراكز التجارية، ثم واصلوا امتدادهم إلى سواحل إسبانيا الجنوبية، فأنشأوا مدناً كان لها ازدهار عظيم استمر حتى اليوم عبر الحضارات المتعاقبة. على أن التأثير اللغوي الفينيقي لا يكاد يلحظ اليوم إلا في أسماء بعض المدن التي قاموا بإنشائها، ونذكر من بينها قادس Cádiz (وكان اسمها القديم

Gadir - من الأصل السامي ^١ق د ر لأن معناها المدينة القادرة أو القوية المحصنة) ومدينة مالقة Málaga (وكان اسمها Malaca - من الأصل السامي م ل ك لأنها كانت تعني «المدينة الملكية»، ولهذا فقد ترجم الرومان هذا الاسم ترجمة حرفية حينما أطلقوا عليها لفظ Reggion المشتق من Rex أي الملك).

واستمرت حضارة الفينيقيين على أرض شبه الجزيرة أكثر من أربعة قرون، فلما ضعف أمرهم وفدت على شبه الجزيرة موجة قادمة من بلاد الشرق أيضاً، ولكنها أتت من بلاد الإغريق. ثم عادت تطرق أبواب البلاد هجرة جديدة ذات أصول سامية وإن كان منطلقها من شمال أفريقيا، ونعني بها القرطاجيين القادمين من إفريقية (تونس)، والقرطاجيون هم من سلالة الفينيقيين، وقد اعتبروا أنفسهم

* أتى في الجلسة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ١٢ من مارس (آذار)

ورثة هؤلاء منذ سقطت حاضرة دولتهم صور في أيدي الأشروريين ، واستطاعوا الاستيلاء على جزيرة سردينيا ثم على جزر البليار منذ أواخر القرن السادس (ق . م .) ومنها نفذوا إلى أرض شبه الجزيرة ومدوا سلطانهم على شرقي البلاد وجنوبها ، وظلوا يحكمون هذه المناطق حتى نهاية ما يعرف باسم « الحروب البونية » في منتصف القرن الثاني الميلادي ، وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل الوجود السامى الإفريقي في شبه الجزيرة . على أن القرطاجيين لم يخلفوا في لغة البلاد آثاراً واضحة ، إذ أن الرومان الذين سيطروا على البلاد بعد ذلك محوا آثارهم محوا ، واستطاعوا أن ينشروا فيها لغتهم اللاتينية منذ احتلالهم لها حتى انحلال امبراطوريتهم في أوائل القرن الخامس الميلادي . أما القوطيون الذين كانوا ينحدرون من أصول جرمانية وسيطروا على شبه الجزيرة حتى أوائل القرن الثامن فلأنهم بدورهم لم يتركوا في لغة رعاياهم إلا آثاراً قليلة جداً .

وأخيراً دخل العرب أرض شبه الجزيرة رافعين راية الإسلام في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) . واستمر وجودهم في البلاد ممثلاً في كيان سياسي حتى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . ونلاحظ أن هذا « الوجود » لم ينقطع باستيلاء المالكين الكاثوليكين على دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل الإسلام في البلاد ، بل ظل الشعب الأندلسي المسلم الذي خضع للسلطة المسيحية

يعيش في كل أنحاء شبه الجزيرة متخذاً في البداية اسم « المدجنين Mudéjares » ثم اسم « الموريسكيين Moriscos » إلى أن صدرت مراسيم طرد هؤلاء المسلمين بين سنتي ١٦٠٩ و ١٦١٤ . ومع هذه المراسيم قامت محاكم التحقيق La Inquisicion التي أنشأتها السلطات الكنسية بأبشع أعمالها الهادفة إلى محو كل أثر للثقافة الإسلامية واللغة العربية . ففضلاً عن التعذيب والاضطهاد لكل من يرتاب في كونه محتفظاً بعقيدته كانت هناك قوانين تحرم استعمال العربية وتنص على إحراق ما ألف بها من كتب . ومع ذلك فقد كانت اللغة العربية قد نفذت إلى صميم كيان اللغة الإسبانية على طول القرون السابقة ، وأصبح كثير من الكلمات والتعابير العربية جزءاً من تراث الإسبانية حتى اليوم .

ويختلف العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع في نسبة الكلمات العربية إلى مجموع مداخل المعجم الإسباني ، فمنهم المقلل والمكثر ، إذ أن هناك من يزعم أن هذه النسبة لا تتجاوز الـ ٥ ٪ وهناك من يرتفع بها إلى نحو ٢٠ ٪ وترجع أسباب هذا الاختلاف إلى عدة عوامل :

- ١ - هناك من يقتصر على اللفظ الإسباني المأخوذ من أصل عربي بغير أن يلحق به مشتقاته المختلفة وهناك من يضميف هذه المشتقات إلى الأصل .

- ٢ - هناك من يدرج جميع الألفاظ حتى ما قل استعماله أو سقط ، هناك من يقتصر على المستعمل الشائع .

٣ - هناك ألفاظ كثيرة مختلفة في أصولها الاشتقاقية ، إذ أن الرأي الأخير لم يستقر حول تلك الأصول .

٤ - من اللغويين من يستبعد الألفاظ التي يعد أصولها إغريقية أو فارسية أو تركية أو بربرية ، ومنهم من يرى أن هذه الألفاظ إنما دخلت عن طريق العربية ، فينبغي أن تدرج في الألفاظ العربية الأصول .

والذي يعترف به الجميع على كل حال هو أن اللغة العربية هي التي تلى اللاتينية في إمدادها اللغة الإسبانية بثروتها من الألفاظ ، ذلك أن الذي أخذته هذه اللغة من اللغات القديمة المختلفة أو اللغات الحديثة لا يقاس في مجموعه إلى ما أخذته من العربية . ويعد ذلك أمراً طبيعياً إذا ذكرنا أن العرب الذين دخلوا إسبانيا لم يلبثوا أن شيدوا بنياً أحضارياً استمدوا أصوله من مصادر شرقية إسلامية عربية وكان شيئاً جديداً يهر أنظار الناس في القارة الأوروبية كلها . وكان من أول من تنبه لهذه الحقيقة في أوربا القس اليسوعي الإسباني خوان أندريس في كتابه عن أصول الآداب الأوربية (المنشور أولاً بالإيطالية بين سنتي ١٧٨٢ و ١٧٩٨ ثم بالإسبانية بين ١٧٨٤ و ١٨٠٦) حينما قال إن شعوب أوربا المسيحية رأت في الأندلس شعباً ذا حضارة أرقى بكثير مما لديهم ، حيث كان رجال الكنيسة في بلاد أوربا - وهم قمة ما لديها من «ثقافة» - لا يكادون يعرفون أكثر من مبادئ التمرأة والكتابة والحساب على حين كان العالم العربي - بما فيه

الأندلس - يحتل بالعلماء من كل نوع . (انظر خطاب المستشرق الإسباني أنخل جونزالث بالنشيا Angel González Palencia في حفل استقباله في المجتمع الملكي التاريخي ، مدريد ١٩٣١ ص ٨ - ٩) . وكان من الطبيعي أن يصبح أولئك الأوربيون تلاميذ لمسلمي إسبانيا ، وما كان ذلك ليتم إلا إذا تعلموا العربية واستخدموا ألفاظها التي أصبحت ضرورة من ضرورات الحضارة . وليس من الغريب أن يصبح مسيحيو إسبانيا هم أسبق الأوربيين إلى ذلك بحكم المعاشة الطويلة للمسلمين .

ولعل من أهم ما تتمثل فيه هذه الحقيقة ذلك اللقب الذي حمله أولئك الإسبان المسيحيون وهو « المستعربون » (Mozàrabes) ، إذ أنه يصور اصطناع هذه الطائفة لثقافة العرب ولغتهم وكل مظاهر حضارتهم . ولسنا بحاجة إلى إيراد تلك العبارة المشهورة التي قالها ألبارو القرطبي Alvaro de Córdoba أحد كبار رجال الدين المسيحي والتي يشكو فيها من أن نصارى إسبانيا قد هجروا اللاتينية وأصبحوا مغرمين بالعربية حتى إن أحدهم لم يعد قادراً على كتابة خطاب لأخيه باللاتينية على حين أنه قد يجيد الكتابة بالعربية نثراً وشعراً . وربما كان خير دليل يؤكد هذه الحقيقة هو تلك المجموعة الكبيرة من الوثائق الطليطلية التي نشرها أنخل جونزالث بالنشيا في سنة ١٩٣٠ ، وتبلغ ١١٧٥ وثيقة كتبت كلها بالعربية

وكانت تتناول موضوعات مختلفة متعلقة بالمعاملات التجارية بين المستعربين المسيحيين بعضهم وبعض أو بينهم وبين مساكينهم من المسلمين واليهود . وتواريخ هذه الوثائق تتراوح بين سنتي ١٠٨٣ و ١٣٩١ م . ومما يلفت النظر أن الملك المسيحي ألفونسو السادس Alfonso VI قد انتزع طليطلة من أيدي المسلمين في سنة ٤٧٨ هـ . (١٠٨٥ م .) وبهذا فقد المسلمون سلطانهم على المدينة ، ومع ذلك فقد استمر سكانها المسيحيون يستخدمون العربية في معاملاتهم على مدى أكثر من ثلاثة قرون . وهذا وحده دليل على قوة تأثير الحضارة العربية في هذا الشعب الذي لم يرغمه أحد على استخدام العربية ، وإنما كانت حاجته إلى هذه اللغة لشعوره بأنها أكثر وفاء بمطالبه من اللاتينية هي التي حملته على ذلك .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ممن استولت عليهم خنزوانة التعصب القومي والديني أن يشكك في هذه الحقيقة . وكان من أبرز هؤلاء فرانسيسكو خافيير سيمونيت الذي تعرض لتلك القضية في كتابه عن « الألفاظ الإيبيرية والرومانية المستعملة بين المستعربين » (مدريد ١٨٨٨) وذلك في قوله : إنه إذا كان صحيحاً أن هؤلاء المستعربين قد أخذوا عن العربية « بعض الألفاظ » فإن المسلمين الأندلسيين قد أخذوا أيضاً كثيراً من الألفاظ اللاتينية عن جيرانهم ومعايشهم

من المسيحيين ، واستشهد على ذلك بما اشتملت عليه الكتب الأندلسية من إشارات إلى معرفة مسلمي الأندلس لللاتينية أو اللاتينية الدارجة (لطينية أو عجمية الأندلس) (انظر مقدمة الكتاب ص ٧٩ وما بعدها) . وهذه حقيقة أكدتها المصادر الأندلسية حقاً ، ويصورها استخدام كثير من تلك الألفاظ في ديوان الزجال ابن قزمان القرطبي وفي الخرجات العجمية للموشحات الأندلسية . غير أن هذا لا ينبغي أن يعد مطعناً على الأندلسيين الذين كانوا — شأن المسلمين في سائر الأمصار — لا يحتقرون أى مصدر من مصادر المعرفة ، ولهذا فإن ثقافتهم استوعبت كل الثقافات السابقة ، كما أن لغتهم عربت بمحصولها وافرأ من ألفاظ اللغات التي احتكوا بها . ذلك أن العربية كانت من المرونة بحيث لم تبرح أبداً آخذة معطية ، وهذه سمة من سمات اللغات الحية التي تستجيب لحاجات كل مجتمع متطور . على أن الذي أخذته العربية من اللاتينية لا يقاس بما أخذته الإسبانية منها لافي العدد ولا في أهمية الدلالة الحضارية :

عرض تاريخي للدراسات اللغوية التي تناولت التأثير العربي في الإسبانية :

ربما كان أول ما سجله المستعربون المسيحيون من مظاهر حاجتهم إلى اللغة العربية هو ظهور أول معجم لاتيني عربي كتبه

مؤلف مجهول ينتهي إلى تلك الطائفة خلال القرن العاشر الميلادي ، وهو المعجم الذي نشره فريدريك زايبولد في برلين سنة ١٩٠٠ عن مخطوطة في ليدن) :

Glossarium latino-arabicum, edidit Ch. F. S. ybold, Berolini, 1900.

وربما كان هذا هو أول معجم مشترك بين العربية وإحدى اللغات الأجنبية .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي وضع المستشرق القبطاني الراهب رايموندو مرتين كتابه « المعجم العربي » الذي اضطلع بنشره المستشرق الإيطالي إسكيا باريللي في فلورنسا سنة ١٨٧١ :

Raimundo Martin: Vocabulata in arabico, ed. C. Schiaparelli, Firenze, 1871

ثم تلاه في القرن الخامس عشر الراهب بطرس القلعي (أو بدرو دي ألكالا) Pedro de Alcalá الذي ألف في سنة ١٥٠٥ معجمه المعروف باسم Vocabulista arauigo وهو معجم على جانب كبير من الأهمية ، إذ أنه يعد وثيقة تسجل لنا اللهجة العربية الغرناطية في آخر عصور الإسلام في الأندلس ، فصلا عن كونه يمثل اللغة القشتالية القديمة وما أخذته عن العربية . وقد أعيد نشر هذا الكتاب في جوتة جن سنة ١٨٨٣ بعناية المستشرق الإنجليزي ولیم رایت :

William Wright : Petri Hispani di lingua arabica, libri duo P. de L. gardi, Göttingae, 1883.

ولدينا من الآثار الإسبانية المتعلقة بموضوع الألفاظ العربية التي اقترضها اللغة الإسبانية من العربية عدة كتب ذات أهمية بالغة .

أولها كتاب برناردو ألدريتي حول أصل اللغة الإسبانية :

Bernardo Aldrete : Del origen de la lengua castellana o romance que hoy se habla en España, 1606.

وثانيها كتاب سباستيان دي كوباروبياس « كنز اللغة القشتالية » :

Sebastián de Covarrubias y Orozco : Tesoro de la lengua castellana, Madrid, 1611.

وثالثها كتاب برناردينو جونتالث . وكان راهباً درس العربية في بلاد الشرق وأقام زمناً في دمشق ، وكتابه هذا معجم عربي إسباني انتهى من تأليفه في سنة ١٧٠٩ :

Bernardino González : Diccionario árabe-español

على أن هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً بعد لم يجد سبيله إلى النشر ، ويوجد أصله اليوم في خزانة دير الإسكوريال .

وفي القرن الثامن عشر قام الراهب الفرنسي كاني فرانسيسكو كانيس بنشر معجمه الإسباني اللاتيني العربي (مدريد ١٧٨٧) ، وكان هذا الراهب قد قضى — مثل سابقه —

سنة عشر عاماً في بلاد الشام وأتقن العربية في دمشق :

Francisco Canes : Diccionario español-latino-arábico, Madrid, 1787.

وبعد ذلك بسنوات نلتقي بشخصية خوسيه أنتونيو بانكيري الذي كان من أجل أعماله نشره وترجمته الإسبانية لكتاب « الفلاحة » لأبي زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي (وهو مؤلف عاش في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي) .

José Antonio Banqueri: Libro de Agricultura de Ibn al-Awwair, 2 vols., Madrid, 1802.

وهو كتاب له أهمية كبيرة من وجهة النظر اللغوية ، إذ أنه يحتوي على عدد كبير من المصطلحات والألفاظ المتعلقة بالفلاحة مما انتقل من العربية إلى الإسبانية . وللبانكيري كذلك دراسة لاتزال مخطوطة في المجمع التاريخي الملكي بمدريد حول تصحيح كثير من الأخطاء الشائعة بين الباحثين في اشتقاق أسماء الأعلام الجغرافية الإسبانية ذات الأصول العربية :

Discurso sobre la arbitrariedad de la mayor parte de etimologías de nombres arábigos de pueblos, vol. X.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتزايد الاهتمام بهذا الموضوع ، فنجد مجموعة طيبة من الدراسات التي يتمثل فيها التقدم العلمي الكبير الذي أحرزته الدراسات اللغوية

المقارنة . نذكر من أهمها كتاب العالم الهولندي إنجلمان حول « معجم الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المأخوذة عن العربية » (ليدن ١٨٦١) . ومن هذا الكتاب صدرت طبعة ثانية مزيّدة ومنقحة في سنة ١٨٦٩ باشتراك العالم الهولندي أيضاً راينهاردت دوزي :

A. M. Reinhardt Dozy et W. H. Engelmann : Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe, Leyde, 1869, seconde édition.

ولعل هذا الكتاب هو خير دراسة ظهرت حتى الآن للموضوع ، وإن كانت تحتاج إلى كثير من المراجعة والتحديث والإضافة والحذف وقد استفاد منها وأضاف إليها دوزي نفسه في كتابه القيم « تكملة المعجم العربية » الذي صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٢٧ في مجلدين :

R. Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols., Leyde, 1881; seconde éd. 1927.

وقد قام بترجمة المجلد الأول من هذه « التكملة » الباحث العراقي المغفور له الدكتور محمد سليم النعمي ، وصدرت ترجمته في خمسة مجلدات في بغداد ما بين سنتي ١٩٧٨ و١٩٨٢ وبعد ذلك بسنوات قليلة أصدر المستشرق الإسباني ليوبولدو إيجيلاث يانجواس كتابه « معجم اشتقاقى للألفاظ الإسبانية ذات الأصول الشرقية » :

Leopoldo Eguilaz y Yanguas : Glosario etimológico de las palabras españolas de origen oriental, Madrid, 1886.

وفي هذا الكتاب يحاول المؤلف من منطلق قومي وديني شديد التعصب أن يفند آراء دوزي وإيجلمان حول ما أكده من تفوق حضارة العرب الأندلسيين على حضارة إسبانيا المسيحية ويشاطره في هذا الرأي زميله وصديقه فرانسيسكو خافيير سيمونيت الذي ألف كتابين لهما قيمة كبيرة لما حشد فيهما من معلومات ووثائق كثيرة جديدة ، وإن كانت آراؤه منبعثة من عصبية ذميمة كارهة أشد الكراهة للعرب والمسلمين . أما هذان الكتابان فهما : « معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين » .

Francisco Javier Simonet : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1888.

ثم كتابه عن تاريخ المستعربين في إسبانيا :

F.J. Simonet : Historia de los mozárabes de España , Madrid, 1897 - 1903.

ويسبب تلك العصبية جانب الصواب كثيراً من آراء هذين العالمين الإسبانيين .

ونشير بعد ذلك إلى دراسة العالم الإسباني رامون منندث بيدال حول « أصول اللغة الإسبانية » الذي ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٦ ثم توالى طبعاته مع مراجعات وزيادات حتى الطبعة الثالثة الصادرة سنة ١٩٥٠ ، وهو وإن كان يسلم بتأثير العربية الكبير في

الإسبانية فإنه لم يسلم من شوائب ذلك التعصب الذي ميز عمل سلفيه : يانجواس وسيمونيت :
Ramón Menéndez Pidal : Orígenes del español, 3a ed., Madrid, 1950.

وفي سنة ١٩٣٢ أصدر المستشرق السويسري أرنالد شتايجر دراسة عظيمة القيمة حول « صوتيات اللغة الأندلسية (الإسبانية العربية) ومظاهر التأثير العربي في اللغة الإيبيرية الرومانية وفي اللغة الصقلية » :

Arnald Steiger : Contribución a la fonética del hispano árabe y de los arabismos en el ibero-románico y el siciliano, Madrid, 1932.

وهي دراسة صوتية في المقام الأول قام بها عالم محقق واسع المعرفة مستقيم المنهج .

وقد تعددت بعد ذلك الدراسات الجزئية التي قام بها جيل جديد من علماء اللغة الأوربيين والإسبان بصفة خاصة حول ظواهر لغوية مختلفة مما يدخل في ميدان التأثير العربي في اللغة الإسبانية ، والملاحظ هو أن هؤلاء العلماء قد بعدوا كثيراً عن نزعات التعصب التي سادت دراسات الباحثين السابقة خلال القرن التاسع عشر وشرط من القرن العشرين . وتمثل هذه الدراسات الحديثة التي تمت خلال السنوات الثلاثين الماضية تقدماً هائلاً في هذا الميدان ، لاسيما بعد أن نشرت نصوص ووثائق أندلسية كثيرة لم تكن في متناول الباحثين السابقين . ويكفي أن نشير هنا إلى

عالم إسباني معاصر يعد الآن - وهو لم يجاوز بعد طور الشباب - أعظم من يعملون في الميدان اللغوي الإسباني العربي ، ونعني به فيديريكو كورينتي كوردوبا الذي قدم للمكتبة اللغوية عدداً هائلاً من الدراسات المختلفة كان من آخرها كتابه المؤلف بالإنجليزية « دراسة تخطيطية نحوية لمجموعة اللهجات الإسبانية العربية » :

Federico Corrientc Córdoba : A Grammatical Sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle, Madrid, 1977.

وقد استطاع هذا المؤلف في عديد من أبحاثه ومقالاته أن يستدرك أشياء كثيرة على المعجم الاشتقاقي الذي أصدره المجمع الملكي للغة الإسبانية فيما يتعلق بالأصول العربية لعدد من الألفاظ الإسبانية .

ملاحظات حول الألفاظ الإسبانية

ذات الأصول العربية

١ - في المجالات الدلالية :

لا يمكن نفي أو مجال دلالي من التأثير الواضح للغة العربية . وسنشير هنا في إيجاز إلى بعض هذه المجالات التي يبرز فيها هذا التأثير :

في مجال الحروب والمعارك وأدوات الحروب :

الصائفة aceifa (الحملة الصيفية التي كان المسلمون يجردونها على الإمارات المسيحية المجاورة) ، الغارة algara ؛ الدليل adalid (الذي يرافق الحملات ليكون دليلاً للجيش

على أمن الدروب والمسالك) ؛ الطلائع atalaya (مقدمة الجيش) ؛ zaga ساق (مؤخرة الجيش) ؛ alfanje الخنجر ؛ adarga الدرق ؛ aljaba الجعبة (كنانة السهام) ؛ almôfar المغفر (الخوذة التي تحمي رأس المحارب) ؛ alcazaba القصبية (أكثر أجزاء المدينة أو القلعة حصانة) ؛ alcala القلعة ؛ aldarve الدرب (من معانيه الشعب في الجبل ، والساتر الذي يحمي به رماة السهام من أعلى القلعة) ؛ rebato (المواقع المحصنة التي يقيم فيها المجاهدون للعبادة وقتال الأعداء في الوقت نفسه) ؛ atambor الطنبور (الطبل الكبير الذي يستخدمه الجيش في زحفه) ؛ atabal ؛ النفير añafil ؛ البوق albugue ؛ الفارس alférez ؛ زناقي jincte (الفارس المحيد لفنون الفروسية تشبيهاً له بفارسان زناتة : القبيلة البربرية المشهورة) ؛ الشكات acicate (المهماز الذي يؤخذ به الفرس لحمله على الإسراع) ؛ الفرس alfaraz ؛ الزاملة acémila (البغل أو الدابة التي تحمل أثقال المحاربين أو أزوادهم) ؛ جهاز jaéz (ما يوضع على أعناق الخيل وظهرها من حلية وزينة) ؛ البرذعة albarda ؛ شكيمة jàquima (الحديدية التي تجعل في حنك الفرس) ؛ الثفر ataharre (السير الذي في مؤخر السرج ويشد تحت ذنب الدابة) .

في مجال الفلاحة والزراعة :

كان مسلمو الأندلس على جانب عظيم من المهارة والخبرة بكل ما يتصل بالنشاط الزراعي من رى وفلاحة واستنبات لأنواع مولدة من الغروس والثمار ، وتشهد بذلك الألفاظ المتعلقة بالمياه والرى مما دخل إلى الإسبانية مثل : الساقية *acequia* ؛ الحب *algabe* (البئر) ؛ البركة *alberca* ، البحيرة *albufeira* ؛ السد *azud* ؛ ناعورة *noria* ؛ القادوس *arcaduz* ؛ والألفاظ الخاصة بالمجتمعات الزراعية والريف لمثل القرية *alqueria* ؛ الضيعة *aldea* ؛ المنية *almunia* (البستان أو المزرعة) ؛ المرج *almarcha* ؛ البقاع *vega* (المواضع ذات الماء والشجر) ؛ والألفاظ المتعلقة بالخضراوات والبقول والثمار مثل : اللوبيا *alubia* ؛ الخرشوف *alcachofa* ؛ السلق *acelga* ؛ الحلبة *alholva* ؛ الزعفران *azafrán* ؛ الإسفنايرية *zanahoria* (الجزر) ؛ باذنجان *berenjena* ؛ الخروب *ajonjolí* ؛ الحليجان *algarroba* (السمسم) ؛ الزيتون *acettuna* ؛ الزبيب *acabibe* ؛ البرقوق *albaricoque* ؛ الدراق *durazno* (الخوخ) ؛ النمرسك *alberchigo* (نوع من الخوخ) ؛ *zafari* سفرى (نوع من الرمان ينسب إلى مدخله في الأندلس : سفر بن عبيد الكلابي) ؛ الففوس *alficoz* ؛ الفستق *alfostigo* ؛ الحنشاء *alheña* ؛ الترمس *altramuz* ؛

الرز *arroz* ؛ زنجبيل *gengibre* ؛ القطن *algodon* ؛ والألفاظ الخاصة بالأزهار مثل الريحان *arriayán* ؛ الزهر *azahar* (وتطلق خاصة على أزهار البرتقال) الدفلى *adelfa* ؛ السوسن *azucena* ؛ الخيري *alheli* ؛ ياسمين *jazmin* ؛ الخزامى *alhucma* ، الحبق *albahaca* وما يتعلق بالشجر وأنواع النبات مثل الأرز *alerce* ؛ والزنبج *acebuche* (وهو الزيتون البري) ؛ الكافور *alcáfor*

في مجال العمل والصناعة والتجارة :

طريجة *tarea* ؛ طراز *tiraz* ؛ الترصيع *ataracca* ؛ التوشية *ataujia* ؛ التوريق *ataurique* ؛ دار الصناعة *atarazana* ، الخياط *alfayate* رقم *reccamar* ؛ الفخار *alfarero* ؛ البهاء *albañil* ؛ الجوهر *aljofar* الأقراط *arracadas* ؛ عظم الفيل *marfil* (العاج) ؛ بركان *barragán* (نوع من الصوف لا ينفذ منه الماء) ؛ سوق *zoco* ؛ الأسعار *arancel* ؛ تعريفة *tarifa* ؛ الديوان *aduana* (مصلحة الجمارك) ؛ المخزن *almacén* (المتجر) ؛ الكراء *alquiler* ؛ المناداة *almoceda* (يقصد به البيع بالمراد العلني) ؛ ركوبة *reccua* (قافلة الدواب التي تحمل عليها أثقال التجار وبضائعهم) ؛ الحمال *alhamel* .

في مجال سك النقود والأوزان والمقاييس :

سكة ceca (دار ضرب النقود) ؛
مرابطى maravedi (عملة كانت من ضرب
أمراء المرابطين) ؛ قنطار quintal ؛
الربع arroba ؛ الثمن azumbre ؛
الرطل arrelde ؛ مثقال m tical ؛
الدرهم adarme ؛ فرسخ parasanga ؛
فنيق fanega ؛ المد almud ؛ قنمير cahiz
الخرج alforja .

في مجال النظم والوظائف والحرف :

القاضى alcalde (ويطلق الآن على عمدة ،
المدينة أو المحافظ) ؛ القائد alcaide ؛
المقدم almocadén ؛ المحتسب almoxarife ؛
المشرف alguacil ؛ الوزير almozarife ؛
صاحب المدينة zabalmedince ، صاحب
الشرطة zabaxorta ، صاحب السوق
zabaceca ، صاحب السكة zabazoque
الأمين alamin ، العريف alarife ،
الفخار alfarero ، bonil الحمال alhamel ،
الخياط alfayate ، الحجام alfaceme ،
البيطار albeitar

في العمارة والبناء :

القصر alcazar ، القصبة alcazaba ،
الزققة azoquca ، الدرب adarve ،
الرباط rebato ، الرابطة rábita ،
المحصن almazán ، (البرج) البرانى

albarana (torre) ، البناء albañil
الزليج azuleja ، اسطوان zaguan ، القبة
alcoba ، مقربصات mocarabes ،
التوريق 'ataurique ، الطوب adobe
الشماس ajimez (أى المشربية) ، الفخار alfar

في الأثاث والأدوات :

الشوار ajuar ، الخمرة alfombra (أى
البساط) ، المخاة almohada ، اللحاف alifafe
السطل acetre ، البرادة albarrada ،
الغرافة algarrafa ، الكوز alcuza
المهراس almirez ، السفط azafate
الطبق atabaque

في الطعام والشراب :

الرز arroz ، السكر azúcar ، الرب
arrope ، المُنْجَبَّة almojabana ، الحشو
alfajor (نوع من الحلوى) ،
البورانية alboronia ، السكباج escabeche
الفانيل alfeñique ، البندقة albondiga

في الموسيقى والغناء :

الدف adufe ، البوق albogu ، الطنبور
atambor ، الطبل atabal ، النفير
añafil ، العود laúd ، الشبابة xabea
زمرة zambra ، رباب rabel ، الله
(صيحة الإعجاب) olé

في الألوان :

اللازورد azul ، النيل añil ، القرمزي

carmesi ، المغرة almagre ،

الخلوقي aloque ، الزاج (الزرقة الداكنة)

aceche ، الزيتوني aceituni ،

في الملابس :

الجبة aljuba ، السراويل zaragüellos

السباط zapato ، الكساء alquiccl ،

البرنس albornoz ، البلغة alpargata

كوفية cofia

في العطور والأفادية :

المسك almizcle ، الغالية algelia ،

الكافور alcanfor ، المصطكي almáciga ،

في الطيور والحيوانات والحشرات :

الذيب adive ، رأس (الماشية) res

ثور toro ، الزاملة acémila ، (خنزير)

جبلي jabali ، صقور sacre ، القطامي

alcotán ، لبلي nebli (نوع من

الصقور ينسب إلى منطقة لبلة في

الجنوب الغربي للاندلس) الغطاس alcatraz

الكروان alcaraván ، العقرب alcacrán

زرزور zorzal

في ألعاب التسلية والصيد :

الشطرنج ajedrez ، الزهر azar ،

شبكة jabega ، المزرقة almadraba ، مسخرة

máscara ، مهرج moharrece ، mamarracho

ملاحظات حول الألفاظ الإسبانية

ذات الأصل العربي

١ - من الناحية الصوتية :

الحروف الحلقية : وأولها العين والحاء

وكانتا تمثلان صعوبة كبيرة بالنسبة للمتكلمين

باللغة الإسبانية كما هو الشأن لدى سائر

الأوروبيين . ومن النادر أن ينطقهما أجنبي

عن اللغة بصورة صحيحة كما يقرر الدكتور

بشر في كتابه « علم الأصوات » . وقد سجل

العالم الأندلسي الكبير ابن حزم القرطبي ذلك

من قبل في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام »

(٣١ / ١ - ٣٢) إذ قال : « وإذا تعرب

الحليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول ميمداً

أراد أن يقول محمداً » . ويكرر بدرو القلعي

هذه الملاحظة إذ يقول إن العين صوت

يصعب نطقه جداً على غير العرب ، هذا

وإن كان يشير إلى قربها من الغين . وهذا

هو ما يفسر اختفاء العين من الغالبية العظمى

من الألفاظ الإسبانية المأخوذة من ألفاظ

عربية توجاه فيها العين .

فمن الألفاظ التي تبدأ بالعين :

عرق السوس oro7u

العرض alarde

العقرب alcacrán

العود laúd

ومن التي توجد العين في وسطها :

الزعفران azafràn

القليعة alcolea

مستعرب mozarabe

ومن التي توجد العين في آخرها :

الترصيع ataracea ؛ الرُّبْع

arroba ؛ القناع (خمار المرأة) alquinal

مشمع mojama (قد يد من لحم الأتون
أى التونة)

أما الخاء فانها تحولت إلى هاء (تصديقا
لما ذكره ابن حزم) ولكن الهاء في تطور
صوتى للغة الإسبانية أصبحت الآن تكتب
ولا تنطق .

ونرى أمثلة لها فيما يلى :

في بداية الكلمة : الحركة alharaca ،

حرة horra (المرأة الشريفة أو غير

الامة) الحاجة alhaja ، حتى hasta ،

الحمة alhama ، الحنا alheña

وأحيانا تحولت إلى كاف كما نرى في

حراقة carraca (سفينة كبيرة للنقل وقد

تستخدم في الحرب)

في الوسط : كحل alcohol ، طاحونة

atahona ، الملحفة almalafa سَطِيحَة

azotea ، الخفاف alifafa الريحان arrayàn

في النهاية : قلعة رباح Calatrava

الخاء :

كثيرون ممن يستمعون إلى اللغة الإسبانية
اليوم فيجدون حرف الخاء يتردد فيها
بكثرة وهو حرف يصعب نطقه على كثير
من الأوربيين (إذ لا يكاد يوجد إلا في
الألمانية واليونانية والروسية) يعتقدون أنه
دخل إلى هذه اللغة بفضل العربية ، غير أن
ذلك عار تماما عن الصحة . فقد كان من
المفارقات الغريبة أن اللغة القشتالية وما كان
يضطرب حولها في شبه الجزيرة من اللهجات
الإسبانية مع اقتراضها لكثير من الألفاظ
العربية لم تستطع أبداً أن تستوعب حرف
الخاء وتنطق به طوال معاشتها للعربية
على مدى قرون طوال . فظلت اللغة
القشتالية أو الإسبانية ولهجاتها المختلفة مستعصية

على الخاء حتى القرن السادس عشر حينما
ولى عرش إسبانيا الأمبراطور الألماني الأصل
كارلوس الخامس (شارلكان) بالنسبة
لألمانيا وهو الأول بالنسبة لإسبانيا
(وقد امتد حكمه بين سنتي ١٥١٧ و ١٥٥٨)
وفي ظله اتسعت الأمبراطورية الإسبانية
حتى أصبحت أقوى دول أوروبا وأوسعها
رقعة ، وفي عهده انثال عدد كبير من الألمان
إلى إسبانيا وكان هو نفسه لا يحسن الكلام
بالإسبانية بل كان يرتضخ فيها لكنة جرمانية .
ومن هنا تسرب إلى لغة إسبانيا صوت الخاء
فأصبح ينطق به حرف الـ z حيثما ورد وحرف الـ g
أيضا إذا تلاها أحد الحرفين اللينين :

الـ i أو الـ e أما الألفاظ العربية التي اشتملت على الخاء - وكانت قد دخلت اللغة الإسبانية قبل ذلك التاريخ - فإنها استبدلت بالخاء صوتاً آخر كما نرى في هذه الأمثلة في بداية الكلمة: خص choza (أى كوخ)، خليفة califa، الخرج alforja (ونلاحظ في هذه الكلمة أن الخاء قد تحولت إلى هاء h ثم إلى فاء f) وكان هناك في الإسبانية خلط بين الهاء والفاء وهى ظاهرة لا نرى الآن موضعاً لشرحها). أما الجيم فقد كانت تنطق قريبة من الجيم المعطشة مثل الجيم الشامية أى چ وهى الحرف المقابل للـ z ومع التحول الذى أشرنا إليه فى نطق هذا الحرف منذ القرن السادس عشر تحولت إلى خاء).

الخرشوف alcarchofa

الخروب algarroba

وحيثما تأتى الخاء فى وسط الكلمة تفقد أيضاً خاصيتها الصوتية العربية وتتحول إلى هاء لا تنطق مثل سخيئة (نوع من الحساء الذى يضاف إليه الدقيق) zahinas

وتتحول الخاء أحياناً إلى كاف فى آخر الكلمة مثل إسفيناخ espinaca وشيخ jé que

الضاد :

حينما تأتى الضاد فى أول الكلمة تتحول إلى دال مثل daifa ضيفة . ولو أن معناها تحول إلى دلالة سيئة إذهى بمعنى الخليفة ؛ الضفيرة adefera (ولكن ليست بمعنى ضفيرة الشعر ، وإنما أصبحت تدل على الزخارف المصفرة التى تستخدم فيها بلاطات الزليج الملونة (أى القيشانى) بشكل مخصوص) ؛ الضبة aldaba وهى تدل على كلمة من الحديد أو الخشب تعلق على الباب لكى يستخدمها الطارق ؛

الضيعة aldeia

ويلاحظ فى هذين اللفظين أن الضاد قد سبقها لام مما يدل على أن نطق الضاد كان شبيهاً بنطق اللام (كما شرح ذلك الدكتور كمال بشرى كتابه عن الأصوات) .

وإذا أتت الضاد فى وسط الكلمة فقد تتحول إلى دال أيضاً كما ترى فى الغيضة algaida (بمعنى الغابة) ؛ روضة rauda وتستخدم بمعنى المقبرة

أما فى آخر الكلمة فإنها تأتى غالباً مسبقة باللام المفخمة مثل

القاضى alcalde ؛ البيضا albelda

البياض albaya ؛ الربض arrabal وفى هذه الكلمة الأخيرة اختصرت الكلمة فحذف المقطع الأخير فأصبحت arrabal أى أن الضاد تحولت إلى لام فقط .

وظاهرة إضافة اللام إلى الضاد تظهر أيضا في الكلمات التي تشتمل على الطاء ^ط، كما نرى في لفظ الطبق *altabaque* أى الصحيفة الكبيرة ولكنها لا تضاف إلى الضاد إذا سبقها حرف الراء مثل العرض *alarde* (وتطلق على الاستعراض العسكري أو ما يشبه ذلك مجازاً).

التغيرات الدلالية :

تعرض الألفاظ خلال سيرة اللغة إلى تغيرات دلالية فقد تتجه الدلالة إلى اتساع أو إلى الضيق ، وقد تتخذ دلالات أسمى مما كانت عليه في الأصل ، وقد يحدث عكس ذلك فتتخذ اتجاهها متدنياً (أو ما يسمى باللغات الأوربية *degradation*) فنحن نرى مثلاً لفظ الحاجة *alhaja* الذي كان يدل على أى شيء يحتاج إليه ثم تحول في الإسبانية الحالية إلى التحفة القيمة أو الحلية الفاخرة .

على حين نجد لفظ الوزير *alguacil* الذي كان يدل على هذا المنصب الكبير قد أصبح في الإسبانية الحالية يدل على وظيفة متواضعة تعادل دلالة فرّاش (ويمكن المقارنة بين هذا اللفظ ولفظ « الحاجب » العربى) على أن هذا التطور على ما يبدو كان قديماً أيام حكم المسلمين للأندلس فإن منصب الوزير كان قد تدنى منذ سقوط الخلافة

الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجرى وقيام دول الطوائف حتى إن أحد الشعراء خاطب وزيراً من وزراء ذلك الزمن بقوله :

هيبك كما تدعى وزيراً
وزير من أنت يا وزير
والله ما للأمير معنى
فكيف من وزّر الأمير

والأمثلة على هذه التغيرات الدلالية كثيرة ويسمى بعضها بعض اللغويين الشف *Calco* : وهناك لون من التأثيرات العربية التي نستخدم على تسميتها بالخفية أو المستورة وتعنى بها ما ترجمته اللغة الأسبانية ترجمة واضحة عن العربية ونضرب عليها أمثلة من بعض الألفاظ والتعابير التي لا نجد لها مثيلاً في اللغات الأوربية الأخرى :

تستخدم الإسبانية تعبير *tomaron en hablar* أى أخذوا في الحديث وهو ترجمة حرفية عن العربية :

وكذلك « رجل ذو حياء » *un hombre de vergüenza* وذلك في مقام المديح ، ولو قيل مقابله في الإنجليزية أو الإيطالية أو الفرنسية *Un uomo di vergogna* لكان أشبه بالذم ، *un homme de honté*

ومنه *de buena sombra* (خفيف الظل) وعكسه *de mala sombra* (ثقيل الظل) :

وهناك ظواهر نحوية يبدو فيها تأثير
الأسبانية بالنسق النحوي المتبع في العربية
فكثيراً ما نجد الجملة الأسبانية تبدأ بالفعل
قبل الفاعل وهي ظاهرة لا نجدها في اللغات
الأوروبية الأخرى

وهناك صيغ مسكوكة تبدو منقولة عن
العربية :

كالخمار يحمل أسفاراً

como un asno cargado de libros

وهو ترجمة للتعبير القرآني وقد صيغ من
قبل شعراً في بيت كان العالم القرطبي الطنبلي
يتمثل به وهو :

زوامل للأشعار لا علم عندهم

بما حملوا إلا كعلم الأباعر

أو مظلم كجوف الخمار
oscura como boca de asno وهو تعبيراً استخداماً سرفانتيس

في رواية دون كيخوتي : ويبدو منقولاً
عن البيت المنسوب لامرئ القيس :
ووادٍ كجوف العير قفر قطعت
به الذئب يعوى كالخليع المعيّل

وبعد فهذا ليس إلا قليلاً من كثير مما
تدين به اللغة الأسبانية للغة العربية وعليها
أن نذكر أن الأسبانية كما كانت معبراً للثقافة
العربية إلى أوروبا فقد كانت معبراً لكثير من
هذه الرواسب العربية إلى اللغة المتكلمة في
العالم الجديد عالم أمريكا اللاتينية . ومع اللغة
حملت الأسبانية كثيراً من التأثيرات العربية
في الفكر وفي الأدب وفي الفن :

هي صفحة مشرقة من تاريخنا اللغوي
والثقافي الذي ما زال بحاجة إلى تجلية وبيان
وهو عمل يتطلب تكاتف أجيال من الباحثين .

د. محمود مكي

مضو المجمع

إحياءات بديع الزمان لابن شهيد في التوابع والزوابع للككتور شوقي ضيف

بديع

الزمان هو أحمد

ابن الحسين أصله من

همدان بإيران وإليها ينسب توفي سنة ٣٩٨
ولم ينل كاتب في عصره ما نال من التمجيد
والشهرة ، وفيه يقول الثعالبي في اليتيمة : « هو
معجزة همدان ونادرة الفلك وبكر عطار
وفرد الدهر وغرة العصرة . لم ير ولم يرو أن
أحدا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء
بمثل إعجازه وسعره » وكان أهم ما راع معاصريه
من أدبه مقاماته المشهورة . وقبيل وفاته بنحو
سنة عشر عاما ولد بقرطبة في الأندلس
ابن شهيد أحمد بن عبد الملك في بيت ثراء
وعز ومجد ، وتوفي سنة ٤٢٦ وكان شاعرا
وناثرا بارعا وفيه يقول ابن بسام :

« نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل
والنهار ، إن هزل فسجّع الحمام ، أوجد فزئير
الأسد الضرغام ، نظم كما اتسق الدر على النحور
ونثر كما خلط المسك بالكافور » .

ومن أروع آثار ابن شهيد الأدبية رسالته
« التوابع والزوابع » والتابع الجني والزابعة
الشیطان ، وهو يذكر في صدرها أن
صديقا له يسمى أبا بكر بن حزم كان يروعه
أدبه روعة لاحدا لها ، مما جعله يقسم أن له
تابعة من الجن تنجده في فرائده البديعة
وزابعة من الشياطين تسعفه وتؤيده . واعترف
لصديقه بأن له تابعا من الجن يسمى زهير
ابن نسمير من قبيلة أشجع في الجن تقابل قبيلة
ابن شهيد أشجع العربية في الإنس ، وأن هذا
التابع تراءى له يوما على فرس أدهم بباب
مجلسه حين أرتج عليه القول في أثناء مرثية
ينظمها فأنشده بيتا حل به عقدة لسانه في
مرثيته وتحادثا حينما ، وعلمه أبياتا ينشدها إذا
أراد استحضاره ، وأوثب فرسه الحائط
وغاب عنه ، فكان ابن شهيد بعد هذا اللقاء
لتابعه كلما أرتج عليه أو ضاق به مسلك في
الشعر ينشد الأبيات فيترأى له تورا فيدرك

(٥) ألقى في الحلقة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ الموافق ١٢ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

بقرمحته ما يرغب فيه ويريده ، ويقول
ابن شهيد لصاحبه أبي بكر بن حزم : إن صحبته
لتابعه تأكدت وأنهما ذات يوم تذاكرا أخبار
الشعراء والكتاب القدماء ومن كان يالفهم من
التوابع والزوابع ، وأنه سأل تابعه
هل يمكن أن يلتقي معه بهم ، فقال له : ينبغي
أن أستاذن شيخى من الجن فإن أذن لى حققت
لك ما تريد ، وطار عنه إلى شيخه الجنى كلمح
بالبصر . وعاد مسرعا وقد أذن له ، فأردف
ابن شهيد على فرسه ، وسار بهما كالطائر
يجتاب الجو فالحو ويقطع الدو فالدو إلى أن
رأى ابن شهيد أرض الجن : أرضا لا كأرض
الإنس مكتظة بالشجر عطرة الزهر ، وقال
له تابعه : بمن تريد أن نبدأ ، فأجابه
ابن شهيد : الكتاب أولى بالتقديم ولكنى إلى
الشعراء أشوق ، فقال له من تريد منهم ؟ قال
صاحب امرئ القيس ، فأمال تابعه . عنان
الفرس إلى واد من أودية الجن وصاح :
يا عتيبة بن نوفل ومثل لهما فأقسم عليه تابع
ابن شهيد بسقط اللوى فحو ومثل ويوم دارة
جلجل (وهى مواضع فى المعلقة) إلا
ما أنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسى
صاحبى وعرفتنا كيف إجازتك له ، وسأله
عتيبة أهذا (يريد ابن شهيد) فتاهم ؟ وما لبث
أن أنشدهما قصيدة امرئ القيس :

(سَمَّا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا)

حتى أتمها . وسأل ابن شهيد أن ينشده
بعض شعره فهم بالنكول إجلالا له ، ثم
تماسك وأنشده قصيدة حماسية ، فأعجب بها

عتيبة وأجازه وغاب عنهما . فسأله تابعه
زهير بن نمر من تريد لقاءه بعده ؟ فأجابه
صاحب طرفة ، فأرسل فرسه قاطعا وادى
عتيبة إلى غيضة ملتفة الأشجار .
وفىها صاح زهير : يا عنتر بن العجلان حل
بك زهير وصاحبه ، ويستحلفه بخولة صاحبة
طرفة وبما أمضى معها من ليلة إلا استقبلهما ،
فبدا لهما فارس جميل الوجه متوشح بسيف ،
ورحب بهما . وسأله ابن شهيد أن ينشدهما
بعض قصائده ، فأنشدهما لامية قصيرة
لطرفة ، وأنشده ابن شهيد خمرية بديعة ،
فصاح عنتر قائلا لله أنت اذهب فانك مجاز
وغاب عنهما . فسأله زهير من تتوق إلى
لقاءه ؟ ويلتقيان بأبى الخطار صاحب قيس
ابن الخطيم ويحييهما ويستنشد ابن شهيد ،
وينشده إحدى قصائده ، ويعجب بها ويحيزه
ويعدل إلى صاحب أبى تمام وينشده ابن شهيد
بعض قصائده ، ومن بينها قصيدة فى رثاء
صديقه حسّان بن مالك ويعجب بشعره ويحيزه .
ويلتقى مع تابعه زهير بصاحب البحتري
ويسميه أبا الطبع ، وينشدهما قصيدة له إلى
نهايتها ويستنشد ابن شهيد ، فيعارضه بقصيدة
بديعة ، ويحيزه . ويسأل تابعه زهير أن
يلقى به صاحب أبى نواس ، ويقول له زهير
إنه بد يرحل منذ أشهر قد غلبت عليه الخمر ،
ويركض الفرس إليه ، ويشق سمعهما قرع
النواقيس ، وأخذ يمران بأديار وكنائس

وحانات حتى انتهيا إلى دَيْر حُنَّة، فوقف
زهير ببابه، وقال سلام على أهل دَيْر حنة
فأقبلت نحوهما الرهبان وقد وضعوا في
أوساطهم الزنانير وقبضوا على العكاكيز،
ولحاهم ورءوسهم تشتعل شيبا، وسألوا زهيرا
ما بغيتك؟ .

قال : حسين الدنان صاحب أبي نواس
قالوا إنه عاكف على شراب الخمر منذ عشرة
أيام، ومضوا بهما إلى بيت اصطفت دنانه،
به حسين : شيخ طويل الوجه . افترش أضغاث
زهر واتكأ على زق خمر وبيده كأس كبيرة،
فقال له زهير حياك الله أبا الإحسان، فتمتم
بكلام لا يعقل لغلبة الخمر عليه . ولم يلبث
ابن شهيد أن أنشده خمرية من خمرياته، وكأنما
حين سمعها عرفه، فصاح به أشجعي أنت،
فقال له ابن شهيد أنا ذاك، فاستدعى ماء
شرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتذر إليه،
وتلطف له طالبا منه أن ينشده بعض شعره،
فأنشده قصيدة له مشهورة في دَيْر حُنَّة، وكاد
ابن شهيد يخرج من جلده طربا، وسأل حسين
ابن شهيد أن ينشده بعض أشعاره، فأنشده
من غزله الصريح ومراثيه ومجونه وبلغ من
طرب الحسين لبعض ما سمع منه أن قام برقص
به ويردده، وأفاق، فقال : هذا والله شيء لم
نُلهمه نحن، واستدناه، فدنا منه، فقبله بين
عينيه، وقال له اذهب فإنك مجاز على الرغم من
الحاسد الكاره . وقال له تابعه زهير من
تشتاق إلى لقائه بعد من لقيت؟ فقال له خاتمة

القوم صاحب أبي الطيب فقال : اشد له
حيازيمك وعطّر له نسيمك، وأمال عنان
فرسه نحو طريق طويل، وجعل الفرس
يركض بهما، وزهير يتأمل آثار فرس بعيدة،
فقال له فيم تتأمل؟

قال : إنها آثار فرس حارثة بن المغلس
صاحب المتنبي وهو شغوف بالقنص والصيد،
وانتهيا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب
على كشيبي، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه
وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة
صفراء، فحياه زهير، فأحسن الرد من مقلة
شوساء ينظر بمؤخرها تكبرا وتبا، فعرفه
زهير مقصدي ورغبتي في إجازته لي،
واستنشده حارثة، فأنشده قصيدة حماسية من
طراز شعره وما به من حكم وشعور بالقوة
وحيلة على الدهر ورفع للأراذل الجهلاء .
ويعجب بشعره حارثة، ويقول لزهير : إن
امتد به العمر فلا بد أن ينظم الدر، ويحيز
ابن شهيد، وبذلك يضع في ميزانه ضد خصومه
إجازات هؤلاء الشعراء الكبار وشهاداتهم له
بالتفوق في الشعر والبراعة فيه .

ويسأل زهير ابن شهيد : من تريد بعد هؤلاء
الشعراء؟ فقال له : مل بي إلى الخطباء يريد الكتاب
فقد كفائي ما سمعت من أصحاب الشعراء،
فركضا الفرس في الصباح، ولقيا فارسا أسرا
إلى زهير ببعض الكلام وتركهما، فقال
زهير لابن شهيد : جمعت لك كتاب الحن

بِمَرْج دَهْمَان، وانتهيا إلى المرج، وإذا بناد
عظيم وقد تحلّق فرسان الكلام حول شيخ
أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة
بيضاء طويلة، فقال ابن شهيد سيرا الزهير من
هذا الشيخ؟ فأجابه عتّيبة بن أرقم صاحب
الجاحظ، فقال ليس لي رغبة إلا أن ألقاه
وألقى صاحب عبد الحميد الكاتب، فقال له
زهير إنه ذلك الشيخ الذي بجانبه، وعرف
زهير عتبة صاحب الجاحظ ميل ابن شهيد
إليه، فاستدناه وأخذ في الكلام معه وأعجب
به وقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا
أنك مغرم بالسجع، فكلامك أشبه بالشعر
نه بالنثر، وقال له ابن شهيد: ليس هذا -
أعزك الله - مني جهلا بأمر الكتابة وما في
المماثلة والمقابلة من فضل، وابن شهيد يريد
ما تميز به الجاحظ في كلامه من الازدواج
والمماثلة بين العبارات دون محاولة للسجع
وقوافيه. ويستمر ابن شهيد قائلا لصاحب
الجاحظ إنه إنما يستخدم السجع تمشيا مع
فرسان الكلام لزمانه الذين يستحبون السجع
على الازدواج، ويصوغ ذلك في عبارات
شبيهة بأسلوب الجاحظ وما يطبعه من الازدواج
والمماثلة، ويتدخل صاحب عبد الحميد الكاتب
فيقول لصاحب الجاحظ: لا يغرنك منه
ما تكلف من المماثلة فإن السجع طبعه. ويقول
له ابن شهيد لا تعجل، ويصوغ له عبارات
من نمط أسلوبه. ويتلطف صاحب الجاحظ
وعبد الحميد معه ويسألانه أن يقرأ عليهما

بعض رسائله، فيقرأ رسالته في صفة البرد
والنار والخطب ويستحسناتها، ثم يقرأ رسالته
في الحلواء، ويختار طائفة من ألوانها مثل
الفالونج وهو حلواء هلامية من الدقيق
والسمن وعسل النحل، والخبيص وهو حلواء
من التمر والسمن والبيض، والزلابية وهي حلواء
من عجينة يفتلى في الزيت ويُعتقد بعسل النحل،
إلى غير ذلك من ألوان يطيل في وصفها ساجعا
سجعا بديعا في لفظ رشيق، مما جعل صاحب
الجاحظ وعبد الحميد يقولان له: إن لسجعك
موضعا من القلب ومكانا من النفس.
ويسألانه عن يطعنون عليه من أبناء جنسه،
وعن هم أشد طعنا عليه؟ فيذكر لهما ثلاثة
هم من يسمى أبا محمد وقد دس عليه عند
الخليفة المستعين الأموي (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ)
وشخصيته غير معروفة. ومن يسمى أبا بكر،
وهو إما أبو بكر بن حزم الذي وجه رسالته
إليه، والذي اتهمه بأن له تابعا يؤيده،
وإما أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باسم
إشكياط الذي كان يتهمة بسرقة بعض
نثره البديع من سابقه والثالث اللغوي
المشهور في عصره أبو القاسم الإقليلي ويصيح
تابعا للجاحظ وعبد الحميد الكاتب، يا أنف
الناقة بن معمر، من سكان خيبر - وهو
صاحب الإقليلي وتابعه - ويقوم إليهما جنتي
ربعة، اختلط البياض في شعر رأسه بالسواد
مزهوا بنفسه، يتعارج في مشيته، فقالا
لابن شهيد: هذا صاحب الإقليلي، وسألاه
عن ابن شهيد، فقال: لا أعرف على من قرأ

— وكانوا يتنقصون من يأخذون العلم عن
الصحف المكتوبة ، ولا يأخذونه عن الشيوخ —
وحين سمع منه ابن شهيد كلمته قال لنفسه :
إن لم تُحرب عن ذاتك ، وتظهر بعض أدواتك
وأنت بين فرسان الكلام لم يطرلك بعدها
طائر ، وكنت غرضا لكل حَجَرٍ عابر .
وقال لتابع خصمه الإفليلي : وأنا أيضا
لا أعرف على من قرأت ، فقال له : طارحني
كتاب الخليل (يقصد معجم العين)
أو فاطرني على كتاب سيديويه ، ثم قال له :
أنا أبو البيان ، فقال له ابن شهيد ساخرا :
إنما أنت كمن وسطلا يطرب ، وهيئات حتى
يكون مساقك عديا ، وكلامك رطبا ، وحتى
تتناول الوضيع فترفعه والرفيع فتضعه والقبيح
فتحسنه ، وقال له تابع الإفليلي : أسمعني
مثالا ، فقال له ابن شهيد حتى تصف برغوثة
فتقول :

« أسود زنجي ، وأهل وحشي ، ليس بوان
ولا زُمَيْل (جيان) وكأنه جزء لا يتجزأ من
ليل ، وشونيزة (الحية السوداء) أو ثبتها
غريزة أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب
قراد (دُوَيْبَة) شريه عيب ، ومشيه وثب ،
يكن نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن مؤلم ،
ويستحل دم كل مسلم ، مساور للأساورة ،
يجر ذيله على الحيابرة ، يهتك ستر كل حجاب
ولا يحفل ببواب . . شره مبثوث ، وعهده
منكوث ، وكذلك كل برغوثة ، وكفى بهذا

نقصا للإنسان ، دالا على قدرة الرحمن »
ويعرض على تابع الإفليلي وصفا بديعا
مماثلا لثعلب ، ولفته في هذا النادى الخاص
بالكتّاب فتى كان يرميه بـطَرَفه . فلما أنهى
وصفه للثعلب قال له : تحيّل على الكلام
لطيف . وسأل ابن شهيد تابعه عنه فقال له :
إنه زُبْدَةُ الحَقَب تابع بديع الزمان ، فصاح
ابن شهيد يا زبدة الحقب اقترح على ما تشاء ،
فقال له : صف جارية ، فوصف جارية له ،
فأعجبه وصفه فقال ابن شهيد : هلا أسمعني
وصفك للماء ، فقال زبدة الحقب إنه من
البيان المعجز ، فأقسم عليه أن يذكره ، فذكره
قائلا : « أزرق كعين السُّنَّور (القط) صاف
كقضيبي البِلَّاور ، انتخب من الفُرات ،
واستعمل بعد البسات ، فجاء كلسان الشمعة
في صفاء الدمعة » . ولم يلبث ابن شهيد أن
عارضه بقطعة في وصف الماء يقول في فاتحتها :
كأنه عَصِيرُ صَباح ، أو ذَوْبُ قمر لسياح ،
(ناصع) ينصب في إنائه ، انصباب الكوكب
من سمائه » . ويغضب زبدة الحقب لروعة
بيانه ، ويضرب الأرض برجله فتنشق تحت
قدمه ويتدحرج فيها ، ويغيب شخصه وينقطع
أثره . ويضحك تابعا الجاحظ وعبد الحميد
الكاتب من فعله ، ويشدد غيظ أنف الناقة ،
ويسأل ابن شهيد هل له أوصاف في شعره
لا يستطيعها ؟ فيورد عليه وصفا لسحاب
مطر في إحدى قصائده ووصفا لذئب . ،
ويصيح فتيان الجن معجبين أشد الإعجاب ،
وتعلو أنف الناقة كآبة شديدة ، ويشفق عليه

فتى من الجن فيصفه لابن شهيد بأنه زير علم
وحرى به أن يعطف عليه ويرفق به ، فيقول
له ابن شهيد : وهل كان يضيره أن يصبر لي
على زكّة في شعر أو نثر ولا يعلنها لتلاميذه ،
ويجعلها إحدى مفاخره . فيقول له الفتى
الجنى إن الشيوخ قد تهفوا أحلامهم في الندرة
ويرد ابن شهيد عليه : بل إنها المرة بعد المرة .
ويقول له صاحبها الجاحظ وعبد الحميد
الكاتب ، وقد بلغ الإعجاب به منهما مبلغا
كبيرا : اذهب فانك شاعر كاتب . وانفض
الجمع في وادى الكتّاب ، والأبصار إليه ناظرة ،
والأعناق نحوه مائلة .

ويقول ابن بسام أن ابن شهيد امتد به
الكلام واتسع به الإطناب ، فرأى أن يكتبني
بهذا القدر من التوابع والزوابع ، غير أنه عاد
يقتطف منها فصولا ، واختار فصلا حضر
فيه ابن شهيد مع تابعه زهير مجلسا من مجالس
الجنّ دار الحديث فيه على ما تعاورته الشعراء
من المعاني ومن أخذ المعنى وزاد فيه ومن
قصر ، وحاوره بعض الجن في أشعار لشعراء
مختلفين وأنشد بعض أشعار بدیعة له توضّح
مدى إحسانه في الشعر ونظمه . ويورد
ابن بسام فصلا طريفا من فصول التوابع
والزوابع مشى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير
في أرض الجن فأشرفا على روضة فيها قطيع
من حُمُر الوحش والبيغال ، ولحقت به
الحُمُر ، وقالت له : تهيا للحكم ، فسألها

ابن شهيد : ما الخطب ؟ فقالت : شعيران
لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك
حكما ، فقال ابن شهيد : حتى أسمع فتقدمت
إليه بغلة شهباء ، عليها جلّتها (غطاؤها
الصائن لها) وبسرّقعها (قناع المرأة) وأنشدته
شعرا غزليا لبغل في صاحبة له وشعرا غزليا
آخر لحمار في أتان أحبّها ووسوس لها نمام
ما جعلها تتغير والحمار يشكو تباريح حبه .
فقال ابن شهيد إن أنف الناقة كان أولى بالحكم
منى ، وفهمت البغلة أنه فضّل شعر البغل على
شعر الحمار ، وقالت لابن شهيد : أما تعرفني ؟
فقال لها : لو كان هناك علامة ، فنجحت لثامها
فإذا هي بغلة أبي عيسى والخال على خدّها ،
فتباكى معها طويلا وأخذا في ذكر ما ضيما
وأيامهما ، وسألته ما فعل الأحبة بعدى ؟ أهم
على العهد ؟ فأجابها ابن شهيد : شبّ الغلمان ،
وشاخ الفتيان ، وتنكر الحيلان ، ومن إخوانك
من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة ،
فسألته أن يقرّهم السلام . وكانت في بركة
بقرهما لوزة بيضاء في مثل جثمان النعامة ،
لم يسرّ أخف من رأسها حركة ولا أحسن للماء
في ظهرها صبّا ، ثنى رقبتها وتكسر حلقها
فترى الحسن مستعارا منها ، فصاحت بالبغلة :
لقد حكمت بالهوى . فسأل ابن شهيد زهير
عنها فقال له : هي تابعة شيخ من مشيختكم
تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف ، وهي
ذات حظ من الأدب . فتعرّض لها قائلا :

أيتها الإوزة الجميلة العريضة الطويلة
أحسن بجمال حدقتيك واعتدال منكبيك
واستقامة جناحيك وطول جيبيك مقابلة
الضيف بمثل هذا الكلام ؟ وأنا الذي همت
بالإوز صباية . فدخلها العجب من كلامه
واعترتها خفة شديدة في مائها فمرة ساجحة ،
ومرة طائفة ، تنغمس في الماء هنا ، وتخرج
منه هناك . وهو فعل معروف من الإوز عند
الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها
وعرضت صدرها وعملت بسمجدا فيها ،
واستقبلتها جاثية كصدر المركب فقالت
موجهة الخطاب إلى ابن شهيد أيها المغرور
كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟
وسأله : ما الذي تحسن ؟ فقال لها ارتجال الشعر
والخطب (يريد الرسائل) فقالت له : ليس عن هذا
أسألك . إنما أردت بذلك إحسان النحو
وغريب اللغة ، إذ هما أصل الكلام ومادة
البيان ، واهتزت من جانبيها ، وجال الماء
في عينيها ، وسألها يا أم خفيف ؛ أيهما أفضل :
الأدب أو العقل فقالت : بل العقل ، فقال لها :
هل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة فتطلبني
سقل التجربة إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ،
فإذا أحرزت منه حظا فحينئذ ناظري في الأدب .

ويبدو من حديث ابن شهيد مع
الإوزة وأخذها عليه أنه لا يحسن النحو وغريب
اللغة أنها تابعة لخصمه ابن الإفليلي بجانب
تابعه أنف الناقة ، وقد رماها بالحقم وقلة

العقل ، ودعاها إلى أن تطلب عقل التجربة إذ
تفقد عقل الطبيعة : وهو في كل ذلك يقصد
ابن الإفليلي الذي كان يتتبع كلامه ليجد فيه
فيه عثرة يذكرها لطلابيه . ويؤكد رأينا
أن ابن الإفليلي مقصده في حملته على الإوزة
وأنها تابعته مثل أنف الناقة تابعه ما قاله
ابن بسام من أنه هو الذي عرض به ابن شهيد
في التوابع والزوابع وأنه كان منها الغرض
والهدف .

واختلف الباحثون في التاريخ الذي كتبت فيه
رسالة التوابع والزوابع ، فرأى بعضهم أنها كتبت
في مطالع القرن الخامس الهجري ظنا منه أن
أبا بكر بن حزم الذي أهدى إليه ابن شهيد
الرسالة هو أخو ابن حزم العالم الأندلسي
المشهور على بن أحمد بن سعيد إذ كان له
أخ بنفس الاسم : أبي بكر ابن حزم توفي
في أثناء وباء للطاعون بقرطبة سنة ٤٠١
فظن أنه هو الشخص الذي أهدى إليه
ابن شهيد الرسالة ، ولم يلاحظ أنه كان حينئذ
في الثامنة عشرة من عمره ، ويبعد أن يكتبها
في هذه السن المبكرة ، وينتفى ذلك يقينا حين
نقرأ ترجمة أبي بكر يحيى بن حزم في جدوة
المقتبس عند الحميدى إذ تمضي على هذا

النحو : « يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من
أشيوخ الأدب ، وله في ذلك ذكر ، وهو الذي
خطبته ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع
التي سماها : « شجرة الفكاهة » وهو من بيت

آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم . وإذن فهو — دون ريب ليس أخا لابن حزم المفكر الأندلسي المعروف ولا هو من أسرته ، إذ هو من أسرة أخرى بشهادة الحميدى . وكثرت ظنون الباحثين في تاريخ الرسالة ، فقليل ألفها ابن شهيد في سنة ٤٠٤ ، وقليل ألفها في عهد الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ — ٤٠٧) بقرطبة ، وقليل بل سنة ٤١٤ إذ في الرسالة قطعة من مرثية لابن شهيد نظمها في ابن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة فلا بد أن تكون الرسالة قد ألقت بعد هذا التاريخ . وقليل إنها ألقت سنة ٤١٥ . وجميعها ظنون مخطئة ، إذ يذكر فيها ابن شهيد رثاء له في الوزير الأديب حسان ابن مالك بن أبي عبدة ، وفي كتاب الصلة لابن بشكوال أنه توفى في شوال سنة ٤١٦ للهجرة ، وفي ذلك دليل واضح على أن الرسالة لم تؤلف قبل هذه السنة ، وبذلك تتداعى كل الظنون السابقة :

ولما كانت الرسالة تتناول عالماً وراء عالمنا الواقعى هو عالم الجن والشياطين ، وكانت رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى تتناول أيضاً عالماً وراء عالمنا هو العالم الآخرى وكل ما يتصل به من حشر ونعيم وجحيم ، وكانا جميعاً متعاصرين ، فقد أخذ الباحثون يتساءلون هل تأثر أحدهما بصاحبه

في رسالته ، وكان من السابقين الى إبداء الرأى في هذا التأثير الدكتور أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » إذ قال : « لعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في رسالته الغفران ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كل شئ » .

ومضى الباحثون بعد الدكتور أحمد ضيف يتساءلون عن تاريخ تأليف الرسالتين ، فلاحظوا أن ابن شهيد ألف رسالته قبل سنة ٤٢٠ للهجرة بينما ألف أبو العلاء رسالته — فيما يظن — سنة ٤٢٤ أو بعدها ، فهى متأخرة عن رسالة ابن شهيد . ومن ثم قالوا إن أبا العلاء هو الذى تأثر بابن شهيد ، ومن هؤلاء غرسية غوميس فقد زعم — كما نقل عنه بالثنيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة الدكتور حسين مؤنس — أن ابن شهيد صور في رسالته رحلة شاعر إلى الجنة سابقاً بذلك المعرى وهو خطأ بين إذ ليس في رسالة ابن شهيد أى ذكر أو إشارة إلى الجنة فضلاً عن أن تكون رحلة إليها ، إنما هى رحلة إلى عالم الجن والشياطين فلا علاقة له أى علاقة بعالم الغفران الآخرى وكل من يقرأ الرسالتين يعرف — بوضوح — أن رسالة التوايع والزوايع تستلهم ما شاع عند العرب

قديماً من فكرة الجن والشیاطین التي تلهي
 الشعراء في دنيانا ما ينظّمونه من الشعر .
 بينما رسالة الغفران لأبي العلاء تستأهم عقيدة
 المعاد الإسلامية وما يتصل بها من الحشر
 والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار واللقاء
 مع بعض من غفر لهم من الشعراء في الجنة
 وروية إبليس والزنادقة في الجحيم ، فلا
 صلة أي صلة بين الرسالتين وخطأ لا
 يماثله خطأ افتراض التأثير بينهما أو التأثير .
 وواضح كل الوضوح مما قدمت أن رسالة
 التوابع والزوابع تتصل بما كان يزعمه
 الجاهليون من أن الجن والشیاطین تلهي
 الشعراء أشعارهم . وبلغ بهم الخيال أن سموا
 لبعض الشعراء توابعهم ، واشتهر بينهم اسم
 مسحل لتابع الأعشى ، ورووا عنه أخباراً
 وأقاصيص ، وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج
 الأصفهاني خبران عنه نجماهما أما أولهما فيذكر
 أن شخصاً رحل في الجاهلية ، فأقبل ليلة
 ببعيره على بئر يريد أن يسقيه منها ماء ، فاذا
 عندها نقر مشوهون ، وإذا رجل أشد منهم
 تشويهاً أتاهم ، فقالوا لصاحب البعير : هذا
 شاعر ، ثم سألوا الرجل أن ينشده بعض شعره
 فأنشده قصيدة الأعشى : « ودّع هريرة إن
 الركب مرتحل » حتى أتى على آخرها لم يتخرم
 منها حرفاً فتعرض له صاحب البعير يسأله :
 من نظم هذه القصيدة ، فقال له : أنا نظمتها
 فتعجب وقال له : لولا ما أنشدت وسمعت
 لأخبرت أنك أنشديها العام الماضي

بينجبران ، فقال له : إنك لصادق ، أنا
 الذي ألقيتها على لسانه ، وأنا مسحل ،
 ما ضاع شعر شاعر وضعه عند الأعشى
 والخبر الثاني يحكي لقاء طويلاً بين الأعشى
 نفسه وبين شيطانه مسحل في طريقه بأوائل
 أرض اليمن يريد قيس بن معديكرب بحضر موت
 لمديحه ، فأصابه مطر ، فرمى ببصره يطلب
 مكاناً يلجأ إليه ، ف وقعت عينه على خيباء من
 شعر فقصده ، وإذا شيخ على باب الخيباء ،
 فسلم عليه فرد السلام ورحّب به فحط رحله ،
 ودخل الخيباء فسأله من أنت ؟ وأين تقصد ،
 فقال له : أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب
 فقال له حياك الله أظنك امتدحتني
 بشعر ، فقال له الأعشى : نعم فسأله أن
 يسمعه لم فأنشده قصيدة يتغزل فيها بمن تسمى
 سمية ، وفوجيء الأعشى به ينادي :
 ياسمية اخرجي ، فخرجت فقال لها أنشدي
 عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معديكرب
 وتغزلت في مطلعها بك فأنشدتها لي
 آخرها ، وصنع به نفس الصنيع في
 قصيدته : « ودع هريرة » حين ذكر له
 مطلعها ، ونادى على جارية عنده تسمى
 هريرة فأنشدتها لي آخرها ، وتخير الأعشى
 وغشيت رعدة ، فقال له : لا تُرّع فأنا
 هاجسك مسحل الذي ألقى على لسانك الشعر
 فسكنت نفسه .

وقد يؤذن مثل هذين الخبرين عن
 الأعشى وشيطانه مسحل بأن فكرة الجاهليين

عن أن لكل شاعر شيطاناً أو رعيياً من الجن
هي التي أوحى إلى ابن شهيد بصنع رسالته
«التوايع والزوايع» .

ومن يقرأ الرسالة : يلاحظ أن ابن شهيد
يلقى فيها شياطين امرئ القيس وطرفة
وقيس بن الخطيم ولا يلقى شيطان
الأعشى مسلحاً مع ما ذكر عنه من
أخبار مختلفة في كتب الأدب ، ومعروف
أن الأعشى يُعَدُّ من فحول الشعراء في
الجاهلية ، وهو أحد أصحاب المعلقات العشر ،
وأحد المقدمين على سائرهم مع امرئ القيس
وزهير النابغة ، وفي رأينا أنه ليست فكرة
شياطين الشعراء وما حدث الجاهليون من
أخبارهم هي التي أوحى إلى ابن شهيد
رسالته ، إنما أوحى إليه بها بديع الزمان
في مقامة بين مقاماته تسمى المقامة الإبلية ،
كما أشرت إلى ذلك قديماً في كتابين لي هما :
« المقامة » و « الفن ومذاهبه في النثر العربي »
ورأيت أن أعود إلى بسط الفكرة وتوثيقها
بأدلة جديدة .

ومقامة بديع الزمان تدور على
أن عيسى بن هشام راوى المقامات أضل إبلا
له فخرج في طلبها ، وما زال يتنقل من واد
إلى واد حتى دخل وادياً من أرض الجن
وهو لا يدري ، وادياً أخضر ، به أنهار جارئة
وأشجار باسقة وثمار يانعة وأزهار ناضرة
وبسط مفروشة ، وإذا شيخ جالس فارتاع
منه ، فهدأ روعه ، وأمره بالجلوس فامتثل
وسأله عن حاله ، فذكر له ضلال إبلاه
فقال له الشيخ : أصبت دليلك . ووجدت

ضالتيك ، فهل تروى من أشعار العرب
شيئاً ؟ فقال له : نعم وأنشده أشعاراً لا مرئ
القيس وعبيد بن الأبرص ولبيد وطرفة
فلم يطرب لشيء من ذلك ، وقال لعيسى
ابن هشام : أنشدك من شعري ،
وأنشده قصيدة بديعة من قصائد جرير حتى
أتمها ، فقال له عيسى بن هشام : يا شيخ
هذه القصيدة لجرير وقد ذاعت وشاعت
بين البدو والحضر وتداولتها الألسنة منسوبة
لجرير ، فهو صاحبها وناظمها ، فقال له
دعك مما ظننت ، وأنشدني شعراً لأبي
نواس إن كنت تروى له بعض أشعاره
فأنشده إحدى خمرياته ، فطرب لها أشد
الطرب . وقال له : امض على وجهك
وستلقى رجلاً ، ووصف لعيسى بن هشام
ما بيد الرجل ملغزاً بوصفه لمذبة وسراج
ثم قال له : ما أحد من الشعراء إلا ومعه
معين منا ، وأنا الشيخ أبو مرة (إبليس) .
ثم غاب عن عيسى بن هشام ولم يعد يراه
ومضى عيسى لوجهه ، فلقى رجلاً في
بده مذبة ، فعرف أنه صاحبه الذي ذكره
له أبو مرة وقال له ما سمعته منه ، فناوله
سراجاً ، وأشار إلى غار مظلم في جبل ،
فقال له : ادخله وفي يديك السراج ، فدخله
على هدى السراج ، وما إن خرج من أرض
الجن حتى وجد إبلاه ، فاوى وجوهها
وردّها .

والصلة واضحة بين هذه المقامة الإبلية
عند بديع الزمان ورسالة التوايع لابن شهيد

إذ هي التي أوحى إليه بإطار رسالته ،
وأقصد لقاءه بشياطين الشعراء في أرض
الحن . وقد اتسع ابن شهيد بالفكرة وطورها
تطويرا بديعا ، وجعل للكتاب في تلك الأرض
توابع كتوابع الشعراء ، وأضاف إلى ذلك
ما روى في الأساطير العربية من تمثل الحن
في صور بعض الحيوان والطير .

ولكن هل من دليل على أن ابن شهيد
عرف مقامات بديع الزمان ، والأدلة على ذلك
في داخل الرسالة كثيرة ، ومن أهمها أن نجد ابن
شهيد يلتقي بثلاثة^١هم - في رأيه - كبار
الكتاب في العصرين الأموي والعباسي حتى
زمنه ، وهم عبد الحميد الكاتب والجاحظ
وثالثهم بديع الزمان ، فقد طلب إلى تابعة
كما مر بنا - أن يلتقي توابع الكتاب والتقى
بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ،
والتقى أيضا بتابع بديع الزمان ، وسماه زبدة
الحقبة ، وكأن الأيام ظلت طوال العصور
تمخض الكتابة والكتاب ، حتى استخلصت
الزبدة أو الكاتب الأملح بديع الزمان ؛
وليس كل ما أوحى به البديع إلى ابن شهيد
فكرة أرض الحن ، فقد أوحى إليه مقاماته
أن يحاكي منها المقامة المضبرية التي يصور
فيها بديع الزمان بعض الأطعمة الشهية وما
يتولى من يرونها من سيلان اللعاب واتقاد
الأكباد ، وقد مضى ابن شهيد - على
شاكلته - يضع رسالة في وصف ألوان
من الخبوء وما تودع في قلوب المشاهدين

لها من سعار الوله والشره ، حتى لتتحرك
الأسنة على الشفاه ، وحتى لتلمع العيون
وتحقق الأفتدة . وقد عرضها ابن شهيد
على تابعي عبد الحميد الكاتب والجاحظ
فأعجبا بها إعجابا شديدا ، كما أعجبا بتفننه
على طريقة البديع في وصف البرد والنار
والوقود ووصف برغوث وثلج . والتفت
ابن شهيد إلى تابع بديع الزمان : زبدة
الحقبة فقال له : اقترح علي ما تريد ،
فاقترح عليه وصف جاريه ، فوصفها
واستحسن وصفه زبدة الحقبة قائلا :
أحسنت ما شئت أن تحسن ، وسأله ابن
شهيد أن يسمعه وصفه للماء على لسانه
فقال له إنه من المعجز الذي لا يمكن أن
يجاريه أحد فيه وذكره له كما مر بنا في
حديثنا عن الرسالة ، ومرت معه معارضة
ابن شهيد له بوصف للماء بديع .
وهو عمل شابه بغير قليل من الروح
المرحة ، مما جعله يسمى الرسالة كما قال
الحميدى - باسم شجرة الفكاهة لما فيها من
تهكم ودعابة .

وحرى بي أن أشير إلى ما تصور إحياءات
مقامات بديع الزمان لابن شهيد في رسالته ؛
«التوابع والزوابع» من سرعة انتقال آثار
أسلافنا من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب
والعكس ، فهذه مقامات بديع الزمان الهمداني

الإيراني قدقل سريعا إلى أقصى الغرب ، إلى
قرطبة ، فتلهم ابن شهيد رسالته التوابع
والزوابع ، ونزداد عجبنا حين نجد الثعالبي
النيسابوري الإيراني المعاصر لابن شهيد
والمتموفي بعده بثلاثة أعوام يترجم نه في
كتابه اليتيمة ويذكر ما نوّه به في التوابع
والزوابع من رسائله وأوصافه البديعة ،
وكاد الثعالبي لا يترك لابن شهيد معاصرا

له في الأندلس إلا وترجم له مع من ترجم لهم
في جميع الأوطان العربية إذ كان لديه
ولدى أسلافنا شعور عام طوال قرون
متعاقبة بأن تلك الأوطان جميعا وطن
واحد تعمه وحدة أدبية واحدة ، وهو
ما نتمنى أن يتحقق من جديد لأوطاننا
العربية وأدينا العربي الخالد .

شوقي ضيف

الأمين العام للمجمع

قام بإعداد هذا الجزء ومراجعته

السيدة / سميرة صادق شعلان

الحررة بلجنة التحرير والشؤون الثقافية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزي السيد شعبان

رقم الايداع بدار الكتب ٧٥٧٧ / ١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

١٤٤٩ — ١٩٨٩ — ٢٠٠٢



